السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

للإمام المجدد شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(١٣٠٧هـ - ١٣٧٦هـ)

شرحه فضيلة الشيخ العلامة الدكتور

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرين

(حفظه الله ورعاه)

اعتنى به وعزا آياته وخرج أحاديثه

أبو أنس علي بن حسين بن خليل أبو لوز

الجزء الأول

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

السبك الفريد

شرح

كتاب التوحيد

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

مدار الوطن للنشر - الرياض

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١ ـ ص.ب : ٣٣١٠
فرع السويدي : هاتف : ٤٢٦٧١٧٧ ـ فاكس : ٤٢٦٧٣٧٧

ـ البريد الإلكتروني : Pop@dar-alwatan.com

ـ موقعنا على الإنترنت : www.madar-alwatan.com




تقديم
فضيلة الشيخ عبد الله بن جبرين
بخط يده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكبير المتعال، المتوحد بالكمال، المتعالي عن الشركاء والأمثال، تفرد بالبقاء والدوام والجلال، وتنزه عن الصاحبة والأولاد والأشكال، أحمده سبحانه وأشكره على جزيل الإنعام والإفضال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والأفعال، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بعموم البعث والإرسال، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأصحاب والأتباع في جميع الأزمنة والأحوال.

أما بعد فإن ربنا سبحانه خلق الخلق ورزقهم، وأعطاهم وخولهم، واختص من خلقه الجن والإنس بالتكليف والأمر والنهي حيث تميزوا بالعقول والإدراك، وفهم الخطاب، ففرض عليهم عبادته وحده، وأمرهم بتوحيده بالطاعة، وذكرهم بنعمه وسوابغ فضله.

وحيث أن الأصل في الإنسان الجهل والغفلة، وعدم العلم بما خلق له وكلف به، فإن ربنا سبحانه قد أعذر إلى الخلق فأرسل الرسل، وأنزل الكتب ببيان ما خلق له البشر وما كلفوا به، واتفقت رسالة رسله عليهم الصلاة والسلام على دعوة أممهم إلى معرفة الله تعالى وعبادته وحده، وترك عبادة من سواه من الأحياء والأموات، والجماد والحيوان، قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن سلط على النوع البشري عددا من الأعداء الذين يصرفونه عن الإيمان بربه، وعن معرفة ما خلق له من التوحيد والإخلاص، وعن التفكر في آيات الرب تعالى




الكونية التي تبهر العقول وتدل على عظمة الخالق وكبريائه. فأول عدو لنوع الإنسان إبليس اللعين الذي أبى واستكبر عن السجود لأبينا آدم عليه السلام وعصى أمر ربه، ثم بعد أن أنظره الله تعالى أقسم أن يتسلط على ذرية آدم، وقال (لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) وحكى الله عنه أنه قال (لأحتنكن ذريته إلا قليلا) وقال الله تعالى له (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم) الآية ولا شك أنه قد أضل خلقا كثيرا وصرفهم عن التوحيد وزين لهم الشرك والتنديد كما قال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) فهو الذي زين الشرك لقوم نوح حيث أوحى إليهم أن يعكفوا على قبور الصالحين: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ثم يصوروا تماثيلهم وينصبوها في مجالسهم، ثم قال لمن بعدهم إنهم كانوا يعبدونهم وهكذا وقع أول الشرك في بني آدم، ثم تتابع بعد ذلك حتى بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي تمكن فيه الشرك في الأمم وكثرت فيه المعبودات التي تسمى أصناما وأوثانا لأنها كانت مصورة على صور بعض الصالحين أو غيرهم، أو أشجارا وأحجارا زين لهم الشيطان أنها تنفع وتضر وتفيدهم في حياتهم وتجلب لهم الرزق وتنصرهم على الأعداء فقلدوا في عبادتها الآباء والأجداد وتمسكوا بعبادة الأسلاف مستصعبا مفارقة تلك العادات ولو كانت عندهم أدنى فكر في العقول المستقيمة

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) ومع ذلك فإنهم يقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المتصرف في الكون فهو ربهم ومالكهم باعترافهم كما قال تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله) أي سوف يعترفون بأن الفاعل لذلك هو الله وحده وهكذا قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) ونحو ذلك من الآيات، ثم إنهم مع ذلك يخلصون لله تعالى في الأزمات وعند اشتداد الكربات كما قال تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) وقال تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ومع أنهم أيضا يعبدون الله تعالى بأنواع من العبادات كالحج والعمرة والطواف والصدقة والقتال ونحوها، ومع أنهم لا يقصدون من عبادة أصنامهم إلا التقرب والتبرك كما قال الله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) والمعنى أنهم يستشفعون بهم عند الله في جلب الرزق وإنزال المطر وحصول البركة وكثرة المال والولد، ويقربونهم إلى الله إذا دعوه لينصروهم ويظهروهم على غيرهم بقوة منه، وقد يحصل لهم شيء من هذه المقاصد إذا دعوهم مع الله إما عن وجه المصادفة أو من باب الفتنة ويعتقدون أن لآلهتهم تأثيرا وإنما ابتلاهم الله تعالى فيعظمون لذلك بسبب ذلك آلهتهم فيتمادون في غيهم وضلالهم

ثم إن الله تعالى كلف رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذرهم ويحذرهم
ويخوفهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المشركين، ولقد بشر وأنذر، وبين
لهم حقيقة التوحيد والدين الصحيح الذي دعت إليه الرسل جميع الأمم،
وأوضح لهم أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر، وأنها جماد أموات غير
أحياء، وأن الله سبحانه هو الذي يملك ذلك كله بيده الخير وهو على كل
شيء قدير، ثم قد حكى الله تعالى ما واجهه من الرد عليه وتكذيبه ورميه
بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن، وأنه قد افترى ما جاء به من هذا الكتاب،
وكذا ما حصل له من الأضرار والأذى والمضايقة والمقاطعة حتى
لأقاربه، إلى أن هاجر وتحول إلى المدينة، ثم أعز الله تعالى نصره وصدق
وعده، وأظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فمحق عنهم وسائل
الشرك وأسبابه، وهدم معابدهم، وأتلف أصنامهم ومعبوداتهم
بعد أن أقنعهم بأنها جماد أو أموات، وقد حمى جناب التوحيد، وسد جميع
طرق الشرك، وبلغ الرسالة التي كلف بحملها وبيانها، وبعد أن أكمل الله له الدين
وبلغ البلاغ المبين اختار الله له جواره، وبعد مضيه الرفيق الأعلى، ثم قيض الله
لدينه من ينصره ويظهره، ويبلغه لأقصى البلاد وأدناها، فقام الصحابة من
خلفهم بالجهاد في سبيل الله تعالى، ونشر الدين، وبيان التوحيد، وهدم معاقل كل
مشرك وكافر، حتى انتشر دين الإسلام في أصقاع المعمورة، وبلغ ما بلغ الليل
والنهار، وقد بذل المسلمون في نصر الدين كل غال ونفيس، وضحوا بأموالهم
وأنفسهم وأهليهم في سبيل الله تعالى، رهبان الليل وفرسان
في النهار، حتى تمت الشريعة، وقام بها الحق، وانتشر دينه، وأعلى كلمته

(وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم)
وحيث أن ظهور هذا التوحيد والقضاء على الشرك ومحو الأديان الأخرى
المنسوخة أو المحرفة مما يغيظ الشيطان وأعوان الشيطان وأهل الملل
والعقائد المحرفة من المجوس واليهود والنصارى والدهرية والملحدين وسائر
النحل الغريبة، فإن جميعهم قد امتلأت قلوبهم على الإسلام حقداً وضغناً وحسداً
من عند أنفسهم، فدفعتهم شياطينهم ووساوسهم إلى إعمال الحيل والمكائد
للنيل من هذا التوحيد ودين الإسلام، والتشكيك في صلاحيته، وإلى العمل
في تضليل المسلمين وإيقاعهم في البدع والمحدثات والشرك بالله تعالى، و
وسائله، حتى يشفوا غيظهم من المسلمين الذين غزوا أهل تلك الأديان
الباطلة، وحتى يخرجوا المسلمين من دينهم إلى غيره، أو يشككوهم في
صلاحيته، وقد نجحوا في كثير من تلك الحيل، وراجت أفكارهم عند الكثير
من الدول الإسلامية التي أخذت تنشر أفكارهم وتطبع دواوينهم، وقد
أدخلوا على المسلمين من الضلالات والبدع والمحدثات ما أعجز الكثير التخلص
منه، حيث نشروا سمومهم ضمن كتب الضلال التي أدخلوها على المسلمين وزعموا
أنها كتب علوم وفائدة تشحذ الأفكار وتوقظ الأذهان، فراجت تلك الكتب التي
ترجموها، وأكب عليها الكثير من المسلمين، ولم يكن عند علماء الأمة من معرفة،
فكانت العاقبة أن كثرت الزندقة والإلحاد في أوساط المسلمين،
وانتهجوا سبل الردى، وتوغل الكثير في تلك العلوم التي انتهت بهم
بعدها الحيرة والشك، فأتاهم أجلهم وهم لا يدرون ما يعتقدون،
مترددون فيما هم عليه في حياتهم حين لا ينفع الندم،

وقد مضت القرون الوسطى على الخوض في علم الكلام والإنكار على الصفات الكمال في حق الخالق تعالى، واستخفى أهل الإثبات، ومن تجرأ منهم وأظهر معتقده رموه عن قوس العداوة، ونبزوه بالتشبيه والتجسيم، والابتداع والخرافات [illegible]
ولو كانوا قليلاً في بعض الأزمنة، وكان منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأكرم مثواه، فقد كان في القرن السابع والثامن مواقف مع أهل الابتداع من المعطلة والصوفية والقبوريين ونحوهم، وقد [illegible] العلماء الربانيين، وقلة من العاملين فجهر بالحق، وأعلن القول بالإثبات عن [illegible] أولئك النفاة وأفحمهم بالأدلة الواضحة الجلية، وجعل الله له مكانة مرموقة في قلوب العامة، فأحبوه [illegible] المؤيدين [illegible] فهو أول من جهر في تلك الأزمنة بالرد على المبطلة ونفاة صفات الكمال [illegible] المشركين عباد الأموات ومنافقة [illegible] أصحاب [illegible] من أهل البدع والخرافات [illegible]
[illegible]
لم [illegible] نشر العلم والجهر بالحق والكتابة [illegible] في هذه [illegible] وله كتب نفع الله تعالى بها [illegible]

فبعد موته ضعفت الدعوة إلى العقيدة السليمة والتوحيد الصحيح، وظهرت البدع والمحدثات، واستصغر المنكرون لها، وتمكن الشيطان من الاستيلاء على القلوب، والدعوة إلى الشرك الصريح ودعاء الأموات من دون الله تعالى، حيث تمكنت الرافضة في الكثير من بلاد المسلمين، وأظهروا شركهم بدعاء أئمتهم، واعتقادهم أنهم ينفعون من دعاهم وتقرب إليهم، ثم بنوا على القبور قبابًا عالية، وأوهمهم الشيطان أن هناك دفن الإمام علي أو الحسين أو السيدة زينب ونحو ذلك، وقد قلدهم الكثير من أهل السنة، فعمروا القبور، واعتقدوا أن أهلها أولياء وسادة [illegible]، وأنهم ينفعون من دعاهم [illegible] دعاهم أو تقرب إليهم [illegible] الشرك الصريح [illegible] الكثير من ديار المسلمين، وجادل أهل الباطل في جوازه، وغيروا الأسماء الظاهرة حيث سموه [illegible] توسلاً واستشفاعًا وتوسطًا، وتجنبوا التسمية دعاء أو عبادة أو شركًا، مع أن العبرة بالحقائق لا بالأسماء، ولقد كثر وتمكن الغلو في الأموات والبناء على القبور رغم ورود النهي الصريح في الأحاديث الصحيحة عن رفع القبور والبناء عليها وإسراجها وتجصيصها والكتابة عليها، ونحو ذلك مما هو من الوسائل إلى دعاء الأموات والغلو فيهم [illegible] المشاهد [illegible] القبور [illegible] فبنوا عليها [illegible] أسباب دعاء الأموات مع الله والهتاف بأسمائهم واللجوء إليهم [illegible] الصلاة عندها [illegible] والاعتكاف عندها [illegible] شرك صريح

بالله تعالى فنشأ على ذلك الصغير وهرم عليه الكبير ومضى على ذلك
عدة قرون حتى قيض الله تعالى لهذه الأمة من جدد لها دينها وأعاد
من هداه الله تعالى إلى التوحيد الصحيح والدين القويم ألا وهو الشيخ
المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي الذي ولد
ونشأ في القرن الثاني عشر وتوفي في القرن الثالث عشر والذي هداه الله تعالى
وبصره بحقيقة التوحيد وما يجب لله تعالى على العبيد ولقد ألفى الناس في
زمانه على الشرك ووسائله رغم أنهم ينطقون بالشهادتين ويصلون
ويصومون ويحجون ويقرؤون القرآن ويتعلمون السنة وعندهم كتب الحديث
وكتب أهل العلم ومن بينهم علماء وحفاظ ومع ذلك تفشى الشرك
فيهم وعبدوا غير الله تعالى فتراهم يطوفون بالقبور ويستغيثون بالأموات
ويتقربون بالصلاة عند الأضرحة التي يسمونها مشاهد ويذبحون عندها
القرابين ويلوذون بالسادة الأولياء ويصرفون لهم خالص حق الله تعالى
كما ذكر ذلك عنهم الشيخ [illegible] بقوله:

الشيخ شاهد بعض أهل جهالة … يدعون أصحاب القبور الهمد
[illegible] … من قبة أو تربة أو مشهد

وكذلك ذكر الأمير الصنعاني في داليته بقوله:

أعادوا بها معنى سواع ومثله … يغوث وود [illegible]
وكم هتفوا عند الشدائد باسمها … كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة … أهلت لغير الله جهرا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل … ومستلم الأركان منهن بالأيدي

لقد صدق هذان الشاعران رحمهما الله تعالى في تمثيل ما يعمله أهل تلك الأزمان
عند الأضرحة التي أسموها مشاهد تشبها بعبدة الأصنام والأوثان لأنهم أقاموها
توسلا واستشفاعا وتبركا وهو في الحقيقة عبادة وتذلل وتقرب إلى غير الله تعالى
ولقد أنكر الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبصرهم بالتوحيد الذي خلق الله له الجن والإنس
[illegible] أن ما يفعله هؤلاء عند الأضرحة هو الشرك بالمعبود وكذا الصلاة عند هذه
القبور فابتدأ بالإنكار عليهم إنكارا هادئا وجادلهم بالتي هي أحسن ولم
يجابههم بالتكفير المباشر ولم يشتغل بسبهم علنا في أول النشأة والإنكار
ولقد هدى الله تعالى بواسطته أهل هذه البلاد وعلى رأسهم الإمام محمد بن
سعود أمير الدرعية في ذلك الزمان حيث شرح الله تعالى بالحق والهدى ونور
صدره للإسلام فهو على نور من ربه فآوى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
وواساه وقربه إليه وقام بنصره ومكنه من الدعوة إلى التوحيد وبيان الحكمة
التي لها خلق الجن والإنس ثم من بعده [illegible] وقام بالجهاد
في سبيل الله ونشر الإسلام وإظهار الدين الصحيح ولقد أنكر عليه الكثير من العرب
والعجم [illegible] ونصبوا [illegible] لتغيير ما عليه
عامتهم وقادتهم وكبر عليهم ترك عادات الجاهلية الآباء والأجداد [illegible]
[illegible] من إنكار العامة [illegible]
[illegible] عليهم الأغطية
والرتبات [illegible]
هي أوهى من بيت العنكبوت [illegible] عن هذا الإمام ومن تبعه
ولقبوهم بالوهابية [illegible] أن الشيخ



وأتباعه أضل وأكفر من اليهود والنصارى، ولكن ذلك كله لم يثن من عزمه على الدعوة، ولم يصد دولة آل سعود حفظهم الله عن إظهار الحق ونشره، ونشر التوحيد والجهاد عليه حتى فتح الله بهم البلاد ودانت بالتوحيد من حولهم من العباد، فمن الله عليهم بالنصر والتمكين وتحقق لهم قول الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) وعملوا صادقين بقول الله تعالى (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فنصرهم الله تعالى وحقق لهم الامتثال بهذا الدين القويم الذي من آثاره حصل لهم التمكين في الأرض كما قال شاعرهم المؤرخ ابن غنام رحمه الله تعالى:

لقد رفع المولى به رتبة الهدى ... بوقت به يعلو الضلال ويرفع

وجرت به نجد ذيول افتخارها ... وحق لها بالألمعي المرفع

وعاد به نهج الغواية طامسا ... وقد كان مسلوكا به الناس ترتع

ثم إن الشيخ ابن عبد الوهاب رحمه الله وأكرم مثواه بعد أن أعلن الدعوة إلى التوحيد الصحيح كتب مؤلفات تبين ما يدعو إليه من التوحيد الصحيح وما ينافيه، وكان من أشهر ما ألفه (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد) وهو كتاب فريد في موضوعه لم يسبقه إلى مثله ولم ينسج أحد قبله على منواله، حيث جمع وأوعى واستوعب كل ما له صلة بالتوحيد الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وكل ما ينافي التوحيد أو ينافي كماله أو يقدح فيه أو ينقص ثوابه، وجعله أبوابا وصل مجموعها إلى سبعة وستين بابا، بدأها بستة أبواب في أهمية التوحيد وفضله والدعوة إليه،

ثم شرع في التبويب للأفعال والاعتقادات التي هي من الشرك أو من وسائله، يذكر تحت كل باب من الآيات والأحاديث ما يناسبه ويعقبها بالأحاديث الصحيحة التي لا يجد المخالف سبيلا إلى ردها أو الطعن فيها، ثم يتبع كل باب ببعض المسائل والفوائد التي يستنبطها من تلك الأدلة ليتضح للقارئ المراد منها ووجه دلالتها، ولقد لقي هذا الكتاب تقبلا ورواجا واهتماما من أهل هذه الجزيرة، وكان الطلاب يحفظونه عن ظهر قلب ويتناقشون ويتحاورون في نصوصه ومعانيه، ثم أولاه المشايخ عناية كبيرة بالشرح والتعليق عليه وإيضاح غموضه وما يتصل به، وأول من شرحه شرحا موسعا هو حفيد المؤلف الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ولقد وفقه الله تعالى في هذا الشرح حيث أوضح الدلالات وأكثر من النقول عن الأئمة وبين ما يدخل في تلك التراجم واستوعب كل ما له علاقة بالباب، ولكنه قتل رحمه الله تعالى قبل إتمامه حيث بقي عليه من آخره سبعة أبواب، وقد طبع شرحه (التيسير)، ثم شرحه بعده حفيد المؤلف أيضا وهو الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد وسمى شرحه (فتح المجيد) وطبع أيضا ثم اختصره في شرح سماه (قرة عيون الموحدين)، وعلى هذا الكتاب عدة شروح وحواش وتعليقات كثيرة منتشرة مما يدل على أهمية هذا الكتاب وجودة ما فيه وكثرة فوائده ونفع الله تعالى لمن اطلع عليه وقرأه بإنصاف، حتى من الذين أنكروا الدعوة الخيرة ونصبوا لها العداء لم يستطيعوا أن يجدوا في هذا الكتاب مطعنا حيث أنه إنما يذكر آية قرآنية واضحة الدلالة أو أحاديث نبوية صحيحة أو آثارا منقولة عن سلف الأمة ولا يتعقبها أو ينقل تعليقات من كلام العلماء الربانيين مقرونة بالدليل والتعليل الواضح.



ثم إن هذا الكتاب كان محل اهتمام مشايخنا وعلمائنا، وكان من أشهرهم
سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى، فهو بحر في
العلم وسعة الفهم مما يجزم به كل من جالسه، فكان وحيد عصره وفريد دهره،
ولقد سمعنا وقرأنا من شرحه لهذا الكتاب ما فيه العجب العجاب حيث
يوضح دلالات النصوص، وينبه على فوائد واستنباطات يعجب السامع
كيف وصل إليها مما لا تخطر بالبال، ولقد استفدنا منه كثيراً، وأملى على
الطلاب ملخصات لشرحه احتفظ بها بعضهم وضاع أكثرها والأسف،
ولقد قمت بشرحه عدة مرات في الحلقات التي أتولى التدريس فيها
في مساجد الرياض ويحضرها العديد من الطلاب الراغبين في العلم، وكان
أول ذلك في مسجد آل حماد الذي كنت بإمامته من آخر عام ١٣٨٩هـ ولم يسجل الشرح
إذ ذاك مع أني أتوسع في شرحه لطلاب من جوانب المملكة ومن خارجها، وربما استغرق
الدرس للباب ساعة أو قريباً منها، وبعد ذلك شرحته في المسجد الجامع الكبير بالرياض
والمعروف حالياً بجامع الإمام تركي بن عبد الله آل سعود رحمه الله، وقد سجله أحد الطلاب
الحريصين واحتفظوا بالتسجيل حتى قام بعض الإخوان بتفريغه وتصحيحه وتخريج
النصوص فيه، ثم عرضه علي للتأكد من التصحيح وتصويب الأغلاط أو إكمال النقص
لشرح بعض الأبواب أو بعض الجمل، وقد قمت بذلك حسب ما تيسر لي مع تزاحم
كثرة المشاغل والأعمال والمحاضرات والدروس والمقالات والأغراض الشخصية، ثم رغب الكثير
من الطلاب في نشره وطبعه فوافقت على ذلك رجاء أن ينفع الله تعالى به من أراد به
خيراً من المسلمين في الموضوع الأهم سواء بتصحيح ما وقع وإفهام الأخطاء التقليدية،
أو ما لنا فيه معلومات جديدة [illegible] هذا الموضوع المهم في الإسلام بإذن الله.

وليعلم أني شرحته ارتجالاً ولم أتمكن حال الشرح من مطالعة الشروح
السابقة والمؤلفات التي تخدم الكتاب ولا [illegible] هو فتح من المولى وبيان لما علق
بالذهن من الفوائد التي تلقيتها من أولئك المشايخ الذين أولوا هذا الكتاب
اهتماماً بليغاً، كما استفدته مما قرأته من شروح العلماء المطبوعة المشهورة.
وها أنا ذا أعرض بضاعتي المزجاة على القراء والمستفيدين رجاء أن ينظروا
فيه بعين الإنصاف، وأن أحظى من إخواني القراء بتنبيه أو إصلاح أو ملاحظة
على غلط لفظي أو معنوي، فالمؤمن مرآة أخيه المؤمن، وإني الآن أتمثل بما قال
ابن القيم رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه (عدة الصابرين) قال: وهذا جهد المقل
وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء وإن كان مصاباً، ووصف فيه الدواء وإن لم
يصبر على تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو من أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين أن يغفر
له بنصيحته لعباده المؤمنين، فما كان في هذا الكتاب من صواب فمن الله وحده
فهو المحمود المستعان، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، والله
بريء منه ورسوله، وهذه بضاعة مؤلفه المزجاة تساق إليك، وسلعته تعرض
عليك، فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وبنات أفكاره تزف إليك، فإن صادفت
كفؤاً كريماً لها [illegible] وإلا فهي [illegible]. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.
وإليك الآن متن شرح الكتاب، والله الملهم للصواب، وإليه المرجع والمآب.

تقديم
فضيلة الشيخ العلامة
عبد اللَّه بن عبد الرحمن الجبرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكبير المتعال، المتوحد بالكمال، المتعالي عن الشركاء والأمثال، تفرد بالبقاء والدوام والجلال، وتنزه عن الصاحبة والأولاد والأشكال. أحمده سبحانه وأشكره على جزيل الإنعام والإفضال.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والأفعال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، المخصوص بعموم البعث والإرسال، صلى الله عليه وسلم، وعلى جميع الأصحاب والأتباع، في جميع الأزمنة والأحوال.

أما بعد:

فإن ربنا سبحانه خلق الخلق ورزقهم، وأعطاهم وخولهم، واختص من خَلْقِهِ الجن والإنس بالتكليف والأمر والنهي؛ حيث تميزوا بالعقل والإدراك، وفهم الخطاب، ففرض عليهم عبادته وحده، وأمرهم بتوحيده بالطاعة، وذكرهم بنعمه وسوابغ فضله.

وحيث أن الأصل في الإنسان الجهل والغفلة، وعدم العلم بما خُلق له وكلف به، فإن ربنا سبحانه قد أعذر إلى الخلق، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، ببيان ما خلق له البشر وما كلفوا به، واتفقت رسالة رسله عليهم الصلاة والسلام على

دعوة أممهم إلىٰ معرفة الله تعالىٰ، وعبادته وحده، وترك عبادة من سواه، من الأحياء والأموات، والجماد والحيوان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد اقتضت حكمة الله تعالىٰ أن سلط علىٰ النوع البشري عدواً من الأعداء الذين يصرفونه عن الإيمان بربه، وعن معرفة ما خلق له: من التوحيد والإخلاص، وعن التفكر في آيات الرب تعالىٰ الكونية، التي تبهر العقول، وتدل علىٰ عظمة الخالق وكبريائه، فأول عدو لنوع الإنسان إبليس اللعين، الذي أبىٰ واستكبر عن السجود لأبينا آدم عليه السلام، وعصىٰ أمر ربه، ثم بعد أن أنظره الله تعالىٰ؛ أقسم أن يتسلط علىٰ ذرية آدم، وقال: ﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ...﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. وحكىٰ الله عنه أنه قال: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ ...﴾ الآية [الإسراء: ٦٤].

ولا شك أنه قد أضل خلقاً كثيراً، وصرفهم عن التوحيد، وزين لهم الشرك والتنديد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

فهو الذي زين الشرك لقوم نوح؛ حيث أوحىٰ إليهم أن يعكفوا علىٰ قبور الصالحين، ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، ثم يصوروا تماثيلهم وينصبوها في مجالسهم، ثم قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم(١).

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسيره» (٤/ ٤٢٦): وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله... ثم قال: وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام فلما هلكوا =

وهكذا وقع أول شرك في بني آدم، وتتابع بعد ذلك، حتى بعث الله تعالى محمداً ﷺ في الوقت الذي تمكن فيه الشرك في الأمم، وأكثروا من المعبودات التي تسمى أصناماً وأوثاناً؛ سواء كانت منحوتة على صور بعض الصالحين أو غيرهم، أو أشجاراً وأحجاراً زين لهم الشيطان أنها تنفع وتضر، وتفيدهم في حياتهم، وتجلب لهم الرزق، وتنصرهم على الأعداء، فقلدوا في عبادتها الآباء والأجداد، وتمسكوا بعادة الأسلاف، واستصعبوا مفارقة تلك العادات ولو كانت غير مألوفة في العقول المستقيمة، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، ومع ذلك فإنهم يقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المتصرف في الكون، فهو ربهم ومالكهم باعترافهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ أي: سوف يعترفون بأن الفاعل لذلك هو الله وحده وهكذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ونحو ذلك من الآيات.

ثم إنهم مع ذلك يخلصون لله تعالى في الأزمات، وعند اشتداد الكربات، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

= أوحى الشيطان إلى قومهم: أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

ثم نقل عن ابن جرير فقال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم. أ. هـ.

ومع أنهم أيضاً يعبدون الله تعالىٰ بأنواع من العبادات: كالحج والعمرة والطواف والصدقة والصلة ونحوها، ومع أنهم لا يقصدون من عبادة أصنامهم إلا الشفاعة والقربة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، والمعنىٰ: أنهم يشفعون لهم عند الله في جلب الرزق، وإنزال المطر، وحصول البركة، وكثرة المال والولد، ويقربونهم إلىٰ الله إذا دعوه لينصرهم ويظهرهم، ويمدهم بقوة منه، وقد يحصل لهم شيء من هذه المقاصد إذا دعوهم مع الله، إما علىٰ وجه المصادفة بدون أن يكون لآلهتهم تأثير، وإما ابتلاء من الله تعالىٰ؛ فيظنوا أن ذلك بشفاعة آلهتهم، فيتمادوا في غيهم وضلالهم.

ثم إن الله تعالىٰ كلف رسوله ﷺ أن ينذرهم ويحذرهم ويخوفهم بأس الله الذي لا يرد عن القوم المشركين، ولقد بشر وأنذر، وبين لهم حقيقة التوحيد، والدين الصحيح الذي دعت إليه الرسل جميعاً لأممهم، وأوضح لهم أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر، وأنها جماد ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وأن الله سبحانه هو الذي يملك ذلك كله، بيده الخير ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

ثم قد حكىٰ الله تعالىٰ ما واجهه من الرد عليه وتكذيبه، ورميه بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن، وأنه قد افترىٰ ما جاء به من هذا الكتاب، وكذا ما حصل له من الأضرار والأذىٰ، والمضايقة والمقاطعة، حتىٰ لأقاربه إلىٰ أن هاجر وتحول إلىٰ المدينة، ثم أنزل الله تعالىٰ نصره وَصَدَقَهُ وعده وأظهر دينه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]؛ حتىٰ قضىٰ علىٰ وسائل الشرك وأسبابه، وهدم معابدهم، وأتلف أصنامهم ومعبوداتهم، بعد أن أقنعهم بأنها جماد أو أموات، وقد حمىٰ جناب التوحيد، وسد جميع طرق الشرك، وبلغ الرسالة التي كلف

بحملها وبيانها، وبعد أن أكمل الله له الدين، وبلغ البلاغ المبين، اختار الله له جواره، ورفعه في الرفيق الأعلىٰ.

ثم قيض الله تعالىٰ لدينه من ينصره ويظهره، ويبلغه لأقصىٰ البلاد وأدناها، فقام الصحابة ومن خَلَفَهُم بالجهاد في سبيل الله تعالىٰ، ونصر الدين، وبيان التوحيد، وهدم معاول كل مشرك وكافر، حتىٰ انتشر دين الإسلام في أصقاع المعمورة، وبلغ ما بلغه الليل والنهار، وقد بذل المسلمون في نصر الدين كل غال ونفيس، وضحوا بأموالهم وأنفسهم وأهليهم في سبيل الله تعالىٰ وهانت عليهم الدنيا ومتاعها، وتنافسوا في الدرجات العلا عند الله، حتىٰ نصرهم الله تعالىٰ وأظهر دينه، وأعلىٰ كلمته، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وحيث أن ظهور هذا التوحيد، والقضاء علىٰ الشرك، ومحو الأديان الأخرىٰ المنسوخة أو المحرفة مما يغيض الشيطان وأعوان الشيطان، وأهل تلك العقائد المنحرفة من: المجوس، والصهاينة، والنصارىٰ، والدهريين، والملحدين، وسائر المخالفين، فإن جميعهم قد امتلأت قلوبهم علىٰ الإسلام حقداً وضغناً، و ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ فدفعتهم شياطينهم ورؤسائهم إلىٰ إعمال الحيل والمكايد للنيل من هذا التوحيد ودين الإسلام، و التشكيك في صلاحيته، وإلىٰ العمل في تضليل المسلمين، وإيقاعهم في البدع والمحدثات، والشرك بالله تعالىٰ أو وسائله، حتىٰ يشفوا غيظهم من المسلمين الذين قضوا علىٰ تلك الأديان الباطلة، وحتىٰ يخرجوا المسلمين من دينهم إلىٰ غيره أو يشككوهم في صلاحيته، وقد نجحوا في كثير من تلك الحيل، وراجت أفكارهم عند الكثير من الدول الإسلامية التي أخذت تنشر أفكارهم وتطبق قوانينهم.

وقد أدخلوا على المسلمين من الضلالات، والبدع والمحدثات، ما أعجز الكثير التخلص منه؛ حيث نشروا سمومهم ضمن كتب الضلال التي أدخلوها على المسلمين، موهمين أنها كتب علم وفائدة، تشحذ الأفكار وتوقد الأذهان، فراجت تلك الكتب التي ترجموها، وأكب عليها الكثير من المسلمين، رغم تحذير علماء الأمة عن مغبتها، فكانت العاقبة أن كثرت الزندقة والإلحاد في أوساط المسلمين، وانتهجوا سبل الردى، وتوغل الكثير في تلك العلوم التي كانت نهايتهم بعدها الحيرة والشك، فأتاهم أجلهم وهم لا يدرون ما يعتقدون، وندموا على ما مضى من حياتهم حين لا ينفع الندم.

وقد مضت القرون الوسطى على الخوض في علم الكلام، والإنكار غالباً لصفات الكمال في حق الخالق تعالى، واستخفى أهل الإثبات، ومن تجرأ منهم وأظهر معتقده رموه عن قوس العداوة، ونبزوه بالتشبيه والتجسيم، والابتداع والمخالفة، ولكن الله تعالى قيض للسنة من يحفظها ويعمل بها، ولو كانوا قليلاً في بعض الأزمنة، وكان منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله، وأكرم مثواه ـ، فقد كان له في القرن السابع والثامن مواقف مع أهل الابتداع من المعطلة والصوفية، والقبوريين ونحوهم.

وقد أظهره الله تعالى على حين فترة من العلماء الربانين، وقلة من العاملين، فجهر بالحق، وأعلن القول بالإثبات، وناقش أولئك النفاة، و أفحمهم بالأدلة الواضحة الجلية، وجعل الله تعالى له مكانة مرموقة في قلوب العامة، فأحبوه واعترفوا بفضله وعلمه، رغم كيد الكائدين، وحسد المعاندين، فهو أول من جهر في تلك الأزمنة بالرد على المعطلة، ونفات صفات الكمال، وبالرد على المشركين وعباد الأموات، ومناقشة المتصوفة، والغلاة في الأشخاص، وأصحاب الحالات وغيرهم من أهل البدع والمخالفات.

وقد عقد له معهم مجالس في دمشق ومصر ولم يجدوا إلا رفع أمره إلىٰ السلطان، وَطَلَبَ سجنه مخافة أن يغير عليهم ما يعتقدون مما توارثوه عن الآباء والمشايخ، ولم يكن سجنه مانعاً له من نشر العلم، و الجهر بالحق، والكتابة الوافية في هذه المواضيع، بحيث انتشرت فتاواه وكتبه، ونفع الله تعالىٰ بعلومه بعده.

فبعد موته ضعفت الدعوة إلىٰ العقيدة السليمة، والتوحيد الصحيح، وظهرت البدع والمحدثات، واستصغر المنكرون لها، وتمكن الشيطان من الإستيلاء علىٰ القلوب، والدعوة إلىٰ الشرك الصريح، ودعاء الأموات من دون الله تعالىٰ؛ حيث تمكنت الرافضة في الكثير من بلاد المسلمين، وأظهروا شركهم بدعاء أئمتهم، واعتقاد أنهم ينفعون من دعاهم، وتقرب إليهم، ثم بنوا علىٰ القبور قباباً عالية، وأوهمهم الشيطان أن هناكَ دُفِنَ الإمام علي أو الحسين، أو السيدة زينب، ونحو ذلك، وقد قلدهم الجهلة من أهل السنة، وعمروا القبور، واعتقدوا أن أهلها أولياء، وسادة وشهداء، وأنهم يشفعون من دون الله، وينفعون من دعاهم أو تقرب إليهم، وانتشر هذا الشرك الصريح في الكثير من ديار المسلمين، وجادل أهل الباطل في جوازه، وغيروا الأسماء الظاهرة؛ حيث سموه تقرباً وتوسلاً واستشفاعاً وتوسطاً، وتجنبوا تسميته دعاء أو عبادة أو شركًا، مع أن العبرة بالحقائق لا بالأسماء.

ولقد كثر وتمكن الغلو في الأموات، والبناء علىٰ القبور، رغم ورود النهي الصريح في الأحاديث الصحيحة عن رفع القبور والبناء عليها، وإسراجها وتجصيصها، والكتابة عليها[1]، ونحو ذلك مما هو من الوسائل إلىٰ دعاء

---

(١) وردت عدة أحاديث في النهي عن: تجصيص القبور، والبناء عليها، وإسراجها، ورفعها، والكتابة عليها، والجلوس عليها، ومن ذلك:

(أ) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ: أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، =

الأموات، والغلو فيهم، وقد خالفوا تلك الإرشادات النبوية فرفعوا القبور وشيدوها، وبنوا عليها، مما كان سبباً مباشراً لدعاء الأموات مع الله، والهتاف بأسمائهم، والذبح لهم، والتمسح بتربتهم، وتحري الصلاة عندهم، وإطالة المكث والاعتكاف عند الأضرحة، مما هو شرك صريح بالله تعالىٰ.

فنشأ علىٰ ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، ومضىٰ علىٰ ذلك عدة قرون، حتي قيض الله تعالىٰ لهذه الأمة من جدد لها دينها، وأعاد من هداه الله تعالىٰ إلىٰ التوحيد الصحيح، والدين القويم، ألا وهو الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، التميمي النجدي، الذي ولد ونشأ في القرن الثاني عشر، وتوفي في القرن الثالث عشر، والذي هداه الله تعالىٰ وبصَّره بحقيقة التوحيد، وما يجب لله تعالىٰ علىٰ العبيد.

ولقد ألفىٰ الناس في زمانه علىٰ الشرك ووسائله، رغم أنهم ينطقون

= وأن يبنى عليه».

رواه مسلم برقم (٩٧٠).

(ب) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة؛ فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده، خير له من أن يجلس على قبر».

رواه مسلم برقم (٩٧١).

(جـ) وعن أبي مرثد الغنوي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها».

رواه مسلم برقم (٩٧٢).

(د) وعن جابر رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يكتب على القبر شيء».

رواه ابن ماجة برقم (١٥٦٣).

(هـ) وعن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته».

رواه مسلم برقم (٩٦٩).

والمعنى: إذا رأيت قبراً مرتفعاً جعلته كغيره من القبور، فيكون مرتفعاً ارتفاعاً يسيراً نحو شبر.

بالشهادتين، ويصلون، ويصومون، ويحجون، ويقرؤن القرآن، ويتعلمون السنة، وعندهم كتب الحديث، وكتب أهل العلم، ومن بينهم علماء وحفاظ، ومع ذلك فقد تمكن الشرك فيهم، وعبدوا غير الله تعالى، فتراهم يطوفون بالقبور، ويهتفون بالأموات، ويتحرون الصلاة عند الأضرحة التي يسمونها مشاهد، ويذبحون عندها القرابين، ويحلفون بالسادة والأولياء، ويصرفون لهم خالص حق الله تعالى، كما ذكر ذلك عنهم الشيخ ملا عمران بن رضوان ساكن نجد بقوله:

الشيخ شاهد بعض أهل جهالة
يدعون أصحاب القبور الهمد
تاجاً وشمساناً ومن ضاهاهما
من قبة أو تربة أو مشهد

وكذا ذكر الأمير الصنعاني في داليته بقوله:

أعادوا بها معنى سواع ومثله
يغوث وودٍ بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها
كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة
أهلت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل
ومستلم منهن باليدي

لقد صدق هذان الشاعران رحمهما الله تعالىٰ في تمثيل ما يعمله أهل ذلك الزمان عند الأضرحة التي أسموها مشاهد، تحاشياً عن تسميتها أصناماً وأوثاناً، وسموا أعمالهم توسلاً واستشفاعاً وتبركاً، وهو فيا الحقيقة عبادة وتذلل وتقرب إلىٰ غير الله تعالىٰ.

ولقد ألهم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبصره بالتوحيد الذي خلق الله له الجن والإنس، واتضح له أن أعمال هؤلاء عند الأضرحة هو الشرك بالله، وصرف خالص حقه لهذه القبور، فابتدأ بالإنكار عليهم إنكار هادئاً، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ولم يجابههم بالتكفير المباشر، ولم يضلل سعيهم علنًا، مخافة النفرة والاستنكار.

ولقد هدىٰ الله تعالىٰ بواسطته أهل هذه البلاد، وعلىٰ رأسهم الإمام محمد بن سعود أمير الدرعية في ذلك الزمان، حيث بصره الله تعالىٰ بالحق والهدىٰ، وشرح صدره للإسلام، فهو علىٰ نور من ربه فآوىٰ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وواساه، وقربه إليه، وقام بنصره، و مكنه من الدعوة إلىٰ التوحيد، وبيان الحكمة التي لها خلق الجن والإنس، ثم صمد في وجوه من عاند و كابر، وقام بالجهاد في سبيل الله، ونصر الإسلام، وإظهار الدين الصحيح.

ولقد أنكر عليه الكثير من العرب والعجم، ورموه عن قوس العداوة، وانتصبوا لنصرة الباطل، والمجادلة لتبرير ما عليه عامتهم وقادتهم، وكبر عليهم ترك عادات ألفوا عليها الآباء والأجداد، وخاف العلماء العارفون بالأحكام من إنكار العامة لمخالفة تلك المألوفات، فداهن علماؤهم خوفاً علىٰ مصالحهم ومناصبهم التي فيها يحترمون ويوقرون، وتدر عليهم الأعطية والمرتبات، فأخذوا يلتمسون لهم الأعذار، ويجمعون ما وصلوا إليه من الحجج التي هي أوهىٰ من بيت العنكبوت، ولفقوا الأكاذيب علىٰ هذا الإمام ومن تبعه، ولقبوهم

بالوهابية، ورموهم بالعظائم، حتىٰ اعتقد العامة أن الشيخ وأتباعه أضل وأكفر من اليهود والنصارىٰ، ولكن ذلك كله لم يثن من عزمه علىٰ الدعوة، ولم يعق دولة آل سعود حفظهم الله عن إظهار الحق ونشره، ونصر التوحيد، والجهاد عليه، حتىٰ فتح الله بهم البلاد، ودان بالتوحيد من حولهم من العباد، فمنّ الله عليهم بالنصر والتمكين، وتحقق لهم قول الله تعالىٰ: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ [النور: ٥٥]، وعملوا صادقين بقول الله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [الحج: ٤١]؛ فقد نصرهم الله تعالىٰ وحق لهم الافتخار بهذا الدين القويم، الذي من آثاره حصل لهم التمكين في الأرض، كما قال شاعرهم المؤرخ بن غنام، رحمه الله تعالىٰ:

لقد رفع المولى به رتبة الهدى
بوقت به يعلى الضلال ويرفع
وعاد به نهج الغواية طامساً
وقد كان مسلوكاً به الناس تربع
وجرّت به نجد ذيول افتخارها
وحق لها بالألمعى ترفَّع

ثم إن الشيخ ابن عبد الوهاب ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ، بعد أن أعلن الدعوة إلىٰ التوحيد الصحيح، كتب مؤلفات في ما يدعو إليه من التوحيد الصحيح، وما ينافيه، وكان من أشهر ما ألف «**كتاب التوحيد**» الذي هو حق الله علىٰ العبيد، وهو كتاب فرد في موضوعة، لم يسبق إلىٰ مثله، ولم ينسج أحد

قبله على منواله؛ حيث جمع وأوعى، واستوعب كل ما له صلة بالتوحيد الذي هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وكل ما ينافي التوحيد أو ينافي كماله، أو يقدح فيه، أو ينقص ثوابه، وجعله أبواباً، وصل مجموعها إلى سبعة وستين باباً، بدأها بستة أبواب في أهمية التوحيد وفضلة والدعوة إليه، ثم شرع في التبويب للأفعال والاعتقادات التي هي من الشرك أو من وسائله، يذكر تحت كل باب من الآيات والأحاديث ما يناسبه، ويعتمد الأحاديث الصحيحة التي لا يجد المخالف سبيلاً إلى ردها أو الطعن فيها، ثم يتبع كل باب ببعض المسائل والفوائد التي يستنبطها من تلك الأدلة، ليتضح للقارئ الهدف منها ووجه دلالتها.

ولقد لقي هذا الكتاب تقبلاً ورواجاً واهتماماً من أهل هذه الجزيرة، فكان الطلاب يحفظونه عن ظهر قلب، ويناقشون، ويختبرون في دلالة نصوصه ومعانيه، ثم أولاه المشايخ عناية كبيرة بالشرح والتعليق عليه، وإيضاح نصوصه، وما يتصل به، وأول من شرحه شرحاً موسعًا هو حفيد المؤلف المدعو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ولقد وفقه الله تعالى في هذا الشرح، حيث أوضح الدلالات، وأكثر من النقول عن الأئمة، وبين ما يدخل في تلك التراجم، واستوفى كل ماله علاقة بالباب، ولكنه قتل رحمه الله تعالى قبل إتمامه، حيث بقي عليه من آخره سبعة أبواب، وقد طبع شرحه وانتفع به.

ثم شرحه بعده حفيد المؤلف أيضاً، وهو الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد، وسمى شرحه «**فتح المجيد**»، وله عليه أيضاً حاشية تسمى: «**قرة عيون الموحدين**». وعلى هذا الكتاب عدة شروح وحواش وتعليقات كثيرة منتشرة، مما يدل على أهمية هذا الكتاب، وجودة معانيه، وكثرة فوائده، فقد نفع الله تعالى من اطلع عليه وقرأه بإنصاف، حتى من الذين أنكروا الدعوة النجدية، ونصبوا لها العداء، لم يستطيعوا أن يعيبوا هذا الكتاب، ولم يجدوا فيه مطعناً؛ حيث إنه

إنما يذكر آيات قرآنية واضحة الدلالة، أو أحاديث نبوية صحيحة، أو آثاراً منقولة عن سلف الأمة وأئمتها، أو نقولاً عن مشاهير العلماء الربانيين مؤيدة بالدليل والتعليل الواضح.

ثم إن هذا الكتاب كان محل اهتمام مشايخنا وعلمائنا، وكان من أشهرهم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف رحمه الله تعالى؛ فقد وهبه الله من العلم وسعة الفهم ما تميز به على أهل زمانه، فكان وحيد عصره، وفريد دهره، ولقد سمعنا وقرأنا من شرحه لهذا الكتاب ما فيه العجب العجاب؛ حيث يوضح دلالات النصوص، وينبه على فوائد واستنباطات يعجب السامع كيف وقعت له؟! مما قد لا تخطر بالبال، ولقد استفدنا منه كثيراً، وأملى على الطلاب ملخصات لشرحه، احتفظ بها بعضهم، وضاع أكثرها وللأسف.

ولقد قمت بشرحه عدة مرات في الحلقات التي أتولى التدريس فيها في مساجد الرياض، ويحضرها العديد من الطلاب الراغبين المحبين للعلم، وكان أول ذلك في مسجد آل حماد الذي قمت بإمامته من آخر عام ١٣٨٩هـ، ولم يسجل الشرح إذ ذاك، مع أني أتوسع في شرحه لطلاب من جوانب المملكة ومن خارجها، فربما يستغرق الشرح للباب ساعة أو قريباً منها، وبعد ذلك شرحته في المسجد الجامع الكبير بالرياض، والمعروف حالياً بجامع الإمام تركي بن عبد الله آل سعود ـ رحمه الله ـ، وقد سجله أحد الطلاب الحريصين، واحتفظ بالتسجيل، حتى قام بعض الإخوان بتفريغه، وتصحيحه، وتخريج النصوص فيه، ثم عُرِضَ عليَّ للتأكد من التصحيح، و تصويب الأغلاط، وإكمال النقص لشرح بعض الأبواب أو بعض الجمل.

وقد قمت بذلك حسب ما اتسع له من الوقت، رغم كثرة المشاغل والمراجعات، والدروس والمكالمات، والأغراض الشخصية، ثم رغب الكثير من

الطلاب في نشره وطبعه فوافقت على ذلك، رجاء أن ينفع الله تعالى به من أراد به خيراً من المسلمين في الداخل والخارج؛ سواء بتصحيح ما وقعوا فيه من الأخطاء التقليدية، أو بإضافة معلومات وفوائد جديدة يكون لها تأثير ظاهر في المجتمع الإسلامي بإذن الله تعالى.

وليعلم أني شرحته ارتجالاً، ولم أتمكن حالة الشرح من مطالعة الشروح السابقة، ولا من التحضير والاستعداد، وإنما هو فتح من الله تعالى، وبيان لما علق بالذهن من الفوائد التي تلقيتها من أفواه المشايخ الذين أولوا هذا الكتاب اهتماماً بليغاً، وكذا ما استفدته قديماً من شروح العلماء المطبوعة المشهورة، وها أنا ذا أعرض بضاعتي المزجاة على القراء والمستمعين، رجاء أن ينظروا فيه بعين الإنصاف، وأن أحظى من إخواني القراء بتنبيه، أو إصلاح خطأ، أو دلالة على غلط لفظي أو معنوي، فالمؤمن مرآة أخيه المؤمن.

وإني الآن أتمثل بما قال ابن القيم رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه «عدة الصابرين»، قال: (ومع ذلك فهو جهد المقل، وقدرة المفلس، حذر فيه من الداء وإن كان من أهله، ووصف فيه الدواء وإن لم يصبر على تناوله لظلمه وجهله، وهو يرجو أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه، بنصيحته لعباده المؤمنين، فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده، فهو المحمود والمستعان، وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله، وهذه بضاعة مؤلفه المزجاة تساق إليك، وسلعته تعرض عليك، فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وبنات أفكاره تزف إليك، فإن وجدت حراً كريماً كان بها أسعد، وإلا فهي خود تزف إلى عنين مقعد) انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وإليك الآن مبدأ شرح الكتاب، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

مقدمة المعتني بالكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فبين يديك أخي القارئ الكريم كتاب **(السبك الفريد شرح كتاب التوحيد)** لفضيلة شيخنا وإمامنا وقدوتنا العلامة الدكتور عبدالله بن عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرين حفظه الله ورعاه.

ومعلوم أن أصل كتاب التوحيد للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.

وهذا الشرح شرح عظيم الشأن كثير المعاني والفوائد، نسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بأصله.

ولا أريد في هذه المقدمة أن أتكلم عن أهمية التوحيد وخطورة الشرك وعن أهمية كتاب التوحيد ونحو ذلك، فإن فضيلة الشيخ وفقه الله قد كتب مقدمة مطولة أجاد فيها وأفاد، فلا يسعني أن أزيد على كلام شيخنا حفظه الله.

ولكن الذي أريد اطلاع القارئ عليه هو بيان عملي في الكتاب، أي: مراحل العمل التي تمت حتى صدر الشرح بهذا الثوب القشيب.

عملي في الكتاب:

أولاً: قمت بنسخ الأشرطة التي كان عددها واحداً وعشرون شريطاً على أوراق، وذلك بعد أخذ الإذن من فضيلة شيخنا بالعمل في الكتاب.

علماً بأن هذه الأشرطة سجلت في عام ١٤١٢هـ عندما كان الشيخ يشرح الكتاب في الجامع الكبير بالرياض، والمسمى الآن (جامع الإمام تركي بن عبد الله آل سعود رحمه الله تعالى).

ثانياً: بعد الانتهاء من عملية التفريغ بدأت بتهذيب الشرح بحذف المكرر وضبط الجمل وربط الشرح بالمتن وغير ذلك مما يحتاجه العمل العلمي من التصحيح والمراجعة.

وتبين لي في هذه المرحلة أن بعض الأبواب لم يسجل شرحها وهي ستة أبواب، إضافة إلى عشرات الآيات والأحاديث و الجمل التي لم يسجل شرحها.

ثالثاً: قمت بتخريج الآيات والأحاديث للمتن والشرح قدر الجهد المستطاع.

وقد جعلت الباب من كتاب التوحيد قبل الشرح تليه المسائل ثم الشرح وذلك بذكر الآية أو الحديث ثم شرح الشيخ وهكذا في جميع الكتاب.

رابعاً: قمت بعد هذه المرحلة بإرسال الكتاب للتنضيد، أي: لطباعته على جهاز الكمبيوتر، حيث تم عمل عدة مراحل من المطابقة والتصحيح والمراجعة والضبط ونحو ذلك.

خامساً: بعد ذلك قمت بتقديم الكتاب لفضيلة الشيخ لمراجعته وتصحيحه بإضافة وحذف ما يريد.

وقد بينت للشيخ بأنه توجد ستة أبواب لا يوجد لها شرح وبعض الآيات والأحاديث ونحو ذلك.

وقد أرشدني الشيخ إلىٰ أن هناك شرحاً علىٰ بعض الأبواب في بعض الدروس العلمية، ولكن للأسف بحثت عن هذا الشرح طويلاً فلم أجده، لذلك اضطر الشيخ إلىٰ شرح الأبواب الساقطة والآيات والأحاديث بخط يده، وقد كتب الشيخ أكثر من (١٥٠) صفحة بخط يده، فجزا الله الشيخ خير الجزاء علىٰ ما بذل من جهد، ونفع به، وجعله في موازين أعماله.

علماً بأن الشيخ قد كتب مقدمة قيمة مطولة وصلت إلىٰ (١٣) صفحة.

سادساً: بعد ذلك أعطاني الشيخ حفظه الله الكتاب بعد أن انتهىٰ من العمل فيه، وقمت بعد ذلك بمراجعته، وخرجت الآيات والأحاديث التي أوردها الشيخ في الإضافات.

سابعاً: عرضت الكتاب علىٰ متخصص في اللغة العربية لمراجعته وضبطه ووضع علامات الترقيم اللازمة ونحو ذلك.

ثامناً: قمت بمراجعة الكتاب مراجعة نهائية، وكلما واجهتني جملة أو كلمة أو سقط راجعت الشيخ لتصحيحه أو إكماله حتىٰ وصل الكتاب إلىٰ وضعه النهائي الذي عليه الآن.

تاسعاً: عندما أردت وضع عنوان للكتاب طلبت من بعض الأخوان تزويدي ببعض العناوين، وقد زودني الأخ الفاضل الشيخ سعد السعدان بجملة عناوين، وقد عرضت هذه العناوين علىٰ فضيلة الشيخ لاختيار ما يراه مناسباً منها، وقد اختار فضيلته العنوان الحالي والذي هو من اختيار الشيخ سعد السعدان وفقه الله.

عاشراً: وأخيراً فإنني أشكر كل من ساعد في إخراج هذا الشرح العظيم وأخص بالشكر **فضيلة الشيخ الدكتور عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين حفظه الله** وخاصة

في المرحلة الأخيرة من تجهيز الكتاب.

كما أشكر الأخ الذي قام بطباعة الكتاب على جهاز الكمبيوتر، وكل من ساعد في مراحل التصحيح والمراجعة ونحو ذلك.

وختاماً: فإنني أقدم هذا الجهد المتواضع على ما فيه من تقصير لإخواني طلاب العلم، علّ الله أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتبه في موازين أعمالنا إنه سميع مجيب.

كما اسأله تعالى أن يجزي شيخنا خير الجزاء على ما قدم ويقدم خدمة للعلم وللدعوة وللإسلام والمسلمين، وأن يبارك في عمره إنه سميع مجيب، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

أبو أنس على بن حسين بن خليل أبو لوز

ليلة الاثنين ٣/ ١/ ١٤٢٥ هـ

الموافق ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٤م

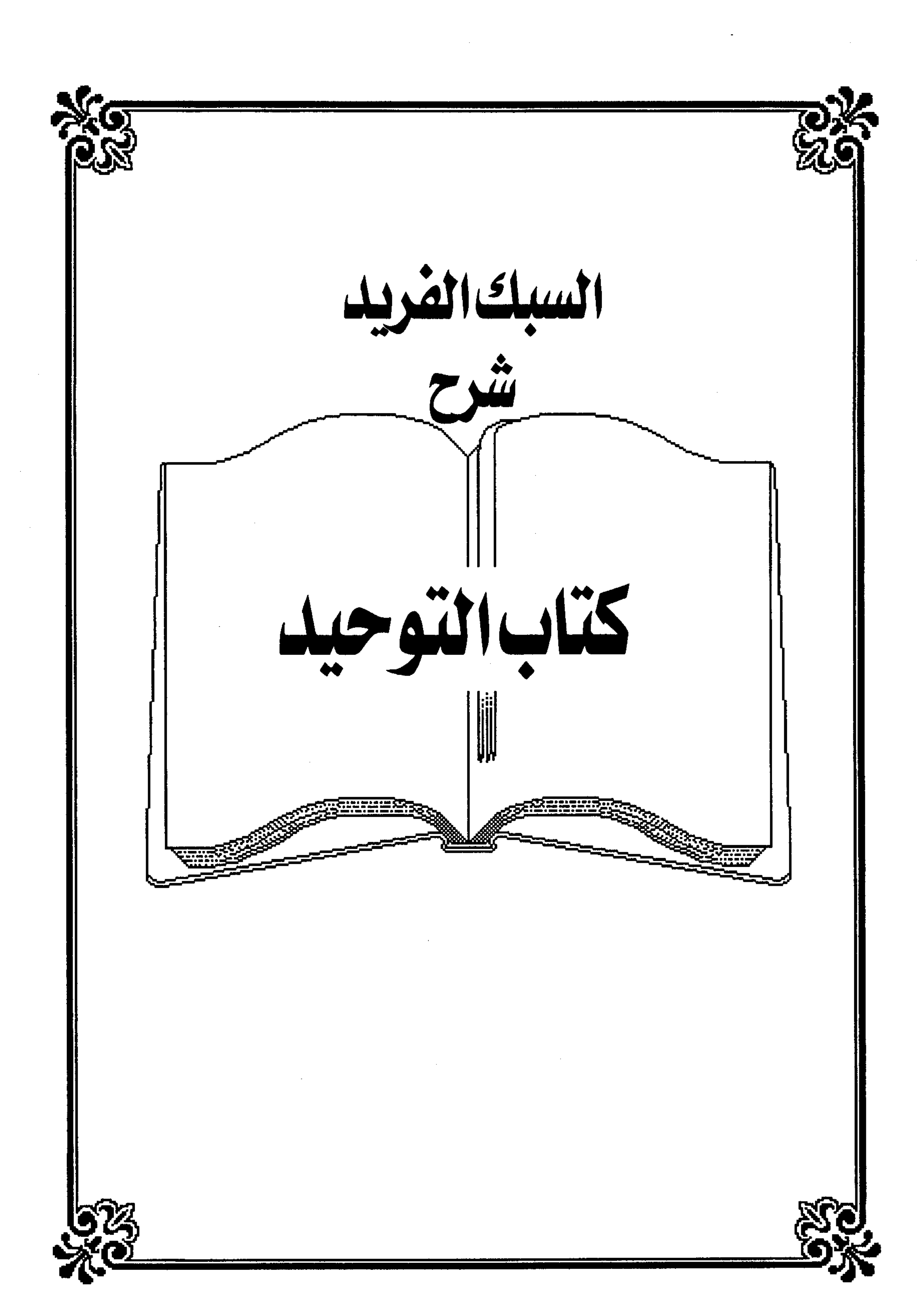
الرياض - حي الخالدية

ص ب: ٢٥٥٦٣٠ ـ الرمز البريدي: ١١٣٥٣

البريد الالكتروني

Alilouz2000@hotmail.com

□□□□□


السبك الفريد
شرح
كتاب التوحيد

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم

بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قال ابن مسعود: (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... إلى قوله: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية). [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وعن معاذ بن جبل، قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، قلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا». [أخرجاه في الصحيحين].

■■■■■

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله؛ ففيه معنى قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ الآية. [البقرة: ٢٥٦].

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن الثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل، أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات في سورة الإسراء، وفيها ثمانية عشر مسألة بدأها الله بقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمىٰ آية الحقوق العشرة؛ بدأها الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثانية عشرة: التنبيه علىٰ وصية رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال علىٰ سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف علىٰ الدابة.

الثالثة والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل.

الرابعة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.

■■■■■

الشرح

كتاب التوحيد

بدأ الشيخ رحمه الله تعالىٰ بهذه الترجمة، مع أنها اسم لجميع الكتاب، ليبين موضوع كتابه والمقصود به، وبدأ بذكر خمس آيات من القرآن الكريم، وحديث نبوي صحيح، وكلها تدل على فرض التوحيد ووجوبه، وتدل علىٰ أهميته وآكديته، فيمكن أن يقدر قبل الآيات ترجمة دالة علىٰ حكم التوحيد، وأنه فريضة الله علىٰ عباده، وأنه أوجب الواجبات، وآكد المأمورات، ويمكن أن يقدر (باب أهمية التوحيد، ووجوب العناية به قبل ومع جميع العبادات).

ثم إن التوحيد مشتق من الوحدانية، وهي الإفراد، ولذلك قال الشيخ حمد بن عتيق ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في «إبطال التنديد»، وقبله الشيخ سليمان في «تيسير العزيز الحميد»: يسمىٰ دين الإسلام توحيداً؛ لأن مبناه علىٰ أن الله تعالىٰ واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلاهيته وعبادته لا ند له. أ. هـ.

أقسام التوحيد:

وقد اشتهر تقسيم التوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ويسمى الأول: توحيد الذات:

باعتقاد أن الرب تعالىٰ واحد في ملكه وخلقه وتصرفه وأفعاله، فهو رب كل شيء ومليكه، و خالق الخلق ومدبرهم، والمتصرف في الكون، فهو رب

الأرباب، ومسبب الأسباب، خالق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما، وهو توحيد الله تعالىٰ بأفعاله.

وقد كثر الاستدلال علىٰ هذا القسم في القرآن بآيات الله تعالىٰ الكونية، ومخلوقاته العلوية والسفلية، فجعلها آية ودلالة واضحة علىٰ وجوده تعالىٰ، وعلىٰ عظمته وكبريائه، وعلىٰ تمام ملكه وتصرفه، وأمره ونهيه، كقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

وكثيراً ما يذكر الله تعالىٰ الأدلة الكونية الظاهرة التي تدل من تفكر فيها وتأملها علىٰ عظمة الخالق وجلاله وكبريائه، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]، وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ الآية [الاعراف: ٥٤]، وكقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ [النحل: ٣-٥].

وهذا القسم من التوحيد قد أنكره الدهريون والشيوعيون الذين ينكرون وجود الخالق تعالىٰ، ويعتقدون أن الموجودات كلها وجدت بالطبيعة والعادة، قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله تعالىٰ:

ولا نصيخ لعصري يفوه بما

يناقض الشرع أو إياه يعتقد

يرى الطبيعة في الأشياء مؤثرة

أين الطبيعة يا مخذول إذ وجدوا

وقد تكلم ابن القيم[١] رحمه الله تعالىٰ في «مفتاح دار السعادة» علىٰ عجائب المخلوقات، وما فيها من العبرة والدلالة علىٰ قدرة من أوجدها، وأحكم خلقها وأتقنها، و ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقد أطال النفس رحمه الله، وتوسع في ذكر ما تيسر له من المخلوقات التي اطلع عليها، أو وصل إليه العلم بما فيها، وأن جميع المخلوقات كلها دالة دلالة واضحة علىٰ وجود الخالق، وعلىٰ عظمته وكبريائه، وكمال تصرفه، فننصح بمراجعة كلامه، حيث توسع في الكلام علىٰ السموات والأفلاك العلوية، والنجوم، والشمس والقمر، والرياح والسحب، والأزمنة واختلافها بالحر والبرد، واختلاف البلاد في ذلك، وتكلم علىٰ الأرض وما فيها من العجائب والآيات والبراهين، واختلاف الأماكن وتنوعها من جبال وآكام، وضراب ووهاد، وأودية وكثب، وصحاري ومفازات، وأنهار جارية، وبحار زاخرة، وكذا ما علىٰ وجهها من الحيوانات مع اختلافها وتنوع خلقها، من دواب البر والبحر من الطير والحشرات، والهوام والسباع والوحوش وغيرها.

وهكذا تكلم في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الذاريات٢٠ـ ٢١]؛ حيث توسع في عجائب الأرض، وما فيها من النباتات المختلفة الزهور والطعوم والألوان والروائح والأشكال والأنواع، وما فيها من العجائب، والحكم والمصالح، وما عليها من

(١) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ص: ١٨٧ ـ ٢٨٢.

الدواب والمخلوقات، وبين أن ليس شيء منها مخلوق عبثاً.

وهكذا أطال النفس على خلق الإنسان وتتبع أعضاءه وجوارحه الظاهرة والخفية، وأطال القول فيها، وبين حكمة كل عضو ومناسبته، وما فيه من العجائب والدلائل الباهرة مما هو أعظم آية على قدرة الله تعالى الذي هو خالق كل شيء، فننصح بمراجعة هذا الكتاب، ليستفاد منه، ويرد على أهل الإلحاد والزندقة الذين أعرضوا عن التفكر والتأمل في آيات ربهم ومخلوقاته، وعاشوا كالبهائم ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

ومن تأمل القرآن الكريم وجد فيه الدلالات والعبر، والآيات التي تلفت الأنظار إلى الموجودات والمخلوقات، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [يوسف: ١٠٩]، في عدة مواضع، وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ الآيات [النبأ: ٦، ٧]، وقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ الآيات [النازعات: ٢٧]، وقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ الآيات [عبس: ٢٥، ٢٦].

وقد أورد ابن كثير(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، بعض الأدلة على وجود الصانع الخالق سبحانه، قال رحمه الله تعالى: فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها، وطباعها ومنافعها، ووضعها في مواضع النفع بها

---
(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٥٨).

محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته، وعلمه وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير.

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات.

وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء، وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل. فقال: ويحكم! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة، ليس لها صانع. فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت، طعمه واحد، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك، فقال: ههنا حصن حصين

أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وصوت مليح، يعني: بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد
ولله في كل تحريكة
وتسكينة أبداً شاهد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة، من السيارة والثوابت، كيف تدور مع الفلك

العظيم في كل يوم وليلة دورة، ولها في أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها، وكذا الأنهار السارحة للمنافع، وما ذرأ من الحيوانات المتنوعة، والنباتات المختلفة، مع اتحاد طبيعة التربة والماء، استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه، لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب. أ. هـ.

وقد كثر الذين ينكرون توحيد الربوبية، ويشكون في وجود الخالق تعالى، مع هذه الآيات الباهرة، والدلالات الظاهرة، ومع أن المشركين في الجاهلية يعترفون بهذا النوع من التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ أي: يعترفون بالله تعالى، وأنه الذي يرزقهم، فينزل المطر وينبت النبات، وهو الذي يملك السمع والبصر، فلا يستطيع المخلوق أن يوجد هذه الجارحة وهي العين الباصرة، ولو للذرة والنحلة، فضلاً عن أعين المخلوقات الكبار كالإبل والخيل والفيلة، وكذا حاسة السمع هو الذي خلقها للإنسان والدواب، والطيور والوحوش، فلا يستطيع المخلوق أن يردها إذا فقدت، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ونحو ذلك من الآيات التي فيها أن كفار العرب يقرّون بأن الله تعالى ربهم وخالقهم، وخالق هذا الكون، ورازق العباد، ومدبر الأمر، ومسير الأفلاك، ورب الأرض والسموات، وإنما كان شركهم وكفرهم بدعاء وعبادة بعض المخلوقات التي جعلوها واسطة بينهم

وبين الله تعالىٰ.

وأما توحيد الألوهية:

فهو إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، وهو حق الله علىٰ العبيد، ويسمىٰ التوحيد العملي، القصدي، الطلبي، الإرادي؛ لأنه عمل يتقرب به العبد إلىٰ ربه، وهو مقصود من العباد، طلبه الله منهم وأراده، وخلقهم له، وفرضه عليهم.

وهو الحكمة في خلق الجن والإنس، وبه أمر الله جميع الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

وبه أرسل الله الرسل، وأمرهم أن يبدؤا به دعوتهم، كما أخبر عن كل رسول أنه يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]؛ فكل رسول بعثه الله، وكل كتاب أنزله فإنه يدعو إلىٰ توحيد العبادة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ أي: يأمره ربه أن يدعو قومه إلىٰ الاعتراف بأن الله تعالىٰ هو الإله الحق، وإلىٰ عبادته وحده، وترك عبادة ما سواه، فعليه اتفقت دعوة الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، فإن الخصومة بين الأنبياء وأممهم فيه، إذ كانوا يقرُّون بأن الله تعالىٰ هو ربهم، ولكنهم يعبدون معه معبودات من المخلوقات ويتخذونها آلهة تألهها قلوبهم، وتعظمها وتخضع لها، وتتواضع، وتتخشع، وتتذلل، ويتقربون إليها بدعائها، والهتاف بأسمائها وبالذبح لها، والعكوف عندها، والطواف والتبرك بتربتها، والتمسح بصورها أو ما حولها، ويسمونها آلهة، لأن قلوبهم تألهها محبة وخوفاً، ورجاء وتوكلاً، واعتماداً وتعظيماً، ويسمون أفعالهم عبادة، فإن التعبد هو التذلل والخضوع، فهذا القسم هو الذي أنكره المشركون لما دعاهم النبي ﷺ إلىٰ إخلاص العبادة لله وحده، فتمسكوا بأديانهم الشركية، ونفروا عن

توحيد العبادة، فهو مخالف لمألوفاتهم، وما ألفوا عليه آباءهم. وقد حكى الله عنهم قولهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥، ٦].

ولقد مكث النبي ﷺ بمكة عشر سنين يدعو إلى هذا التوحيد، ويقيم الأدلة عليه، ويبين شأن تلك المألوهات التي يعبدونها مع الله تعالى، وأنها لا تغني شيئاً عن عابديها، كما قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٥].

فأخبر بأن هذه المعبودات أموات أو جماد لا تنصر أنفسها فضلاً عن عابديها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، ونحو ذلك من الآيات التي تبين أنهم يعبدون هذه الجمادات من الصور المنحوتة على أشكال وصور أموات وجمادات، وأن الشيطان هو الذي سول لهم عبادتها مع الله، وزين لهم أنها تقربهم إلى الله زلفى، وتشفع لهم في إنزال المطر، والبركة والخير، والرزق والنصر، والتمكين وتكثير الأموال والأولاد.

وهذا القسم هو الذي وضع له الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى «كتاب التوحيد»، وأورد الأدلة على أهميته وفرضيته، وعلى التحذير من ضده وهو الشرك بأي نوع من أنواعه، وذلك لأن الشرك في العبادة قد تمكن

وفشىٰ في ذلك الزمان، كعبادة الأموات، وتعظيم المخلوقين، بما لا يوصف به إلا الخالق سبحانه، كما يحصل من الرافضة في وصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد اعتقدوا فيه أنه يعلم الغيب، ويسمع السر والنجوىٰ، ويملك الضر والنفع، ويعطي ويمنع، وأنه قادر علىٰ كل شيء، ثم صرفوا له جلّ دعائهم وندائهم، وهتفوا باسمه في الملمات وعلقوا عليها آمالهم في الشدائد.

وكذا فعلوا مع بقية أئمتهم الاثني عشر كما يزعمون، وقلدهم الجهلة من أهل السنة، وتعلقوا بالأموات، وأطاعوا الشيطان الذي زين لهم عباداتها، وابتدعوا أماكن عمروها وشيدوها، وأوحىٰ الشيطان إليهم أنها قبور أولياء وسادة، مثل: قبر (تاج)، وقبر (شمسان)، وقبر (يوسف)، وقبر (زيد بن الخطاب) ونحوها، مع أن تلك القبور لا دليل علىٰ أنها قبور أولئك المسمين، وإنما أغلبها جعلوه بالظن والتخرص، فلما عظمت الفتنة، وكبرت المصيبة بهذا النوع من الشرك، أولاه الشيخ محمد رحمه الله الإهتمام، وكتب فيه هذا المؤلف الذي هو فرد في بابه، لم ينسج أحد قبله علىٰ منواله؛ حيث استوفىٰ كل ما يمكن أن يشتمل علىٰ شرك، أو وسيلة من وسائله، ولو من الأصغر أو ما ينافي كماله، وأورد الأدلة علىٰ ذلك من الآيات والأحاديث الصحيحة، حتىٰ لا يتمكن أحد من الطعن فيها أو ردها.

وقد اتضح بذلك أهمية توحيد العبادة، ووجوب العناية بمعرفته؛ حيث أخل به الكثير ممن يتسمون بالإسلام، وينطقون بالشهادتين، وقد يكونون من العلماء، وحملة القرآن، وحفظة السنة، ولكن راجت عليهم شبهات أدلىٰ بها أعداء التوحيد، فتخيلوا أن هذه الأعمال ليست شركاً، واعتقدوا أن الشرك خاص بأن تنحت أصنام من حجارة أو خشب، وتنصب ويسجد لها فقط، فاتضح بهذا الكتاب أن أفعالهم شرك صريح، مهما حسنوا لها الأسماء، وشبهوا علىٰ

العوام، وأوهموا أتباعهم أنها أعمال مستحبة، مفيدة لمن تقرب بها ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وأما توحيد الأسماء والصفات:

ويسمى التوحيد العلمي، الخبري، الاعتقادي، الثبوتي، فهو إثبات أسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته العلى، التي وصف بها نفسه، ووصفه بها رسوله، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، لأنه علم يعتمد الأخبار، والنقل الصحيح، فيجب اعتقاد أن الله سبحانه موصوف بصفات الكمال، منزه عن سماة النقص، وإثبات صفات الرب سبحانه على ما يليق به، من غير تشبيه ولا تمثيل، ولا تحريف ولا تأويل، ومن غير تكييف ولا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ فنفي المثل رد على المشبهة، وإثبات السمع والبصر رد على المعطلة.

وهذا القسم هو الذي أنكره الجهم بن صفوان، ثم تتابعت على إنكاره المعتزلة، وسموا نفي الصفات توحيداً؛ حيث زعموا أن إثباتها يستلزم تعدد القدماء، وحيث لم يفهموا منها إلا ما يوصف به المخلوق فأطلقوا على أهل الإثبات لفظ التشبيه والتجسيم، وسموا أهل السنة: حَشَوِية، ونَوابِتَ، وغُثَاءً، وغُثَراً.

وقد أكثر السلف والأئمة رحمهم الله تعالى من الرد عليهم، وذكر الأدلة النقلية والعقلية على إثبات الصفات، من القدرة، والإرادة، والمحبة، والكلام، والحياة، والرحمة، والعلم، والحكمة، وإثبات الاستواء، والعلو، والنزول، والمجيء لفصل القضاء ونحو ذلك من الصفات التي وردت في القرآن الكريم، والسنة الصحيحة.

وسبب إكثار السلف من إثبات هذه الصفات: انتشار مذهب التعطيل، وَتَمَكُّنِ الجهمية والمعتزلة، وكثرة من انخدع بهم، وسلك مسلكهم، فلا جرم كان لزاماً على أهل السنة أن يجهروا بالحق، وأن يردوا على أهل الباطل، وقد سموا كتبهم بما يدل على مقاصدهم، فقد كتب الإمام أحمد رسالة في «الرد على الجهمية فيما شكت فيه من متشابهة القرآن»، وله رسالة في العقيدة باسم «السنة»، ولابنه عبد الله كتاب «السنة»، ولتلميذه الخلال كتاب واسع اسمه «السنة»، و لابن أبي عاصم كتاب «السنة»، ولعثمان الدارمي كتاب «الرد على الجهمية»، و «الرد على المريسي»، وهكذا «كتاب الشريعة» للآجري، و«الإبانة» لابن بطة، و«شرح السنة» للبربهاري، و «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي و«إبطال التأويلات» للقاضي أبي يعلي، وكلها مطبوعة منتشرة والحمد لله، وبها يعرف ما كان عليه السلف الصالح والصدر الأول، وهم الذين زكاهم النبي ﷺ بقوله: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(١)] الحديث.

وقد تمكن معتقد المعتزلة في آخر القرون الثلاثة، وقرب بعضهم من الخلفاء، وزينوا لهم امتحان العلماء، وإلزامهم بالقول بخلق القرآن، وثبت الله بفضله العلماء على الحق، ومنهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

ثم في القرن الرابع وما بعده انتشر معتقد الأشاعرة في إنكار الصفات الفعلية، كالعلو، والاستواء، والمجيء، والنزول، والرحمة، والمحبة، ونحوها واستصغر أمر أهل السنة، وضعف أمرهم، وكاد الحق أن يضمحل ويتلاشى، حتى قيض الله للسنة من يظهرها، وذلك في آخر القرن السابع وأول القرن الثامن، حيث اشتهر شيخ الإسلام ابن تيمية، وفقهه الله تعالى في الدين، وعرف

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٥٢)، ومسلم برقم (٢٥٣٥)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

وفي الباب عن أبي هريرة وابن مسعود وغيرهم.

الحق بدليله، وقرأ أدلة المتكلمين، وعرف اصطلاحاتهم، فرد عليهم رداً قوياً، وناقشهم جهاراً، وأظهره الله عليهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

فهذه هي أقسام التوحيد الثلاثة، وقد جعلها ابن القيم رحمه الله تعالىٰ قسمين:

الأول: توحيد في المعرفة والإثبات، فيدخل فيه توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

والثاني: توحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد العبادة.

ويعتبر الأول دليلاً علىٰ الثاني، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالىٰ يقول لتلاميذه وغيرهم: اعرفوا الله بأفعاله، ووحدوه بأفعالكم، وهي فائدة كبيرة القدر، فإن من عرف الله تعالىٰ بآياته ومخلوقاته الكونية العلوية والسفلية عرف أنه أهل أن يعبد وحده، وأن يخص بالتعظيم والإجلال، وبجميع أنواع العبادة، والله أعلم.

ثم إن الشيخ رحمه الله تعالىٰ أورد في صدر هذا الكتاب خمس آيات للدلالة علىٰ عظمة التوحيد، ووجوبه علىٰ العباد، وأهميته وعظمة شأنه.

■ **فالآية الأولى: قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦]]:

فإن في هذه الآية بيان الحكمة من خلقهم وإيجادهم، وأن الله تعالىٰ ما خلقهم ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم من ذلة، فإنه هو الغني وهم الفقراء.

فالمعنى: أنه خلقهم ليأمرهم وينهاهم، ففرض عليهم العبادة التي هي

إخلاص التوحيد لربهم وحده، فقد يعبدون وقد لا يعبدون ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

ولهذا قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله تعالىٰ في حاشية التوحيد: أي: ما خلق الله الثقلين الجن والإنس إلا لحكمة عظيمة، وهي عبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، ففعل الأول وهو خلقهم ليفعلوا هم الثاني وهو عبادته، لا ليفعل بهم الثاني فيجبرهم علىٰ العبادة، فإن من سبقت عليه الشقاوة لم يرد سبحانه وقوع العبادة منه، لما له في ذلك من الحكمة، وقال بعض السلف: إلا لآمرهم وأنهاهم ... [(١)] إلخ.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: ومعنىٰ الآية: أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له؛ فمن أطاعه جازاه أحسن الجزاء، ومن عصاه عذبه، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، واللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، لام التعليل؛ أي: أن العلة في خلقهم هي تكليفهم بالعبادة، وفرضها عليهم، وخصّ الجن والإنس لأنهم هم المكلفون بالأمر والنهي، وفيهم المطيع والعاصي، كما حكىٰ الله تعالىٰ قول الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ... إلىٰ قوله: وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١١-١٤]، ولم يذكر الملائكة لأنهم جميعاً مطيعون عابدون: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وأما الشياطين ذرية إبليس فكلهم عصاة معاندون ليس فيهم من يطيع ويهتدي علىٰ الصحيح، وأما البهائم فلا تكليف عليها لفقد العقل والتميز، ثم إن المكلفين بالعبادة من الجن و الإنس إذا قاموا بها وأطاعوا الله تعالىٰ، وعبدوه

(١) انظر حاشية كتاب «التوحد» للشيخ عبد الرحمن القاسم (ص: ١٣).

حق العبادة، فإن ثمرة ذلك تعود إليهم؛ حيث يثيبهم الله ويضاعف أجرهم، وتعود فائدة عبادتهم إليهم، فإن الرب سبحانه غني عنهم، لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فعبادتهم تعود إليهم بالنفع والثواب، وأمرهم ونهيهم من باب الاختبار، ثم إن تعبدهم لله وتذللهم له شرف لهم ورفعة، وعزة وفخر؛ حيث أنهم تعبدوا لخالقهم ومالكهم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، والله أعلم.

■ **الآية الثانية: قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية** [النحل: ٣٦]]:

دلالة الآية واضحة؛ حيث أفادت أن التوحيد العملي هو دين الرسل كلهم، وأن كل رسول قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والطاغوت يعم كل ما عبد من دون الله تعالىٰ، واشتقاقه من الطغيان الذي هو: مجاوزة الحد، فكل من رفع نفسه عن قدرها، أو تعدىٰ طوره، أوترفع عن العبودية، أو تدخل في الربوبية؛ فإنه طاغوت، فيدخل في ذلك الأصنام، وكل ما عبد من دون الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]؛ أي: ابتعدوا عن عبادة الطواغيت، ويعم الاسم الشياطين وأعوانهم، كما ذكروا في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ أي: أن شياطين الإنس والجن قد تسلطت على الكفار واستولت عليهم، فأطاعوا الطواغيت، وقبلوا ما أمرتهم به.

وقد جعل الله الكفر بالطاغوت مقابلاً للإيمان بالله تعالىٰ في قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد دلت الآية علىٰ أن الله تعالىٰ أرسل في كل أمة ممن خلا قبلنا رسولاً يدعوا إلىٰ التوحيد الذي هو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه من الطواغيت والأوثان، وسائر ما يعبده المشركون، و هذا معنىٰ كلمة التوحيد، فإن قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦]، هو الإثبات الذي في آخر كلمة الإخلاص، وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هو: النفي الذي في أولها، فلا يكون هناك توحيد إلا إذا تضمن النفي والإثبات، فأول ما فرض علىٰ الإنسان هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، أي: البراءة من كل الطواغيت، والبعد عنها ومقتها، وتحقير شأنها، والحذر من تعظيمها أو ما يقرب من عبادتها، ثم الإيمان بالله تعالىٰ، وصرف جميع أنواع العبادة له، من: الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والتوكل، وتقبل كل ما جاء عن الله تعالىٰ من الأوامر، والتقرب بها إلىٰ الله، والتقرب إليه بترك المحرمات وسائر المعاصي، وعبر بالإجتناب لأنه أبلغ من الترك.

■ **الآية الثالثة: قوله:** [وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]]:

وجه الدلالة إثبات أن الله تعالىٰ أمر عباده ووصاهم، وفرض عليهم أن لا يعبدوا إلا إياه، وأن يخلصوا له العبادة، فلا يصرفوا منها شيئاً لغيره، وهو دليل

واضح على أن التوحيد والإخلاص هو أوجب الواجبات، وشرط قبول العبادات، وأول ما أمر الله تعالى وكلف به عباده، فيدل على أهميته وآكدية وجوبه.

وفي هذه الآية أيضاً معنى كلمة التوحيد، وهو النفي والإثبات، فإن قوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ هو معنى: (لا إله)، وقوله: ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ هو الإثبات في كلمة الإخلاص، فدل على أن أول ما قضى وأمر ووصى به عباده أن لا يعبدوا غيره، وأن يفردوه وحده بالعبادة، وذلك يستلزم الكفر بكل معبود سواه من حجر أو شجر أو قبر أو سيد، أو مشهد أو غيرها مما يعبده بعض الأمم، ويصرفون له شيئاً من حق الله تعالى.

وهذه الآية وما بعدها اشتملت على عدة توجيهات، ووصايا كثيرة: كبرِّ الوالدين، وإيتاء ذي القربي حقه ونحوهم، والنهي عن قتل الأولاد أو قتل النفس، وعن الزنا، وأكل مال اليتيم، والأمر بالوفاء بالعهد، والكيل والوزن، والنهي عن القول بلا علم، وعن الكبر والفخر ونحوها.

ثم إن الله تعالى ابتدأها بالنهي عن الشرك في قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، وختمها بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٢-٣٩]، وذلك دليل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، وأشدها عقوبة، حيث توعد عليه باللوم والخذلان، ثم بالإلقاء في جهنم، وأن ما سواه من الذنوب أخف منه، مع دخولها تحت الوعيد، والله أعلم.

■ **الآية الرابعة: قوله:** [وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية، [النساء: ٣٦]]:

هذه تسمى آية الحقوق العشرة، وقد اقتصر المصنف رحمه الله على أولها، ولكن من باب الفائدة نشرح جميع الآية:

*** فالحق الأول: لله تعالى:**

وهو عبادته وحده، وترك الإشراك به، فهو أصل الحقوق وأهمها وأوجبها، قدمه وبدأ به؛ لأنه شرط لقبول الأعمال، ولا تقبل عبادة أو قربة ممن أهمله وترك العمل به.

أمر الله تعالى الخلق وهم المكلفون أن يعبدوه، والأمر للوجوب، ثم نهاهم عن الإشراك به، والنهي للتحريم، أي: أفردوه بجميع أنواع العبادة من الدعاء، والحب، والتذلل، والسؤال، والطلب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والتوبة، والخضوع، والاستكانه، والركوع، والسجود، والرغبة، والرهبة، والخشية، والخشوع، ونحوها، فكلها داخلة في اسم العبادة؛ حيث أنها تفعل على وجه التذلل والخضوع، فصرف شيء منها لغير الله شرك بالله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾؛ فيدخل في ﴿شَيْئًا﴾ جميع القربات والعبادات، أي: لا تصرفوا شيئاً منها لغير الله، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر؛ ثم ذكر بقية الحقوق، وهي:

*** الحق الثاني: حق الوالدين:**

لما لهما على ولدهما من الفضل والإحسان؛ حيث ربياه صغيراً، فأمر بالإحسان بهما، فيعم جميع الإحسان: من الطاعة لهما في طاعة الله، والبر بهما، وخدمتهما، والنفقة عليهما عند الحاجة، ونحو ذلك.

* والحق الثالث: وبذي القربى:

وهم ذوو الأرحام من الإخوة، والأعمام والأخوال وبنيهم؛ حيث أمر الله بصلتهم وبرهم، والإحسان إليهم، ونهىٰ عن قطيعتهم، فمن قطع رحمه قطعه الله، كما ورد في السنة(١).

* والرابع: واليتامى:

الذين فقدوا آباءهم في الصغر؛ لأنهم محل رحمة وشفقة وإحسان، لضعفهم، وحاجتهم إلىٰ من يرفق بهم.

* الخامس: والمساكين:

يعم الضعفاء والفقراء، وذوي الحاجات والمعوقين، وكل من به عاهة أو عجز لا يقدر معه علىٰ الاكتساب؛ حيث تمسه الحاجة، وتشتد به الفاقة، فهو محل رقة وشفقه من إخوانه المسلمين.

---

(١) الآيات والأحاديث في الأمر بصلة الرحم والنهي عن قطعها كثيرة، نذكر من ذلك ما يلي:
١ـ قال الله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٢ـ٢٤].
٢ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه».
جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٦١٣٨).
٣ـ وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه».
أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٦)، ومسلم برقم (٢٥٥٧) (٢١).
٤ـ وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «... ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك...» الحديث.
أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٧)، ومسلم برقم (٢٥٥٤).
٥ـ وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته».
أخرجه البخاري برقم (٥٩٨٨).
والأحاديث في الباب كثيرة جداً.

* **الحق السادس: والجار ذي القربى:**

أي: المجاور من الأقارب في المنزل، فإن له ثلاثة حقوق: حق الإسلام، وحق القرابة، وحق الجوار؛ أي: أحسنوا إلىٰ أقاربكم عموماً، وخصوا المجاورين منهم بزيادة بر وإحسان، وإيصال للخير، ودفع للضرر عنهم، وخصهم مع دخولهم في ذوي القربىٰ، لأهمية حق الجوار.

* **ثم ذكر الحق السابع: والجار الجنب:**

وهو الأجنبي، أي: من غير الأقارب، ولو كان حبشياً، أو بربرياً، أو أعجمياً، أو عربياً، بعيداً في النسب، فإن له حق الجوار، وقد قال النبي ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه**»[1] متفق عليه، فحق إيصال الخير إليه، والرفق به، ومواساته عند الحاجة، ودفع ضرورته، والدفاع عنه لمن تعدىٰ عليه ونحو ذلك.

* **والحق الثامن: والصاحب بالجنب:**

فسر بأنه الرفيق في السفر، وحقه: مواساته، والذب عنه، وحسن التعامل معه، وإحسان الخلق والرفق به، وخدمته عند الحاجة، وقد يعم كل صاحب في الحضر كالأصحاب، والجلساء، والزوجات ونحوهم، فلهم حق بالزيارة، وإجابة الدعوة والهدية، وحسن الصحبة، ونحو ذلك.

* **والحق التاسع: وابن السبيل:**

وهو المسافر المنقطع، وقد جعل الله له حقاً في الزكاة وفي الفيء، وفي الخمس من المغنم، وذلك لبعده عن وطنه وغربته، و انقطاعه، فله حق الاستضافة والصدقة، وتزويده حتىٰ يصل إلىٰ بلده إذا لم يستطع أن يستحضر

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١٤)، ومسلم برقم (٢٦٢٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه البخاري برقم (٦٠١٥) ومسلم برقم (٢٦٢٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

من بلده ما يبلغه أهله.

* **والحق العاشر: وما ملكت أيمانكم:**

وهم الخدم والمماليك ذكوراً وإناثاً، وقد قال النبي ﷺ: «**هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»(١) متفق عليه، وفيه بيان حق الخدم لضعفهم وعدم قدرتهم على الكسب والاستقلال، فإن الله ولي عليهم غيرهم، والله أعلم.

■ **الآية الخامسة: قوله: [وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]]:**

أورد المؤلف رحمه الله الآيات الثلاث من سورة الأنعام وفيهن عشر وصايا، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بندائهم ليقرأ عليهم المحرمات التي نهاهم ربهم عنها، أي: هلموا وأقبلوا حتى أبين لكم أهم الأشياء التي حرم ربكم عليكم، وتوعد عليها.

* **فالوصية الأولى: تحريم الشرك:**

وهو أشد المحرمات، والنهي عنه أمر بالتوحيد، فإن النهي عن الشيء أمر

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٠، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠)، ومسلم برقم (١٦٦١)-(٣٨، ٤٠)، من حديث المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنهم.

بضده، أي: آمركم بعبادة الله وحده، وترك الشرك به صغيره وكبيره، ظاهره وخفيه؛ حيث أنه يحبط الأعمال، ويسبب دخول النار.

* ثم قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وهي الوصية الثانية:

أي: حرم ربكم عليكم عقوق الوالدين، وأمركم بالإحسان إليهما بجميع أنواع الإحسان، وهو يفيد تحريم العقوق والعصيان، والإساءة إليهما، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]؛ فلو كان هناك شيء من الإساءة أقل من التأفيف لذكره، فدل علىٰ عظم حقهما؛ حيث قرن حقه بحقهما، كما في الآيتين السابقتين، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، ونحوها من الآيات.

* الوصية الثالثة: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾:

مع أن الله تعالىٰ قد جعل في القلب محبة للولد، وعطفاً عليه، وحناناً وحدباً، وشفقة قوية، يكون من آثارها الرحمة والرقة والإيثار، حتىٰ قال النبي ﷺ: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»(١) متفق عليه بمعناه.

والقتل قد يكون حقيقياً كما يفعل بعض العرب قبل الإسلام بقتل الأولاد ذكوراً أو إناثاً خشية الإملاق، أي: الفقر، مع أن الله تعالىٰ هو المتكفل برزق

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٥٩٩٩). ومسلم برقم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم علىٰ النبي ﷺ سبيٌ فإذا امرأة من السَّبي تَحْلُبُ ثديها إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحه. فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها». وهذا لفظ البخاري.

الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [هود: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والواقع يشهد بأن وجود الأولاد سبب لسعة الرزق، والحياة السعيدة؛ حيث يفتح الله تعالى على الإنسان الرزق، وييسر له أسباب الكسب، ويغنيه من فضله، بعد أن كان قبل الأولاد في ضيق وشدة، وحاجة شديدة.

ثم إن بعض العرب كانوا يئدون الإناث، أي: يقتلونهن خشية العار الذي يلحق بالأسرة إذا وقعت في الفاحشة، فيدفنها أبوها وهي حية، وذلك قسوة تنافي ما جعل الله في القلوب من الرحمة والشفقة على الأولاد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وذلك داخل في قتل الولد، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»(١)، الحديث متفق عليه.

* **الوصية الرابعة: قوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾:**

وهو نهي عام عن الفواحش، وهي الذنوب والمعاصي التي يفحش أمرها، ويقبح فعلها، وقد سمى الله تعالى الزنا واللواط فاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾[الإسراء: ٣٢]،وقال عن قوم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾الآية،[النمل: ٥٤، ٥٥]، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، أي: ما أعلن به العاصي وجهر به عياناً، وما أخفاه وعمله سرّاً،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٦١). ومسلم برقم (٨٦). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ولم يطلع عليه الناس، فإن الله تعالىٰ لا تخفىٰ عليه خافية، فيدخل في الفواحش مقدمات الزنا، كما قال النبي ﷺ: «**زنا العينين النظر، وزنا الأذن الاستماع، وزنا اليد البطش، وزنا الرجل المشي، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»(١)، متفق عليه.

كما يدخل في الفواحش شرب الخمور، وتعاطي المخدرات، وسماع الأغاني والملاهي، والقذف، والشتم، واللعن، والسباب، وتتبع العثرات، والغيبة، والنميمة، ونحو ذلك.

* **الوصية الخامسة: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾:**

أي: النفس المعصومة بالإسلام، أو بالعهد والذمة، فالقتل من أعظم الفواحش، وأشنع الذنوب، وقد توعد الله عليه بالعذاب العظيم، كما في قوله تعالىٰ: **﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ٩٣].

ولا يخفىٰ ما في هذه الآية من الوعيد الشديد، حتىٰ روي عن ابن عباس وغيره أن القاتل لا توبة له(٢)، وأن هذه الآية خبر، والأخبار لا تنسخ، لكن قول الجمهور أن القاتل تقبل توبته، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٤٣). ومسلم برقم (٢٦٥٧)، من حديث عبد الله ابن عباس عن أبي هريرة رضي الله عنهم.

(٢) وقد نقل ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية (١/ ٥٣٦) ما روي عن ابن عباس رحمه الله وغيره من الصحابة، وسرد الأدلة التي يبني عليها هذا القول.

(٣) قال ابن كثير رحمه الله (١/ ٥٣٧): والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً؛ بدّل الله سيئاته حسنات، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته، قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].
إلىٰ آخر ما قاله رحمه الله.

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن القتل العمد يتعلق به ثلاثة حقوق :

الأول : حق الأولياء : فيسقط بالقصاص ، أو الدية ، أو العفو .

الثاني : حق الله تعالى : وهو يسقط بالتوبة النصوح التي يصدق فيها ، ويندم ، ويكثر من الصالحات .

والثالث : حق المقتول : فيتحمله الله تعالى عن عبده التائب ، أما إذا لم يتب فلابد من الحساب في الآخرة .

وقد قال النبي ﷺ : **«أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»**(١) متفق عليه .

وقوله : **﴿إلاَّ بِالْحَقِّ﴾** ، أي : ما يبيح قتلها ، كما قال النبي ﷺ : **«لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ؛ إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**(٢) ، متفق عليه . وكذا قال : **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»**(٣) ، رواه البخاري . فإن نَقَضَ العهد حل دمه وماله .

ثم إنه تعالى ختم الآية الأولى بقوله : **﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** ، أي : وصاكم بهذه الوصايا المذكورة في هذه الآية رجاء أن تتعقلوا وتعرفوا أهميتها فتعملوا بها .

*** ثم ذكر الوصية السادسة : بقوله : ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ :**

واليتيم هو من مات أبوه في صغره ، ويزول عنه اليتم بالبلوغ ، لحديث : «لا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٣٣) . ومسلم برقم (١٦٧٨) . من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٨٧٨) ومسلم برقم (١٦٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

يُتْمَ بعد احتلام»[1]، رواه أبو داود وغيره. وهو حديث حسن بشواهده.

وقد أوصى الله تعالى بالإصلاح لليتامى في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، أي: أصلحوا أموالهم، واعملوا فيها بالخير: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، أي: لو خلطتم طعامهم بطعامكم وأكلتم معهم فإخوانكم، ولا حرج عليكم.

وقد توعد الله تعالى على أكل أموالهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ولذلك عده النبي ﷺ من السبع الموبقات[2]، وأباح أن يقربه بالإصلاح، ويتصرف فيه الولي بما يراه مناسباً في الاتجار به، وتنميته حتى لا تفنيه الزكاة والنفقة[3].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٢٨٧٣).

وقد قال الشيخ ابن جبرين: وهو حديث حسن بشواهده.

(٢) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وماهن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

أخرجه البخاري برقم (٢٦١٥). ومسلم برقم (٨٩).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

قالت عائشة رضي الله عنها في هذه الآية: أنزلت في والي اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان محتاجاً بقدر ماله بالمعروف. أخرجه البخاري برقم (٢٧٦٥).

وأخرج الترمذي برقم (٦٤١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ خطب الناس فقال: «ألا من وَلِيَ يتيماً له مال فليتجر فيه، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة» قال الترمذي وفي إسناده مقال، ولكن يتقوى بغيره. =

* الوصية السابعة: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾:

أي: أوفوا عند البيع المكاييل والموازين، حتى لا تبخسوا الناس أشياءهم، وتنقصوهم حقهم، وقد ذكر الله عن شعيب عليه السلام أنه نهى قومه عن نقص المكيال والميزان(١)، وهو دليل على أن قومه اشتهروا بالنقص، فكان ذلك من جملة الأسباب التي عذبوا لأجلها.

وقد قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١٣]؛ فتوعدهم على أخذهم حقهم وافياً، وبخسهم الناس إذا باعوهم بالكيل بصاع ناقص أو مد صغير ونحوه، وذلك لأنه أكل لأموال الناس بغير حق.

ثم إنه عَذَرَ العاجز فأخبر أنه تعالى لا يكلف الإنسان بما لا يستطيعه، وإنما التكليف والنهي والأمر بحسب الوسع والقدرة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

* الوصية الثامنة: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾:

أي: انطقوا بالحق، واشهدوا بالصواب والواقع، واصدقوا في المقال، ولو

= وعن عمر بن الخطاب قال: اتجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة. أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الزكاة رقم (١٢).

وعن عائشة رضي الله عنها: كانت تعطي أموال اليتامى الذين في حجرها من يتجر لهم فيها. أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الزكاة رقم (١٤). قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: لا بأس بالتجارة في أموال اليتامى لهم إذا كان الولي مأذوناً. فلا أرى عليه ضماناً.

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

كان عليكم ضرر في العدل، أو على أحد أقاربكم، فيجب على الإنسان أن يقول الحق ولو على نفسه، ولا يكون معه ميل أو حيف أو محاباة مع أحد أقاربه، فيكتم الشهادة أو يغيرها، كما قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥]؛ فأمر بأداء الشهادة لله تعالى، والاعتراف بالحق ولو على النفس أو أحد الأبوين أو الأقارب، وذلك هو الإنصاف، وكما قال تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]، أي: لا يحملكم بغضهم على ترك العدل معهم، بل اشهدوا لهم ولو كانوا أعداء لكم.

* الوصية التاسعة: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾:

والعهد هو: الميثاق مع الله تعالى، ومع الخلق، أي: متى تعهدتم لله بالطاعة والعبادة وترك المحرمات، فأوفوا بذلك حسب القدرة والاستطاعة، وكذا إذا تعهدتم لأحد فعليكم الوفاء لهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

وصفته أن يقول: لك عهد الله وميثاقه أن لا أفعل كذا وكذا.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤]، وهو دليل على أهمية الوفاء بالعهد.

وفي الحديث أن من صفات المنافق أنه إذا عاهد غدر[(١)]؛ أي: نقض عهده، وخالف ما تعهد به، بخلاف المؤمن فإنه يوفي بذلك حسب قدرته، وقد أخبر النبي ﷺ أنه يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان. متفق

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤)، ومسلم برقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر».

عليه بمعناه[1].

ثم إنه ختم الآية الثانية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: هذه الوصايا من الله تعالىٰ رجاء أن يحصل منكم التذكر والاتعاظ، والاعتبار والعمل بها.

*** ثم ذكر الوصية العاشرة: بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾:**

الإشارة إلىٰ ما تقدم في الآيتين قبلها، وقيل إلىٰ ما ذكر من أول السورة إلىٰ هاهنا، أو إلىٰ جميع القرآن، أو إلىٰ الشرع الذي بلغه النبي ﷺ.

(والصراط) هو: الطريق الواسع الذي لا يضيق بمن سلكه. (والمستقيم) الذي لا عوج فيه، ولا انحراف، بل يؤدي بمن سلكه إلىٰ سبيل النجاة، والمعنىٰ: أن ما أخبرتكم به وأمرتكم بفعله أو نهيتكم عنه هو السبيل السوي، المؤدي إلىٰ رضىٰ الله وثوابه. (فاتبعوه) وسيروا علىٰ نهجه، وتمسكوا به، وعضوا عليه بالنواجذ، ولو سرتم وحداناً، ولو لقيتم مضايقات وأضراراً، ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾؛ أي: طرق الغواية، ومسالك المبتدعة التي تنحرف بمن سار عليها إلىٰ الهلاك والدمار.

وقد مثل ذلك النبي ﷺ، وكان يوضح لأصحابه المعاني بالتمثيل، قال ابن مسعود رضي الله عنه: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «**وهذه السبل**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٨٦)، ومسلم برقم (١٧٣٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٨٧)، ومسلم برقم (١٧٣٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٨٨)، ومسلم برقم (١٧٣٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
وأخرجه مسلم برقم (١٧٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه»[(١)]، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. رواه أحمد والنسائي والدارمي والحاكم وصححه.

وعن النواس بن سمعان مرفوعاً: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه؛ فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم»[(٢)]. رواه أحمد و النسائي والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه.

وهذه الأمثلة النبوية تقرب معنى الصراط، بأنه الطريق الذي نصبه الله تعالى موصلاً إليه، وهو يتمثل في طاعته وحده، وطاعة رسوله، بامتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه، بحيث لا يُقَدَّمُ على ذلك قول أحد كائناً من كان، وتكون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥-٣/ ٣٩٧)، والدارمي برقم (٢٠٢، ٢٧٢٩)، وابن ماجه برقم (١١)، والحاكم (٢/ ٣١٨٣/ ٣٩٧)، والطبري برقم (١٤١٦٨)، وأورده البغوي في شرح السنة (١/ ١٩٦).
وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (١/ ٥٩)، وقال الأرناؤوط في شرح السنة (١/ ١٩٧): إسناده حسن، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٤١٤٢): إسناده صحيح، وانظر تحقيق ابن كثير لهذا الحديث في تفسيره (٢/ ١٩٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٨٢، ١٨٣)، والترمذي برقم (٢٨٥٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٦١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٤٤).
قال الترمذي: هذا حديث غريب. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٤٧)، وقال: ذكره رزين ولم أره في أصوله، وإنما رواه أحمد والبزار مختصراً بغير هذا اللفظ بإسناد حسن.

طاعة الله تعالىٰ، وطاعة رسوله ﷺ هي مقصده الأسنىٰ، متىٰ تبين له ذلك وعرفه عمل به، وتمسك به، ولو كثر مخالفوه، ولو عابه الأعداء بأنه رجعي، أو متأخر أو متزمت، أو جاهل بالأمور، فإن:

الحق شمس والعيون نواظر

لكنها تخفى على العميان

وأما (السبل) فهي طرق المبتدعة التي يدعو إليها رسل الشيطان، كالرفض، والنصب، والتعطيل، والجبر، والتجهم، والإرجاء، وإنكار القدر، والغلو في الأموات، والتصوف، والبعث، والنفاق، ونحوها، فهي طرق ملتوية، مخالفة للصراط المستقيم، وقد ضرب لها بعض مشايخنا مثلاً بعسيب النخل، إذا تدلىٰ فوصل طرفه إلىٰ الأرض، فلو تعلقت به حشرة ورقت فيه فإنها إذا مشت علىٰ أصل العسيب وصلت إلىٰ فرع النخلة، وأكلت من ثمرها، فإن انحرفت وركبت إحدىٰ الخوص سقطت إلىٰ الأرض.

وهذا مثل مطابق، حيث مثل الصراط المستقيم بأصل العسيب، ومثل الطرق المنحرفة عنه بالخوص المتعلق بالعسيب، وله أطراف قصيرة.

ثم إنه ختم الآية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: رجاء أن تكونوا من المتقين، فالآية الأولىٰ ختمها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، وإذا تذكروا اتقوا ربهم، وهو العمل الذي به يحصل الثواب والجزاء الأوفىٰ إذا تقبله الله تعالىٰ.

■ **قوله: [قال ابن مسعود: (من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾... إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية)** [الأنعام: ١٥٣](1)]:

رواه الترمذي في التفسير من سننه، وحسنه، ورواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بنحوه.

أي: من أحب أن يعلم الوصية التي أوصى بها النبي ﷺ فهي في هذه الآيات؛ أي: كأنها كتبت وختمت، فلم تغير ولم تبدل بزيادة أو نقص، وذلك أن الوصية المختومة يعرف صحتها وثبوتها عن الموصي، وذلك لأن الله تعالى ختم كل آية منها بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾؛ فالوصية الثابتة أولى أن تتبع، مع أنها في صالح العاملين بها، حيث تحصل لهم التقوى التي نهايتها وثوابها دار الكرامة، وهي الجنة، والله أعلم.

■ **قوله: [وعن معاذ بن جبل، قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله: ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، قلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»(2)، أخرجاه في الصحيحين]:**

أورد المؤلف حديث معاذ بن جبل؛ حيث ذكر أنه كان قد ركب مع النبي ﷺ على حمار فركب خلفه، ثم أنه ألقى عليه سؤالاً عن حق الله تعالى على عباده،

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٧٢)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٣٨١)، والطبراني في الكبير (١٠٠٦٠)، وفي الأوسط (١٢٠٨)، وأخرجه أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان كما في الدر المنثور (٣/ ٣٨١). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٨، ١٢٩، ٢٨٥٦، ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣)، ومسلم برقم (٣٠).

وحق العباد على الله تعالى، فرد العلم إلى الله ورسوله، ثم إن النبي ﷺ أخبره بالجواب بعبارة واضحة، بأن حق الله على عباده وهم المكلفون من الجن والإنس عبادته وحده دون من سواه، بأن يصرفوا جميع أنواع العبادة له مخلصين له الدين، فإنه سبحانه أهل أن يعبد، وأن يحمد، ويركع له ويسجد، ويدعى، ويخاف، ويرجى، ويتوكل عليه العباد، ولا يلتفتون إلى سواه بقلوبهم أو بأعمالهم أو بأقوالهم، ولا يعظمون غيره بشيء من أنواع التعظيم الخاص به، حتى الحلف بالآباء أو بالحياة ونحو ذلك.

أما حق العباد على الله فهو أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، بل يكرمهم ويثيبهم، ويغفر لهم ما وقع منهم من الزلات والهفوات، والسيئات التي تقع عن تساهل، أو عن اعتماد على عفو الله ورحمته، فإنه سبحانه يتكرم عليهم، ويمحو عنهم السيئات، ويغفر لهم خطاياهم، وهو الغفور الرحيم.

ثم إن في الحديث بشارة للموحدين بالسلامة من العذاب، فطلب معاذ أن يبشر الناس بأن من أخلص منهم الدين، ودان لله تعالى بالتوحيد، ولم يشرك بالله شيئاً، فإنه يسلم من العذاب، لكن النبي ﷺ منعه في ذلك الوقت، خشية أن يتكلوا على أنهم لا يعذبون ويتكلوا عن العمل، ولكن معاذ أخبر بذلك عند موته تأثماً من كتمان العلم، وبعد أن عرف أهل الإسلام أن سعة رحمة الله تعالى ومغفرته لا يسبب النكول عن الأعمال الصالحة، وترك المنافسة في الخيرات؛ بل لا يزيد المؤمن هذا الخبر إلا قوة في دينه، واستكثاراً من الصالحات.

وفي هذا الحديث تواضع النبي ﷺ، حيث ركب الحمار وأردف عليه، مع أنه مركب دنيء يترفع عنه المتكبرون.

وفيه أن من التعليم إلقاء العلم على المتعلم كهيئة سؤال، حتى يستعد لحفظ الجواب وتذكره، واستحضاره بعد ذلك.

وفيه أن من لا يعلم يتوقف عن الجواب فيرد العلم إلىٰ عالمه، ولا نقص عليه في ذلك، فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله أعلم. فمن أخطأ (لا أدرىٰ) أصيبت مقاتله، كما قاله بعض العلماء، وذكر عن مالك رحمه الله تعالىٰ أنه سئل عن أربعين مسألة، فأجاب عن أربع فقط، وتوقف عن الباقي، مع أنه إمام أهل المدينة، وفي ذلك يقول بعض الشعراء في فضل العلم كما في كتاب العلم لابن عبد البر:

وقل إذا أعـيـاك ذاك الأمـر

مـالى بماتسـأل عنه خـبـر

فـذاك شطر العلم فـاحـفظه

واحـذر هديت أن تزيغ عنه

فـربما أعـيـا ذوي الفـضـائل

جـواب مـا يلقى من المسـائل

فـيـمسكوا بالصمت عن جوابه

عند اعـتـراض الشك في صـوابه.

ثم في الحديث بيان عظمة شأن التوحيد وأهميته، وحتميته علىٰ العباد، وأنه حق واجب عليهم، وهو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له في العبادة، وأن يتقربوا إليه بجميع أنواع العبادة، كالدعاء، والابتهال، والإنابة، والتوبة، والتضرع، والتذلل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والاستعانة، والاستعاذة، ونحو ذلك، فلا يصرفوا منها شيئاً لمخلوق، فمن صرف منها شيئاً لمخلوق فهو مشرك، كافر، ولو كان ذلك المخلوق نبيّاً أو رسولاً، أو ملكاً مقرباً، فضلاً عن غيرهما.

فمن أخلص هذا التوحيد لله تعالىٰ حمله ذلك علىٰ معرفة عظمة الخالق، واستحضر كبرياءه، فقدسه وأجله، وهاب أن يعصيه، أو يخالف أمره، أو يرتكب ما نهاه عنه، فأكثر من الحسنات والأعمال الصالحة التي يحبها مولاه، وابتعد عن المخالفات، وعن جميع المعاصي التي يسخطها ربه، ويغضب علىٰ من فعلها، وتدل علىٰ نقص تعظيم الرب تعالىٰ.

ثم إن حق الله تعالىٰ علىٰ العباد حق واجب، يلزمهم أن يدينوا به، ويحرم عليهم تركه أو مخالفته، أما حقهم علىٰ الله فهو تكرم منه وفضل، فهو الذي أعانهم عليه، وهداهم وسددهم، وأقبل بقلوبهم، حتىٰ أخلصوا له العبادة، وهو الذي حماهم عن الشرك وعن المعاصي، فله الفضل وله المن، كما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجب

كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا

فبفضله وهو الكريم الواسع

وفي الحديث جواز كتمان العلم للمصلحة، وهي هنا خوف أن يتكلوا علىٰ مجرد التوحيد، ويتركوا المنافسة في الأعمال الصالحة، و هذا يكون في حق المبتدئين والعامة، فأما الخاصة وأهل المعرفة فما يزيدهم هذا الخبر إلا جداً ونشاطاً، و تشميراً في العبادات، وتزوداً من الصالحات، والله أعلم.

■■■■■

[١]

باب:
بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبد ورسوله، وأن عيسى عبده الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، أخرجاه.

«ولهما، في حدث عِتْبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»، رواه ابن حبان، والحاكم وصححه.

وللترمذي وحسنه، عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة».

● فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمُّل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده؛ تبين لك معنى قول: «لا إله إلا الله»، و تبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله».

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عُمّاراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافاً للمعطلة.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عِتْبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» أن ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمُّل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدَي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسىٰ بكونه كلمة الله .

السادسة عشرة: معرفة كونه رُوحاً منه .

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .

الثامنة عشرة: معرفة قوله : «علىٰ ما كان من العلم» .

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كِفَّتان .

العشرون: معرفة ذكر الوجه .

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

أي: هذا باب يذكر فيه بعض فضائل التوحيد وفوائده، وما يحصل للموحدين حقّاً من الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وأن من تلك الفضائل كونه يكفر الذنوب، ويمحو السيئات، إذا كان توحيداً خالصاً، سالماً من الشوائب التي تكدر صفوه، وتنقص أجره وثوابه.

فبعد أن ذكر المؤلف أهمية التوحيد وفرضيته على العباد، أورد في هذا الباب شيئاً من فضائل التوحيد، وآثاره على الموحدين، فإنه سبب النصر والتمكين، وسبب الخيرات والبركات، وبه يدفع الله عن الخلق الآفات والمصائب، وهو الذي يعصم الدم والمال في الدنيا، ويحصل لأهله تمام الأخوة فيما بينهم، زيادة على فضائله وفوائده في الآخرة، التي تضمنتها الأدلة المذكورة في الباب، حيث ذكر آية كريمة، ثم ذكر أربعة أحاديث صحيحة.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [الأنعام: ٨٢]]:

هذه الآية سيقت بعد محاجة إبراهيم لقومه، في قوله عليه السلام: **﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [الأنعام: ٨١].

فالمعنى: أنني لا أخاف من آلهتكم أن تلحقني ضرراً؛ لأنها جماد أو أموات، فأنا آمن من شرها وسوئها، فكيف أخاف من شركائكم؟ مع أنكم لا

تخافون من الله، وقد جعلتم له شركاء لم ينزل بها عليكم سلطاناً، فأنا أحق بالأمن منكم.

ثم إن الله تعالىٰ ذكر من هو أحق بالأمن، وهم المؤمنون حقّاً، الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك أو نحوه، ثم إن ظاهر الآية أن الأمن والاهتداء إنما يحصلان لمن لم يلبس إيمانه بشيء من الظلم الذي يعم ظلم النفس بالمعاصي، وظلم العباد بالاعتداء عليهم؛ فلهذا خاف الصحابة منها، وقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ فأخبرهم النبي ﷺ أن المراد بالظلم: الشرك، واستدل بقول الله تعالىٰ عن لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][1]. رواه البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

والشاهد من الآية أن أهل الإيمان الخالص السالم من الشرك صغيره وكبيره، يحصل لهم فائدتان عظيمتان، وهما: الأمن من النار أو من الخلود فيها، والاهتداء إلىٰ طريق الصواب، فهذا من فضل التوحيد.

وقد ذكر المفسرون والشراح أن الأمن قسمان: (الأمن المطلق)، (ومطلق الأمن).

فالأول هو: الأمن التام، بحيث لا يخاف صاحبه ولا يحزن الفزع الأكبر، حيث يبشر بالجنة التي وعد المتقون، وبالسلامة من العذاب في الموقف أو في النار، ولا يكون هذا الأمن إلا لأهل الإيمان الخالص، الذي لا يشوبه شرك أو شيء من وسائله، أو بدعة، أو ذنب كبير أو إصرار علىٰ صغير؛ حيث أن إيمانه الكامل لم يلبسه بشيء من الظلم فأمنه الله تعالىٰ، وصدق وعده له بدار الخلود التي وعدها عباده المؤمنين.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢) ومسلم برقم (١٢٤).

وهكذا بشره بالاهتداء الذي هو سلوك الصراط السوي، ففي الدنيا يوفقه الله للسير على طريق النجاة بالأعمال الصالحة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من: النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، ثم الاهتداء في الآخرة بالسير على الصراط الحسي الذي ينصب على متن جهنم(١)، ويسير عليه الناس بأعمالهم سيراً سريعاً أو بطيئاً بحسب تمسكهم بالصراط في الدنيا.

ولا شك أن هذا الاهتداء يتفاوت كما يتفاوت الأمن، فمن سلم من الظلم كله صغيره وكبيره فله الأمن التام، والاهتداء التام، ومن كان من أهل التوحيد، ولكن وقع في شيء من الظلم، فله مطلق الأمن، وهو السلامة من الخلود في النار.

ثم إن الظلم ثلاثة أنواع ذكرت في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وهو: ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وهو: ظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة. وديوان لا يغفره الله، وهو: الشرك بالله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢](٢)، وفي إسناده ضعف، ولكن له شواهد بمعناه، فإن الشرك هو أظلم الظلم، وهو: وضع العبادة في غير موضعها اللائق بها، وصرفها لمن لا يستحق شيئاً منها.

---

(١) جاء ذكر نصب الصراط على متن جهنم، وأن عليه كلاليب مثل شوك السعدان تخطف الناس بأعمالهم، في حديث طويل عند البخاري برقم (٧٤٣٧)، ومسلم برقم (١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٥)، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٨) والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧٠)، وصحح إسناده الحاكم، ورده الذهبي. وضعفه الألباني في الطحاوية (٣٨٤).

قال الشيخ ابن جبرين عقب الحديث: وفي إسناده ضعف، ولكن له شواهد بمعناه.

■ **قوله: [وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، أخرجاه(1)]:**

دلالة هذا الحديث على الباب أن من فوائد التوحيد كونه سبباً في دخول الجنة لمن عمل به، فإن لفظ الشهادتين يستدعي اعتقاد أن الله تعالى هو الإله الحق، وأن كل ما سواه مما يعظم ويصرف له شيء من أنواع التأله فهو باطل، واعتقاد صحة رسالة محمد ﷺ، ووجوب قبول ما جاء به وبلغه من أمور الشريعة.

فأما التلفظ بالشهادتين مع الجهل بمدلولهما، أو مع مخالفة معناهما، أو مع صرف معناهما إلى غير المعنى الحقيق الشرعي، فإن ذلك لا يفيد من تلفظ بهما، ولا يعصم الدم والمال، ولا يكون سبباً في دخول الجنة في الآخرة.

* **وقد كثر كلام العلماء في معنى لا إله إلا الله، وذكروا أن الإله هو**: الذي تألهه القلوب محبة وخوفاً ورجاءً، وتوكلاً وخضوعاً، وتذللاً وإنابة إليه، ورغبة فيما لديه.

وذكروا أن هذه الكلمة مركبة من ركنين، وهما النفي والإثبات، فلا يتم أحدهما إلا بالآخر، فأولها: نفي لجميع أنواع العبادة عن غير الله، وآخرها: إثبات العبادة كلها لله وحده، فهي اعتقاد أن الله تعالى هو الإله الحق وحده، أي: المألوه الذي تألهه القلوب، أي: تعظمه وتجله، وتخضع له وتتواضع، فمن كان كذلك فإنه يعرف قلبه وقالبه عن غير الله تعالى، بحيث يمتلئ قلبه بمحبة الله تعالى وتعظيمه وتقديسه، ويقبل على الله تعالى بكليته، فيصرف جميع أنواع التعظيم

(1) أخرجه البخاري برقم (٣٤٣٥)، ومسلم برقم (٢٨).

والإجلال لرب العالمين، ولا يتسع قلبه لشيء سوىٰ الله تعالىٰ، فهو يخافه أشد الخوف، ويرجوه غاية الرجاء، ويحبه بأعلىٰ أنواع المحبة، ويعظمه ويجله، فله يركع ويسجد، وإليه يسعىٰ ويحفد، فهو محب لله تعالىٰ ولكل ما يحبه، وهو مبغض لأعداء الله، ولما يغضب ربه من الأقوال والأعمال.

وقد سبق ذكر معنىٰ العبادة وسبب تسميتها، و أن جميع أنواعها لا تصلح إلا لله تعالىٰ، وأن التقرب بها إلىٰ الله تعالىٰ: هو التأله والتذلل الذي يكسب القلب خصوعاً وخشوعاً وتواضعاً للرب سبحانه، فمتىٰ كان العبد كذلك صدق عليه أنه عبد لله تعالىٰ، عابد له وحده دون ما سواه.

وبالجملة فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص التي بدأ النبي ﷺ بالدعوة إليها واستمر علىٰ ذلك لمدة عشر سنين، مقتصراً علىٰ التوحيد العملي القصدي الطلبي الإرادي، وهو توحيد العبادة، ويقول لقومه: «**قولوا: لا إله إلا الله كلمة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**» وفي لفظ: «**تدين لكم بها العرب، وتؤدي بها العجم الجزية...**»[(١)] إلخ. رواه أحمد بنحوه، والترمذي، وابن جرير في تفسير سورة (ص) وغيرهم، عن ابن عباس، وصححه الترمذي.

وقد اتفقت علىٰ معناها دعوة الرسل كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فكل من أوحىٰ الله إليه بهذه الكلمة فإنه يأمر بها قومه، ويبدأ بها دعوته، فكلهم قال لقومه: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ**

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٣٢)، وأحمد في المسند (١ / ٢٢٧، ٣٦٢ـ٥ / ٤٣٣)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٥ / ٢٣٥)، والحاكم (٢ / ٤٦٩)، والبيهقي في السنن (٩ / ١٨٨)، وأبو يعلىٰ (٤ / ٤٥٥)، وابن حبان بترتيب ابن بلبان (٣ / ٢٦٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه ابن حبان، وصححه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٠٠٨): إسناده صحيح.

مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، وهي التي أنكرها المشركون على النبي ﷺ، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥، ٦]؛ فقد فهموا أنها تلزمهم أن يقتصروا على إله واحد وهو الله، ويتركوا آلهتهم التي يعبدونها بالدعاء والخضوع، و التذلل والتواضع، والعكوف والذبح والنذر، والركوع والانحناء والتعظيم، والحلف بها ونحو ذلك.

ثم إن المتأخرين لما جهلوا معناها اللغوي، وماتدل عليه من ترك دعاء غير الله، ومن صرف جميع أنواع التعظيم لله وحده، نتج عن جهلهم أن صرفوا العبادة للأموات، وعظموا القبور كتعظيم الجاهليين لأصنامهم، وصرفوا لها خالص حق الله تعالى، فدعوها مع الله، وذبحوا لها ونذروا لها، وحلفوا بها، وعكفوا عندها، وتحروا الصلاة عندها، وفضلوها على الصلاة في المساجد التي: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]، وزين لهم الشيطان أن هذا لا بأس به، وأن هؤلاء الأموات من أولياء الله والمقربين إليه، وأنه يقبل شفاعتهم ووساطتهم، وسموا فعلهم توسلاً وتبركاً واستشفاعاً، وتحاشوا أن يسموه عبادة أو شركاً، مع أن الأسماء لا تغير الحقائق.

وقد توهموا أن الشهادتين يكفي منهما النطق، وأن من تلفظ بها فهو موحد مخلص، معصوم الدم والمال، ولو دعا الأموات، وحلف بهم، وذبح لهم، وطاف بالقبور، وتذلل للأموات وخضع وخشع، وأهطع وأقنع لغير الله، فأشركوا هؤلاء الأموات في حق الله تعالى، ودعوهم مع الله، فنقضوا بذلك توحيدهم، وخالفوا معنى لا إله إلا الله وهم يعلمون: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

ثم إن كثيراً من علماء القرون الوسطى غلطوا في تفسير كلمة الإخلاص، وفسروا الإله بأنه القادر على الاختراع، وجعلوا معنى لا إله إلا الله، أي: لاخالق إلا الله، وغفلوا عن كون المشركين الأولين يعترفون بذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ونحو ذلك من الآيات.

فلو كان الإله هو القادر على الاختراع أو هو الخالق المبدع، لما أنكر المشركون كلمة لا إله إلا الله، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥،٣٦]، فهم مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المدبر للأمر، قد امتنعوا من قول: لا إله إلا الله؛ حيث فهموا من معناها: إبطال آلهتهم، وجعل الإله واحداً، فعلى هذا يعتبر هذا التفسير خطأ، ونقصاً في العلم بمعنى هذه الكلمة.

ومما يدل على المراد من كلمة لا إله إلا الله تأكيد معناها بقوله: «**وحده لا شريك له**»؛ فنفي الشريك تأكيد للنفي في هذه الكلمة، وقوله: «**وحده**» تأكيد للإثبات؛ أي: أنه سبحانه هو الإله وحده، المتفرد بالإلهية، وليس له شريك في استحقاق العبادة، ولا في مسمى الإلهية، فكل ما يسمى إلهاً فهو باطل؛ والله أعلم.

* **وأما الشهادة بأن محمداً رسول الله**: فإنها قرينة الشهادة الأولى ومكملتها، فلا تتم إحدى الشهادتين إلا بالأخرى، وذلك لأن محمداً ﷺ هو الذي عرّفنا بربه، ودعى إلى التوحيد والإخلاص لرب العالمين، ولذلك يلزم كل مسلم أن يصدق برسالته، و يشهد بأنه مرسل من ربه، وقد قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

[الشرح: ٤]، قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهدٌ، ولا صاحب صلاة؛ إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله(١). وفي حديث مرفوع عن أبي سعيد: «إن الله قال: إذا ذُكِرْتُ ذُكِرَتْ معي»(٢)، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وقد ذكر ذلك الشعراء كما في كتب التفسير.

وقد فسر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذه الشهادة بقوله: ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. أ. هـ. وفسر شهادة أن محمداً عبده ورسوله بأنه: عبد لا يُعبد، ورسولاً لا يُكذب؛ بل يُطاع ويُتبع.

ولا شك أن هذه الشهادة تستدعي الإقرار والاعتراف بأن محمداً ﷺ مرسل من ربه، حمّله الله رسالة عظيمة، وهي شريعة الإسلام، وكلفه أن يبلغها إلى قومه وإلى الناس كافة، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشوري: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد شهد له الصحابة رضي الله عنهم بالبلاغ لما استشهدهم في حجة الوداع، فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت(٣)، رواه مسلم وغيره.

* وحيث أن من واجب المسلم الاعتراف برسالته، فإن ذلك يستدعي مكملات وعلامات يعرف بها صدق من ادعى الشهادة له بالرسالة:

---

(١) أورد هذه الأقوال ابن كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٤/ ٥٢٤، ٥٢٥).
(٢) أورده ابن كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٤/ ٥٢٤)، ونقله عن ابن جرير وابن أبي حاتم.
(٣) أخرجه مسلم برقم (١٢١٨)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

● فمنها: محبته ﷺ: وتقديمها على محبة كل مخلوق، فقد ثبت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه: من ولده، ووالده، والناس أجمعين**»(١). متفق عليه.

ولاشك أن محبته تستلزم حبه وحب من يحبه، وحب شريعته وسننه، وتستلزم تقديم قوله على كل قول، كما تستلزم بغض أعدائه، وبغض مخالفته، والبعد عن ذلك.

● ومنها: وجوب طاعته: وقد قرن الله طاعته بطاعة رسوله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧١]، ورتب على طاعته الثواب، وعلى معصيته العقاب في قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا**﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

بل جعل الله تعالى طاعة الرسول طاعة لربه، فقال تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠]. وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**»(٢). رواه البخاري. ومعلوم أن المطيع هو الموافق المتمثل لما جاء به، المحب لشريعته.

● ومنها: أمر الأمة باتباعه والتأسي بسنته: وهو داخل في طاعته، وتابع لمحبته، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١]، وتسمى هذه الآية: آية المحنة، أي: الامتحان لكل من ادعى

(١) أخرجه البخاري برقم (١٥)، ومسلم برقم (٤٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (١٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٧١٨)، ومسلم برقم (١٨٣٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التصديق لله تعالى، ومحبة الرب، فإن علامة صدقه اتباع هذا النبي الكريم.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ أي: عليكم أن تقتدوا به في أفعاله، وتتأسوا به في أعماله وقرباته إن كنتم صادقين في الشهادة له بالرسالة، فمن ادعى محبته ولم يوافقه فدعواه كاذبة.

● ومنها: **الإيمان به**: فقد أمر الله بذلك كما أمر بالإيمان بالله تعالى، في قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، ورتب على ذلك أجراً كبيراً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقد علم أن الإيمان برسالته يستلزم تصديقه، واعتقاد صحة ما جاء به، وأنه مرسل من ربه، ثم يستلزم تقبل ما بلغه والعمل به أمراً ونهياً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

*** ثم إن الأمة الإسلامية قد افترقت في حقه ﷺ إلى ثلاثة فرق:**

ففرقة غلوا في معاملته، وفرقة جفوا، وفرقة توسطوا.

● **أما الغلاة**: فهم الذين صرفوا له الكثير من حق الله تعالى، كالذين بالغوا في مدحه بما لا يستحقه إلا الله تعالى، فوصفوه بعلم الغيب، والقدرة على كل شيء، والملكية، والتصرف في جميع الكون، وحملهم ذلك على الغلو فيه، فدعوه مع الله، وحلفوا به، وصرفوا له خالص العبادة التي لا يستحقها إلا الله، وهؤلاء يدَّعون أن ذلك من تمام محبته وتصديقه، فتراهم يدعونه في الملمات، ويهتفون باسمه عند الشدائد، وينسون الرب العظيم الخالق.

وقد غاب عنهم ما وصفه الله تعالىٰ به من العبودية في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، والعبد هو: المملوك لخالقه، فليس للعبد التصرف إلا فيما أقدره الله عليه.

وقد وصفه الله تعالىٰ بأنه بشر، أي: إنسان من جملة الناس، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أي: أنه تميز عن البشر بالوحي إليه، فليس له من حق ربه شيء.

وقد بالغ ﷺ في تواضعه لربه، ، وحذَّر من الغلو في حقه، فقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[١]، ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: «**أجعلتني لله نداً**»[٢] علىٰ وجه الإنكار. وقال: «**إنما أنا عبد، أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد**»[٣].

ثم إن أولئك الذين غلوا في حقه، ودعوه من دون الله، إذا نظرنا في أحوال كثير منهم وجدناهم قد خالفوا سنته، وعصوه جهاراً، بحلق اللحىٰ، وشرب الدخان، والإسبال في اللباس؛ بل وفي ترك الصلاة، ومنع حقوق الله في أموالهم، فلم يصدقوا في محبته، وأطاعوا الشيطان في عبادته.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٥) عن عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١ / ٢١٤، ٢٨٢، ٣٤٧)، والطبراني في الكبير (١٢ / ٢٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال أحمد شاكر في تحقيق المسند رقم (١٨٣٩): إسناده صحيح.

(٣) هذه الجملة جاءت في عدة أحاديث عند عائشة رضي الله عنها وهي صحيحه. فقد صححها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٤٤) ورقم (٢٠٤٥) ورقم (٢٤٨٤). وأورد بعض الطرق والشواهد، وصححها أيضاً في صحيح الجامع رقم (٦، ٧، ٨)، وصححها أيضاً الأرناؤوط في شرح السنة (١١ / ٢٨٧) و(١٣، ٢٤٧).

● **أما الذين جفوا في حقه**: فهم الكثير من الذين يتسمون بالإسلام ظاهراً، وينطقون بالشهادتين، ولكنهم لا يأخذون من السنة إلا ما يناسب أهواءهم وأذواقهم، فهم يعلنون بالمعاصي، ويدعون أن فيها حظ الأنفس، والتلذذ بالشهوات المحرمة، ويقولون بلسان الحال: إن محمداً قد تدخل فيما لا يعنيه، فليس من حق التدخل في التحليل والتحريم لما تهواه الأنفس، وتلتذ به الأعين، فلذلك تراهم يشربون الخمور، ويعكفون على سماع الأغاني والملاهي، والنظر في الصور والأفلام الخليعة، ويفعلون فواحش الزنا ومقدماته، ويبيحون للنساء التكشف والسفور، ومخالطة الرجال الأجانب، ويتعاطون المعاملات الربوية، وأخذ المال بغير حق.

وإذا نُصحوا وذكِّروا ردُّوا على من نصحهم بأن الشرع لا دخل له في المعاملات والشهوات، وإنما أتى بالعبادات كالصلوات، والصوم، والحج، وأن القصد منها إظهار الطاعة والمتابعة، فيكتفون من ذلك بالتسمي، دون تحقيق الاتباع.

و لا شك أن هؤلاء لا تنفعهم شهادتهم، ولاتعصم دماءهم وأموالهم، حيث أنهم لم يعملوا بها، ولم يصدقوا بما تدل عليه، واتبعوا أهواءهم، و أعطوا أنفسهم حرية التصرف فيما يشتهونه، فخرجوا بذلك عن حقيقة الدين الإسلامي، وما يهدف إليه، وشابهوا المنافقين الذين آمنوا في الظاهر، وكذبوا في الباطن، فكانوا في الدرك الأسفل من النار(١).

● **وخير الأمور أوساطها**: فأهل الإسلام الصحيح يحترمون النبي ﷺ في

---

(١) لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥].

حياته، ويحترمون سنته بعد مماته، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النُّور: ٦٣]، أي: لا تدعوه باسمه العلم، كفعل بعض الجفاة؛ بل خاطبوه باسم نبي الله ورسول الله، وهو الذي تميز به عن البشر.

وقد عمل الصحابة بذلك، فكانوا يخافتون عنده، ولا يجرؤ أحدهم علىٰ رفع صوته حوله، وكذا في مجالس العلم الذي تروىٰ فيها أحاديثه، وبذلك مدحوا وصاروا هم أتباعه حقاً، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وقد كَتَبْتُ في (الشهادتين) رسالة مطبوعة فيما يتعلق بمعناهما، و ما تستلزمه كل منهما فليرجع إليها(١).

* **أما قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله..الخ»:**

هذا مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وهذا رد علىٰ النصارىٰ الذين غلوا في عيسىٰ عندما رأوا من معجزاته أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتىٰ بإذن الله، ونحو ذلك من المعجزات، وكونه يكلم الناس في المهد، فاعتقدوا أنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

---

(١) رسالة بعنوان: (الشهادتان: معناهما وما تستلزمه كل منهما)، من تأليف فضيلة الشيخ عبد الله بن جبرين، وقد طبعت عدة مرات.

وقد كفرهم الله لذلك، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقد عظَّم الله هذا القول، وبين بشاعته، كما في قوله تعالىٰ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الآيات [مريم: ٩٠-٩٢].

وقد كثر الرد في القرآن والسنة علىٰ الذين يجعلون لله ولداً من أهل الكتاب والمشركين، وأخبر سبحانه أنه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]، وقال عن عيسىٰ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وهو إشارة إلىٰ أنه إنسان مخلوق، يحتاج إلىٰ الطعام، ثم إلىٰ التخلي، وذلك نقص يلزم منه ما ينزه عنه إلا له سبحانه وتعالىٰ.

وقد أخبر الله تعالىٰ أن عيسىٰ رسول من الله تعالىٰ، في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦]، فاعترف بأنه مرسل من ربه، وقال الله تعالىٰ: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢]؛ أي: أنه لا يأنف ولا يترفع عن العبودية لله تعالىٰ، بل قد أقر بذلك كما في قوله تعالىٰ عن عيسىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]،

وذلك أول ما تكلم به مخاطباً لقومه وهو في المهد، وحكىٰ الله عنه أنه تبرأ من ادعاء الألوهية لما قال الله له: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ . . . إلىٰ قوله: مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، ومع هذا كله فقد زين الشيطان للنصارىٰ فغلوا فيه، وادعوا أنه ابن الله، وحرفوا الإنجيل بما يوهم أن عيسىٰ ينقله عن أبيه الرب سبحانه، مما يدل علىٰ إفكهم وكذبهم.

وقد ذكر العلماء أنه لا يصح إسلام النصارىٰ حتىٰ يتبرؤا من قولهم في عيسىٰ، فيشهد أحدهم أنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، كما في هذا الحديث، أي: أنه عبد من عباد الله الذين هم ملكه وخلقه وعبيده، فهو مملوك كسائر العباد الذين هم خاضعون لله تعالىٰ، يتصرف فيهم كما يشاء، فيمرض ويصح، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع، ويعز ويبذل، ويخفض ويرفع، ويميت ويحيي، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

فعيسىٰ كغيره خاضع لربه، ذليل له، متواضع له، لا يستنكف عن العبودية له، ولا يتكبر علىٰ الله، تميز بأنه رسول من الله كسائر الرسل الذين حملهم الله شريعته، وكلفهم بالبيان والبلاغ إلىٰ أممهم، فبلغ ما أنزل إليه، ودعا بني إسرائيل إلىٰ الدين الذي جاء به، وأخبر الله عنه أنه قال: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ أي: بالمعجزات التي أجراها الله علىٰ يديه لتدل علىٰ رسالته، ولكن النصارىٰ انخدعوا بما رأوا من خوارق العادات كخلق الطير، وإحياء الموتىٰ، فادعوا أنه ابن الله، فأنكر الله قولهم، وأخبر بأنه رسول الله، وأخبر بأنه كلمة الله ألقاها إلىٰ مريم؛ أي: أنه خلقه بالكلمة التي خلق بها آدم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ

مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فعيسىٰ خلقه بهذه الكلمة.

* **وقوله: «وروح منه»:**

أي: روح من الأرواح التي خلقها، وذلك أنه أرسل الملك إليها: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩]، فنخ في جيب درعها، فوصلت النفخة إلىٰ رحمها، فخلق الله من تلك النفخة عيسىٰ عليه السلام، فهو كلمة الله؛ أي: المخلوق بكلمة الله.

قال الإمام أحمد في الرد علىٰ الجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن: الكلمة التي ألقاها إلىٰ مريم حين قال له: (كن) فكان عيسىٰ بكن، وليس عيسىٰ هو (كن)، ولكن بـ (كن) كان، فـ(كن) من الله قول، وليس (كن) مخلوقاً، وكذب النصارىٰ والجهمية علىٰ الله في أمر عيسىٰ، وذلك أن الجهمية قالت: عيسىٰ روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارىٰ: عيسىٰ روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسىٰ بالكلمة كان، وليس عيسىٰ هو الكلمة. أ. هـ.

وقال ابن كثير في التفسير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلىٰ مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسىٰ بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتىٰ ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسىٰ: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشيء عن الكلمة التي قال له كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل عليه السلام. أ. هـ.

وقال أبي بن كعب: عيسىٰ روح من الأرواح التي خلقها الله عز وجل، واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، بعثه الله إلىٰ مريم، فدخل فيها؛ أي: أن النفخة من الملك بأمر الله تعالىٰ، فإضافته إلىٰ الله تعالىٰ إضافة تشريف وتكريم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ(١): المضاف إلىٰ الله تعالىٰ إذا كان معنىٰ لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالىٰ قائماً به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عيناً قائمة بنفسها، كعيسىٰ وجبرائيل عليهما السلام، وأرواح بني آدم، امتنع أن تكون صفة لله تعالىٰ، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ وجهين:

أحدهما: أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله وأرض الله... فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت والنوق لله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه به من معنىٰ يحبه ويأمر به ويرضاه، كما خص البيت العتيق بعبادة لا تكون في غيره، وكما يقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله، وعلىٰ هذا الوجه فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، و تلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. أ. هـ.

وعلىٰ هذا فروح الله عيسىٰ إضافته تشريف وتكريم، والله أعلم.

---

(١) انظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مفصلاً في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٣/ ٢٤٨).

* وقوله: «وأن الجنة حق، والنار حق»:

أي: جزم بالجنة والنار، وأنهما مخلوقتان موجودتان، واعتقد أن الجنة دار النعيم التي أعدها الله لمن آمن به واتبع شرعه، وعبده وحده مخلصاً له الدين، وأن النار هي دار العذاب والنكال التي خلقها الله وأعدها لمن كفر به وعبد غيره، وأعلن المعصية والخروج عن شرع الله تعالىٰ.

وحمله هذا الاعتقاد علىٰ أنْ عمل الصالحات، وأكثر من القربات، ونوافل العبادات وحافظ علىٰ الفرائض والسنن التي وعد الله أهلها بالثواب الجزيل، وابتعد عن المحرمات وكبائر الذنوب التي توعد الله عليها بالنار والعذاب الأليم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ أي: هيئت وخلقت لهم، وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]؛ أي: خلقت لهم، فهما موجدتان الآن؛ خلافاً لبعض المبتدعة.

* وقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»:

وفي رواية: «أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»(١).

وهذا جواب الشرط في أول الحديث، والمعنىٰ: أن من اعتقد معنىٰ الشهادتين حقّاً، وأيقن بما ذكر عن عيسىٰ، وجزم بوجود الجنة والنار كما أخبر الله عنهما، فإنه ولابد يعمل لما بعد الموت، ويكثر من الصالحات، فيوحد ربه ويخلص له الدين، ويصد بقلبه وقالبه عن غير الله تعالىٰ، فيكون ذلك سبباً قويّاً في دخوله الجنة التي أيقن بها، وعمل لربه راجياً دخولها، والله أعلم.

(١) هذه الرواية أخرجها البخاري برقم (٣٤٣٥)، ومسلم برقم (٢٨).

■ **قوله: [«ولهما، في حدث عِتْبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»[١]]:**

هذا طرف من حديث طويل رواه البخاري ومسلم عن عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه لما زاره النبي ﷺ ليصلي في بيته، فاجتمع عنده بعض قومه، فذكروا رجلاً واتهمه بعضهم بالنفاق، فأنكر ذلك النبي ﷺ وأخبر بأنه قد قال: لا إله إلا الله.. الخ.

وقد كثرت أحاديث في أن من أتىٰ بالشهادتين حرمه الله علىٰ النار، وهذا من فضل التوحيد وفوائده؛ أي: من أتىٰ بالتوحيد وأخلص فيه لله تعالىٰ حرمه الله علىٰ النار.

ولاشك أن هذا الوعد بالنجاة من النار، وتحريمه عليها؛ إنما هو في حق من أتىٰ بالشهادتين عن معرفة ويقين، وإخلاص وصدق؛ أي: من اجتمعت فيه شروط لا إله إلا الله، وهي:

* (العلم): بمعناها، وبما تدل عليه من الإخلاص، وإفراد الله تعالىٰ بالعبادة.

* ثم (اليقين): بدون شك، أو تردد في صحة ما دلت عليه من التوحيد.

* ثم التقرب إلا الله تعالىٰ بذلك، بأن يعبد الله (**مخلصاً**) له الدين، ويتقرب إليه وحده بأنواع العبادة دون ما سواه، ويصد بقلبه وقالبه عن غير ربه تعالىٰ.

* ولابد من (الصدق) في قول الشهادتين، بخلاف من يقول بلسانه ما ليس في قلبه، كالمنافقين الذين قال الله عنهم: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٢٥، ٦٦٧، ٦٨٦، ٦٤٢٣، ٦٩٣٨). ومسلم برقم (٣٣، ٦٥٧).

[المنافقون: ١]، وأخبر بأن: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، وأنهم مستهزؤن بكلامهم مع المؤمنين.

* ثم لابد من (المحبة) لما تدل عليه كلمة الإخلاص، وهي تستلزم محبة الله تعالى، ومحبة نبيه ﷺ، ومحبة دين الإسلام، فإن من أحب الله لهج بذكره، والتذ بعبادته، وآثرها على حظوظ نفسه وشهوات بدنه.

* ثم لابد من (الانقياد) لأمر الله تعالى، وانسياق النفس إلى الطاعات، بامتثال ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

* وكذا لابد من (تقبل) كل من جاء عن الله تعالى من الأوامر بفعلها، والنواهي بتركها، وكل هذه اللوازم من آثار الإخلاص، وهو معنى قوله ﷺ في هذا الحديث: «**يبتغي بذلك وجه الله**».

وقد علم أن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، قد يدخلون النار، ويحترقون فيها، بسبب ضعف إيمانهم، ودليل ذلك ما ورد في حديث الشفاعة: «**أن الله يأمر بإخراج من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه مثقال دينار من إيمان**»، ثم: «**من في قلبه مثقال شعيرة من إيمان**»، إلى أن قال: «**من في قلبه أدنى مثقال ذرة أو خردلة من إيمان**»[1].

وذكر في الأحاديث أنهم يعرفون بآثار السجود، وأن الله حرم على النار أن تأكل آثار السجود[2]، وهو دليل على أن كثيراً ممن يقول: (لا إله إلا الله)،

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري برقم (٧٥١٠)، ومسلم برقم (١٩٣)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (١٩٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٩٥)، عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهم.

(٢) ورد ذلك في حديث الرؤية الطويل عندما سأل الصحابة رضي الله عنهم الرسول ﷺ هل نرى ربنا يوم القيامة؟
أخرجه البخاري برقم (٨٠٦) ومسلم برقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويصلون، يدخلون النار، ويبقون فيها حتىٰ يصيروا كالحمم، وما ذاك إلا لنقص التوحيد معهم، وضعف ابتغاء وجه الله بهذه الكلمة.

فلذلك يقول العلماء: إن لا إله إلا الله قد قيدت بالقيود الثقال، فإن الكثير في هذه الأزمنة يقولونها كثيراً ثم يغشون المحرمات، ويتركون الواجبات، ويقترفون كبائر الذنوب، ولا يتحاشون من فعل المعاصي، إما تقليداً ومحاكاة لجماهير الناس من حولهم، وإما انسياقاً لشهوات البطن والفرج، وإما للغفلة ونسيان الدار الآخرة، حيث غاب عن أعينهم ثم عن قلوبهم ما أخبر الله به من الوعد والوعيد، والبعث والنشور، والحساب الشديد، وما في ذلك اليوم من الهول والفزع الأكبر، وإحصاء الأعمال صغيرها وكبيرها، مع أنهم يقرؤن ويسمعون قوله الله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالىٰ عن أهل الآخرة: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧٨].

ثم يعملون الكبائر ويصرون عليها، كما هو المشاهد في أهل زماننا، حتىٰ لقد تركوا الصلوات وجاهروا بالأكل في نهار رمضان، حتىٰ بتناول المسكرات، أو فعل فاحشة الزنا وهم صيام، بل هناك من يدعو إلىٰ التحرر من التزام شعائر الدين، ويعطون أنفسهم حرية التصرف في تناول ما يشتهون، وأخذ ما طاب لهم من الدنيا، دون التقيد بالشريعة، ويدَّعون أن الدين لا دخل له في عاداتهم، ومكاسبهم ومشاربهم، ومعاملاتهم المالية، وموالاتهم ومعاداتهم، فكل ذلك

يفعلون منه ما طاب لهم، دون الرجوع إلى الأحكام السماوية فهؤلاء قد عبدوا دنياهم، واتخذ كل منهم إلاهه هواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه، وعليهم تنطبق أحاديث الوعيد، كقوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١)، وحديث: «**من غشنا فليس منا**»(٢)، وحديث: «**لا يدخل الجنة نمام**»(٣)، و «**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(٤)، ونحوها من الأحاديث الصحيحة في الوعيد على بعض المعاصي.

حيث أن الغالب عليهم التهاون والاستخفاف بالوعيد، فيكون أحدهم كالمستحل لما حرم الله، والمغير شرع الله، والمستحق بالوعيد والتهديد، فلا يدخل في أحاديث الوعد بالنجاة من النار إلا بالتوبة الصادقة، والبعد عن الذنوب، وسؤال الله عفوه ومغفرته ورحمته، ولزوم السنة، والمحافظة على الأعمال الصالحة التي هي من حق لا إله إلا الله، ومما تستدعيه من قائلها، حتى يموت عليها، فهو الذي حرمه الله على النار.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢٥٦). ومسلم برقم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (١٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و لفظه: «**من حمل علينا السلاح فليس منّا، ومن غشنا فليس منّا**».

وأخرجه مسلم برقم (١٠٢). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «أن رسول الله ﷺ مرّ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً، فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام؟**» قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني**».

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٠٥)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري برقم (٥٧٠٩). ومسلم برقم (١٠٥)-(١٦٩)، بلفظ: «**لا يدخل الجنة قتات**».

(٤) أخرجه مسلم برقم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

■ **قوله: [وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله»[1]، رواه ابن حبان، والحاكم وصححه]:**

ومطابقته للباب أن فيه من فضائل التوحيد أنه يثقل بالمخلوقات، ويرجح

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (٢٣٢٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٨٣٤، ١١٤١)، وأبو نعيم في الحيلة (٨/ ٣٢٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٠٢)، وأبو يعلى كما في المجمع (١٠/ ٨٢).

والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله وثقوا على ضعف فيهم وفيه دراج بن سمعان أبو السمح وهو ضعيف، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٠٨)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب(٣/ ٢٢٢): وقال الحاكم صحيح الإسناد. وضعف إسناده الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (٥/ ٥٤).

وقد جاء الحديث من طريق أخرى موقوفاً على كعب الأحبار، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣٠٤) رقم (٩٥١٢).

ويشهد له حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: «إن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله».

أخرجه أحمد (٢/ ١٧٠، ٢٢٥). والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) والحاكم (١/ ٤٨، ٤٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص١٠٣).

قال ابن كثير في «قصص الأنبياء» (ص٩٤): وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٢٠): ورجال أحمد ثقات، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٦٥٨٣): إسناده صحيح. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد رقم (٤٢٦)، وانظر السلسلة الصحيحة رقم (١٣٤).

وله شاهد آخر في حديث البطاقة، أخرجه أحمد ٢/ ٢١٣، ٢٢١)، والترمذي رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه رقم (٤٣٠٠)، والحاكم (١/ ٦، ٥٢٩). وابن حبان رقم (٢٢٥)، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وبمثله قال البغوي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال أحمد شاكر رقم (٦٩٩٤): إسناده صحيح.

بكل من في الأرض والسموات، وهذه فائدة عظيمة، وهي أن كلمة التوحيد ترجح بجميع الأعمال، ولكن من شرط رجحانها أن تصدر من القلب، وأن تكون عن يقين وعقيدة صادقة، ومعرفة وإخلاص، فإن قالها موقناً بها مخلصاً لله الإلهية صحيح المعرفة، أخرجت من قلبه كل ما سوىٰ الله، وعظم قدر ربه في قلبه، وهانت عليه الدنيا وأهلها، وامتلأ قلبه بتعظيم ربه، فأحبه ورجاه، وتوكل عليه واستعان به، وعبده حق العبادة، وصد بقلبه عن جميع المخلوقات، فمتىٰ ختم حياته بهذه الكلمة مع هذا الاعتقاد فإنها تمحو كل ذنب، وتزيل أثر الغفلة والسيئات، ولهذا ورد قوله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[1]؛ أي: مع التوحيد والعقيدة الصحيحة، وصدق الإيمان، ويقين المعرفة، وإن لم تكن كذلك فإنها لا ترجح بسيئاته، فإن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه، حيث لم تقع من قلبه موقعاً مؤثراً.

وقد ورد في السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قصة صاحب البطاقة التي رجحت بسيئاته، وهي تسع وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فأخرجت له بطاقة فيها الشهادتان فثقلت البطاقة، وطاشت السجلات[2]، ولا يثقل مع اسم الله شيء.

* **أما قول موسى: «يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به»**:

المراد بالذكر: كل شيء يُذَكِّرُ بالله تعالىٰ من الأقوال والأعمال الظاهرة

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣١١٦)، والحاكم في المستدرك (١ / ٣٥١). قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وحسنه الأرناؤوط في شرح السنة (٥ / ٢٩٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢ / ٢١٣). والترمذي برقم (٢٦٣٩). وابن ماجه برقم (٤٣٠٠). من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال أحمد شاكر في المسند (٦٩٩٤): إسناده صحيح.

والباطنة. وذكر الله تعالىٰ يكون بالقلب واللسان والجوارح، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وفي الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[(١)].

وموسىٰ طلب كلاماً يذكر به ربه ليحصل علىٰ ثواب الذاكرين، وأما الدعاء فهو في الأصل الطلب والسؤال، وقد يراد به دعاء العبادة.

ثم إن الله تعالىٰ أخبره وأمره بقول: لا إله إلا الله، فإنها جامعة بين الذكر والدعاء، فهي تذكر بعظمة الله وجلاله، وكبريائه وألوهيته، وما يستحق من التعظيم، وأنه هو الإله الحق لا إله إلا هو، ثم هي أيضاً دعاء لله، وطلب لثوابه، فإن الذاكر لله والموحد له يحصل له ثواب السائلين، كما ورد في الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»[(٢)]، فدل علىٰ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٥٤). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٩٢٦)، والدارمي برقم (٣٣٥٧). من حديث أبي سيعد الخدرىٰ رضي الله عنه.

قال ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٦٦): «رجاله ثقات إلا عطية العوفي، ففيه ضعف».

وأخرجه البخاري في تاريخه (١/ ٢/ ١١٥). والبيهقي في الشعب (١/ ٣٣٧). وابن شاهين في الترغيب (٢٥/ ٢). والبخاري في خلق أفعال العباد برقم (٥٤٤). وعلقة ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٦٥) عن ابن حبان، وقد أخرجه ابن حبان في الضعفاء (٢/ ٣٧٦). عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وحسنه ابن حجر في اللآلئ للسيوطي (٢/ ٣٤٢). وقد حسنه محقق كتاب خلق أفعال العباد للبخاري.

وقد أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٣٣٧) عن جابر رضي الله عنه، وأخرجه ـ أيضاً ـ أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣١٣)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

أن الانشغال بالتهليل ونحوه يقوم مقام الدعاء.

* **أما قول موسى: «يا رب كل عبادك يقولون هذا»:**

أي: أن هذه الكلمة مشهورة يذكرون الله بها، ويوحدونه بمعناها، وقد ورد في بعض روايات الحديث أن موسى قال: «يا رب إنما أريد شيئاً تخصني به»، وذلك لما له من الفضل والمكانة والرفعة، فأراد أن يقابل ذلك بزيادة الشكر لربه، ويعمل عملاً يفوق به سائر الأمة، ولكن ربه سبحانه أخبره بفضل هذه الكلمة وعظمة شأنها، وأن السموات السبع وعامرهن؛ أي: من يعمرهن، ومن فيهن من الملائكة والخلق غير الله تعالى، والأرضين السبع، جعلن في إحدى كفتي الميزان، وجعلت كلمة لا إله إلا الله في الكفة الثانية لرجحت لا إله إلا الله بهذه المخلوقات، مع عظمتها واتساعها، ولكن ذلك خاص بمن تلفظ بها عن عقيدة وإخلاص، وامتلأ بها قلبه، ودان لله بما تدل عليه.

وهذا الحديث رواه ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان (٥ / ٣) برقم (٦١٨٥) بمعناه، وفيه: «إنما أريد شيئاً تخصني به».

وكذا رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الدعاء، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وكذا رواه النسائي في عمل اليوم والليلة، والبغوي في شرح السنة وغيرهم.

■ **قوله: [وللترمذي وحسنه، عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة»**(١)]:

ودلالته على الباب في أن التوحيد يكفر الذنوب، وهذه من أجَلِّ فوائد التوحيد، حيث أخبر أن العبد لو عمل من الذنوب ما يقارب ملء الأرض، ثم خُتِمَ له بالتوحيد الخالص السالم من الشرك؛ فإن الله تعالى يغفر له تلك الذنوب، ويتلقاه برحمته.

والمراد (بقراب الأرض) هو: ملؤها أو ما يقارب ملأها.

* **وقوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً»:**

وهذا شرط في حصول المغفرة وهو الموت على التوحيد، والسلامة من الشرك صغيره وكبيره، فإن من مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار، فإن كان شركاً أكبر فهو مخلد فيها، وإن كان أصغر ومعه حسنات ماحية كثيرة فإنها

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
وأخرجه الدارمي برقم (٢٧٨٨) وأحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٤، ١٧٢)، وابن ماجه برقم (٣٨٢١)، عن أبي ذر رضي الله عنه.
قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (٣٨١): إسناده لا بأس به، وسعيد بن عبيد هو الهنائي، قال أبو حاتم: شيخ، وذكره ابن حبان في الثقات، ومن زعم أنه غير الهنائي فقد وهم. أ.هـ.
وأخرجه الطبراني في الكبير برقم (١٢٣٤٦) وفي الصغير برقم (٨٢٠) وفي الأوسط برقم (٤٦٢) عن ابن عباس.
قال الهيثمي (١٠/ ٢١٥): وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيني وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح. أ.هـ
والحاصل أن الحديث حسن بتمامه كما قال السخاوي في تخريج الأربعين كما في الفتوحات (٧/ ٢٨٣). وحسنه ابن حجر في الفتوحات ـ أيضاً ـ.

تخففه، فلا يخلد في النار إن دخلها، فلا بد في حصول المغفرة من السلامة من نوعي الشرك، وذلك شرط ثقيل، لا يحصل إلا لمن أخلص وجهه لله، وعبده وحده، ولم يشرك به شيئاً، ومات على هذا التوحيد، فإن الله تعالى يغفر له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر، و يوفقه للحسنات، وعمل الصالحات، وهو دليل على أن التوحيد الخالص يكفر جميع الذنوب، ولاينافيه الإشراك الذي يحبط الأعمال.

وفي هذه الأحاديث:

* **الرد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ويخرجون المسلم بها من الإيمان، ولو كان موحداً.**

* **والرد على المعتزلة الذين يخلدون العصاة في النار كالخوارج، إلا أنهم يجعلونه في الدنيا في منزلة بين الكفر والإيمان.**

والصواب: قول أهل السنة، وهو عدم التكفير بالذنوب، ولو بلغت عنان السماء، وأنها تحت المشيئة، فإن شاء الله غفرها، وإن شاء عذب بها، ثم مآل الموحدين إلى الجنة، والله أعلم.

■■■■■

[٢]

باب:
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إِني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت. قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيتُ، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشَّعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحُصَيْب أنه قال: «لا رقية إلا من عينٍ أوحُمَة»، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه امتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدُوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة».

*** فيه مسائل:**

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم، بكونه لم يك من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخمسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشر: عرض الأمم عليه عليه الصلاة والسلام.

الثانية عشر: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشر: أن من لم يحبه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشر: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف، لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا»، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «**أنت منهم**»، علَمٌ من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية عشرة: استعمال المعاريض.

الثانية عشرة: حسن خلقه ﷺ.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

هذا الباب متصل بالذي قبله، وفيه فضل التوحيد.

وقد تقدم من فضل التوحيد أنه سبب في دخول الجنة، والتحريم على النّار، وأنه يثقل بالأعمال، ويرجح بها، وأنه يكفر الخطايا، وأنه سبب للأمن التام، والاهتداء التام؛ إذا كان توحيداً تامّاً.

وفي هذا الباب أنه يسبب دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهذه الفضيلة لا تتأتى إلا لمن حقق التوحيد تحقيقاً كاملاً.

ولكن ما معنى تحقيق التوحيد؟!

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله في فتح المجيد: «تحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك، والبدع والمعاصي»[1]؛ أي: إبعاده عن الشوائب، والشوائب هي: الأخلاط التي تمازجه فتغيرّ صفوه؛ لذا يجب تصفيته من تلك الأخلاط؛ لأن الشرك ينافي التوحيد فهو ضده؛ ولأن البدع تقدح في التوحيد؛ فلا يصبح كاملاً، وهكذا المعاصي بأنواعها تنقص ثواب التوحيد.

* **فمن تحقيق التوحيد:**

١ـ إجتناب الشرك صغيره وكبيره.

٢ـ اجتناب البدع والمحدثات في الدين.

٣ـ اجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها.

---

(١) انظر فتح المجيد (١/ ١٥٥)، تحقيق الوليد بن فريان.

فبذلك يكون محققاً للتوحيد.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين وحديثاً:

■ **الآية الأولى قوله: [قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل: ١٢٠]]:

ثم قال تعالى مكملاً الآيات: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وصف الله إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات بخمس صفات تدل على تحقيقه التوحيد، ثم ذكر ثوابه وجزاءه عليها بخمسة أشياء؛ تدل على أنه من السابقين إلى الجنة، بغير حساب ولا عذاب.

والصفات التي تحققت في إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي من كمال التوحيد هي:

*** الصفة الأولى:**

أنه **﴿كَانَ أُمَّةً﴾**؛ أي: قدوة في الدين، فكانت أفعاله حسنة يُهتدى به فيها، قال تعالى: **﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾** [البقرة: ١٢٤]؛ أي: قدوة وأسوة.

*** الصفة الثانية:**

أنه كان: **﴿قَانِتًا﴾**، والقانت هو: الخاشع الذليل المطيع طاعة مستمرة، والقنوت: دوام الطاعة، قال تعالى: **﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾** [البقرة: ٢٣٨]؛ أي: خاشعين مطيعين، وقال تعالى: **﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾** [الزمر: ٩]، وقال

تعالىٰ: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فالقانت هو: المستمر في العبادة والخشوع لله تعالىٰ، ثم قال: ﴿لِلَّهِ﴾، أي: أنه ليس قانتاً لملك ولا لسلطان ولا لتاجر ولا لأحد من دون الله، بل إنه قانت لله وحده.

*** الصفة الثالثة:**

أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾، وأصل الحَنَفْ: الميل، ومنه الأحنف الذي في إحدىٰ رجليه ميل أو في كلتا رجليه ميل. وفي تفسير الحنيف قولان:

القول الأول: الحنيف: هو المقبل علىٰ الله، المائل عما سواه.

القول الثاني: الحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً إلىٰ التوحيد.

وكلاهما صحيح، فهما تعريفان متلازمان.

فالحنيف هو: المائل عما عليه أكثر الناس من الانحراف؛ لأن الغالب علىٰ الناس هو الانحراف، والمستقيمون قليل، فهو مائل عن الأنداد، وعن الأضداد، وعن الشواغل ونحوها.

وقد أمر الله تعالىٰ بذلك، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وسمىٰ إبراهيم عليه السلام حنيفاً؛ لأنه مال عن طريقة قومه.

*** الصفة الرابعة:**

أنه: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: ليس منهم لا بالأقوال ولا بالأفعال، بخلاف من كثّر سوادهم وزعم أنه مسلم؛ بل هاجر عليه السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وخالف ما كان عليه قومه، فمال عن الشرك؛ فدلّ علىٰ أنه حقق التوحيد.

* الصفة الخامسة:

أنه: ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾؛ أي: معترفاً بالنعم التي أنعم الله بها عليه ومِنْ ثم شكرها.

والشكر: هو الاعتراف بالنعم والحرص على استعمالها في طاعة الله.

وهذه الصفات الخمس من تأملها يجد فيها تحقيق التوحيد، ولو لم يكن إلا قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فكل ذلك فيه تحقيق التوحيد.

*** وأما الثواب والجزاء لمن حقق هذه الصفات الخمس فيكون بخمسة أشياء:**

الأول: قوله: ﴿اجْتَبَاهُ﴾، أي: اصطفاه واختاره، وهذه منّة من الله عليه.

الثاني: ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، والهداية: بيان الحق والتوفيق لسلوكه.

الثالث: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: أن الله أنعم عليه في الدنيا وأعطاه من الولد والمال ونحوه.

الرابع: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهذا ثواب عظيم يقتضي سبقه إلى الجنة ودخوله بغير حساب.

الخامس: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، فقد جعل الله له ذكراً حسناً واستجاب لقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فمن ثوابه أن الله أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقتدي به باتباع ملته.

■ **الآية الثانية: قوله: [وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾** [المؤمنون: ٥٩]]:

في هذه الآية بيان أن من صفات المؤمنين أنهم يتجنبون الشرك بجميع أنواعه، وقد قال تعالى قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ

هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وهذه الآيات في جملتها فيها تحقيق التوحيد:

* فقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾؛ الخشية هي: شدة الخوف، والشفقة: الخوف، والمعنىٰ أنهم خائفون من الله، وذلك تحقيق للتوحيد.

* وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: صدّقوا بآيات ربهم فهم محققون للتوحيد.

* وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: يتجنبون الشرك بجميع أنواعه.

* وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾؛ أي: يتقربون بما تقربوا به من العبادات.

* وقوله: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: خائفه.

* وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ فهم: يخشون ألا تقبل منهم أعمالهم.

هكذا فسر النبي ﷺ هذه الآية، كما في حديث عائشة رضي الله عنها[1].

---

(١) يشير الشيخ إلىٰ حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات».

أخرجه الترمذي برقم (٣١٧٥)، وابن ماجه برقم (٤١٩٨)، وأحمد في المسند (٦ / ١٥٩، ٢٠٥)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٤٨). وصححه الألباني في السلسلة رقم (١٦٢)، وانظر المشكاة رقم (٥٣٥٠)، والطحاوية رقم (٣٨٢)، والإيمان ص (٤٢٨).

فمن كانت هذه صفاتهم كان ثوابهم: ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾؛ فدل على أن من ثوابهم الإسراع في الخيرات، ومن الخيرات الجنة، وأنهم يسبقون إليها؛ أي: يدخلونها بغير حساب ولا عذاب، كما حكى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ذلك.

■ **أما الحديث: قوله: [عن حُصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إِني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغت. قال: فماذا صنعت؟ قلت: ارتقيتُ، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشَّعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحُصَيْب أنه قال: «لا رقيـة إلا من عينٍ أو حُمَة»(١)، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدُوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة»(٢)]:**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، والترمذي برقم (٢٠٥٧)، وأبو داود برقم (٣٨٨٤)، عن عمران بن حصين.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٧١٠)، وابن ماجة برقم (٣٥١٣) عن حصين بن عبدالرحمن.
قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات، وقال أحمد في تحقيق المسند (٢٤٤٨): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٧٠٥، ٥٧٥٢) مطولاً، وبرقم (٣٤١٠، ٦٤٧٤، ٦٥٤١) مختصراً، ومسلم برقم (٢٢٠).

في هذا الحديث فوائد وفضائل كثيرة، وأهم هذه الفضائل أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قال حصين بن عبد الرحمن في هذا الحديث: كنت جالساً عند سعيد بن جبير العالم المشهور، التابعي، فقال سعيد بن جبير: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة[1]، أي: الذي رُمي تلك الليلة التي هم في صباحها؟ والكوكب هو واحد الكواكب، وهي النجوم.

والغالب أنه لا يكون في ذلك الوقت أحد منتبه إلا إنسان يتهجد، فقال الراوي حصين: أنا قد رأيته؛ ولكنه خاف علىٰ نفسه أن يتوهم الناس أنه كان يصلي، فكأنه يرائي بأعماله فيحبط عمله، فقال: لا تعتقدوا أني كنت أصلي في ذلك الوقت، فما أنا من أهل هذا الفعل، إنما قمت في ذلك الوقت؛ لأنني لدغت فكنت أعالجه، واللدغ هو: اللسع من ذوات السموم، إما حيّة أو عقرب.

فسأله سعيد بن جبير: فماذا صنعت؟ أي: بماذا عالجتها؟ فقال: ارتقيت: أي: طلبت من يرقيني فيقرأ علىٰ اللسعة؛ لأنني لست مِمّنْ يقرأ عليها، وهذه القراءة تسمىٰ الرقية. يعني: عالجتها بالرقية.

فسأله سعيد عن الدليل، فقال: فما حملك علىٰ ذلك؟

فقال حصين: حديث حدثناه الشعبي.

فقال سعيد: وما حدثكم؟

قال حصين: حدثنا عن بريدة بن الحصيب، أنه قال: **«لا رقية إلا من عين أو حمة»**.

عندها قال سعيد، فذكر الحديث..... إلخ.

---

(١) قال الشيخ ابن جبرين: قوله: البارحة: هي أقرب ليلة ماضية، يقولون: البارحة إذا كان آخر النهار بعد الزوال. أما إذا كان قبل الزول فيسمونها الليلة لقربها.

وقوله: «لا رقية إلا من عينٍ أو حُمَة».

المعنىٰ: أنفع ما تكون الرقية إذا كانت رقية من عين أو حمة، فأما غيرها فالرقية جائزة ونافعة؛ ولكن لا تؤثر كما تؤثر في العين والحمة.

وقد ثبت جواز الرقية في غير العين والحمة، وثبت أن النبي ﷺ رقىٰ رجلاً مصروعاً[1]، وهو الذي يصيبه الصرع: أي: الجنون؛ فتجوز الرقية من الأمراض كلها، لكن أنفع ما تكون من العين؛ أي: النظرة، والحمّة، أي: اللسعة.

وكان العرب قبل الإسلام يستعملون الرقىٰ، وقد ذُكرت في قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٦،٢٧]؛ أي: هل من راقٍ يرقي هذا المريض؟

وقد أقرها الإسلام، فقال النبي ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»[2]، فيجوز للإنسان أن يستعمل الرقية.

والرقية هي: النفث بقليل من الريق مع قراءة الكلمات التي يُرقىٰ بها.

فإن كانت هذه الكلمات من كلام الله، أو من كلام النبي ﷺ، أو من الأدعية الفاضلة ونحوها، ولم يكن فيها شرك، ولا دعاء لغير الله، ولا كلام أعجمي لا

---

(١) جاء في ذلك عدة أحاديث: منها: ما أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٤٤٥)، والطبراني في الكبير (٥/ ٢٧٥) رقم (٥٣١٤).
وقد حسن جمع من المحققين هذه الرواية.
ومنها: ما أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٧٠) وغيره، وقد جوّدها الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٨٥).
ومنها: ما أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٧١، ١٧٢) وغيره، قال الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٤٨٥): وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات.
ومن أراد الاستزادة في هذا الموضوع فليرجع إلىٰ كتاب (فتح المنان في جمع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن الجان)، ص: ٤٠٤ ـ ٤١٤. والكتاب مفيد جداً في بابه حيث جمع فيه كل ما قاله شيخ الإسلام عن الجان.
وكذلك يستحسن الرجوع إلىٰ السلسلة الصحيحة للألباني رقم (٤٨٥).

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٠).

يعرف معناه؛ فلا بأس بها، وإلا طرحت.

وقد تُحرَّم إذا كان فيها شرك، وسوف يأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله.

ثم إن سعيد بن جبير قال لحصين: ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: . . . ثم ذكر له الحديث.

ومعنىٰ كلام سعيد: أن فعلك يا حصين جائز، ولكن هناك مرتبة أفضل منها، وهي: ترك الاسترقاء توكلاً علىٰ الله، والدليل علىٰ ذلك: ما حدثنا به ابن عباس؛ هكذا تقدّر الجملة.

فالأفضل من الاسترقاء ـ وإن كان جائزاً ـ الترك توكلاً علىٰ الله، كفعل هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم قال: قال ﷺ: «عرضت علي الأمم»:

والأمم: جمع أمة، وهي: الجماعة، أو الفئام من الناس، والمراد هنا: أتباع الأنبياء. وقد قيل: إن عرض الأمم عليه كان ليلة الإسراء، وقيل: إن ذلك كان مناماً؛ أي: رؤيا، ،ورؤيا الأنبياء وحيٌ محقق، لذلك صدق أن هذا فعل وحقيقة.

ثم قال: «فرأيت النبي ﷺ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»:

الرهط: هم الجماعة دون العشرة، ولفظه عند مسلم: «الرهيط».

أي: لما عرضت عليه الأمم رأىٰ تفاوت أتباعهم:

فمنهم: من صدقته أمته كلها.

ومنهم: من صدقه جماعة قليلون: عشرة، أو أقل.

ومنهم: من صدقه رجلان.

ومنهم: من لم يصدقه إلا واحد.

ومنهم: من كذبوه كلهم، ولم يصدقه منهم أحد.

والأنبياء كثير، قال تعالىٰ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. فهناك أنبياء لم يتبعهم أحد، ودليل ذلك هذا الحديث.

ثم قال: «إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه»:

يعني: رفع نظري إليه فرأيته، والسواد: أصله الظلمة، وأطلق عليهم سواداً لبعدهم؛ كأنه لا يميز هذا عن هذا، والعظيم: الكثير؛ أي: خلقاً كثيراً لا يُرىٰ إلا سوادهم لبعدهم وكثرتهم، فظن أنهم أمته؛ أي: أمة الإجابة؛ لأنه قد أطلع علىٰ أن أمته أكثر الأمم، وأنه أكثر الأنبياء أتباعاً.

ثم أخبر بأن ذلك السواد هم أتباع موسىٰ عليه السلام؛ لأن موسىٰ آمن به خلق كثير في زمنه، وما بعده، فتمسكوا بطريقته وبكتابه وبشريعته إلىٰ عهد النبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ...﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩].

ثم قال: «فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة»:

وفي رواية: «قد سدَ الأفق..»؛ أي: قد سدوا إحدىٰ الجهات لكثرتهم، ثم أُخبر أنهم أمته وأتباعه، وأن فيهم صفوة وأخيار يقدرون بسبعين ألفاً يدخلون الجنة لأول وهلة بلا حساب ولاعذاب.

وقد اختلف العلماء في هذا العدد؛ وسبب الخلاف أن المتصفين بهذه الصفات من الأمة قد يفوقون هذا العدد بكثير.

فقال بعضهم: إن المراد بذكر السبعين ألفاً: المبالغة؛ أي: عدد كثير، والعرب تذكر السبعة، و السبعين، والسبعمائة، والسبعة آلاف، والسبعين ألفاً، لقصد التكثير، لا إرادة ذات العدد.

وقال آخرون: إن المراد التحديد؛ أي: إنهم سبعون ألفاً فقط؛ وذلك لأن هذا الوصف قلّ مَنْ يتخلق به، فالاعتماد التام على الله يقل وجوده في الخلق؛ فلذلك لا يزيدون في أول الأمة حتى آخرها عن السبعين ألفاً.

لكن ورد في بعض الروايات، أنه ﷺ قال: «**فاستزدت ربي، فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً**»، وعلى هذا يكون القصد الحصر، وأن العدد يبلغ سبعين ألفاً مكررة سبعين مرة، وهذه بشارة للأمة، وهي أن عدداً كثيراً منها من أهل هذا الوصف.

ثم قال: «بغير حساب ولا عذاب»:

المراد بالحساب: المناقشة على الدقيق والجليل؛ أي: لماذا فعلت كذا وكذا؟

والمراد بالعذاب: حصول الألم في الموقف، فإن الموقف فيه ألم شديد، قلّ من ينجو منه، ومن هذه القلة هؤلاء السبعون ألفاً، فلا يناقشون حساباً، ولا ينالهم عذاب.

ثم قال سعيد رضي الله عنه: «ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء»:

أي: قام ودخل منزله، ثم خاض الناس، أي: بحثوا في أولئك، أي: السبعين ألفاً، وذكروا بعض الأمور التي توقعوا أن تكون سبباً لدخولهم الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فمنهم من قال: لعلهم الذين صحبوا الرسول ﷺ؛ فإنهم قد حظوا بهذه الصحبة.

ومنهم من قال: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً؛ بمعنى أننا ولدنا في الكفر، أما أولادنا ومن بعدهم فقد ولدوا في الإسلام، ولم يشركوا

بالله شيئاً، فهم أقرب أن يكونوا هم المراد، وذلك تواضعاً منهم رضي الله عنهم.

وفي روايات أخرى:

منهم من قال: لعلهم أهل التهجد.

ومنهم من قال: لعلهم أهل الهجرة.

ومنهم من قال: لعلهم المجاهدون.

ثم قال: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه»:

أي: أثناء ذلك النقاش خرج عليهم النبي ﷺ فسألوه، فأخبرهم بوصف هؤلاء القوم، فقال: **«هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون،وعلى ربهم يتوكلون»**.

أي: إنهم يعتمدون على الله فيما أصابهم، ويتركون هذه العلاجات التي قد تكون مباحة، ويرضون بما أصابهم من الله.

فترك الكي وترك الرقية أتم توكلاً؛ لأن المتوكل على الله المفوض الأمر إليه هو الذي يقول: لا يصيبني إلا ما قدّر لي، فلا أتعالج، ولا أكتوي، ولا أسترقي؛ أي: لا أطلب من يرقيني؛ بل الذي أنزل الداء هو الذي يرفعه إذا شاء.

والاسترقاء هو: طلب الرقية، أي: طلب من يرقي.

والكي هو: اللذعة بالنار ونحوها، وهو مكروه، وقد ورد ما يدل على كراهيته(١)، مع أنه جائز، والدليل على جوازه: أن النبي ﷺ قطع عرقاً من أبي بن كعب وكواه(٢)؛ وكذلك يدل عليه أنه أخبر أن شفاء أمته في ثلاث، وعدّ منها

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري برقم (٥٦٨٣)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(الكي)[١].

والتطير هو: التشاؤم بالطيور، بأصواتها أو بمرورها، والطيرة شرك، لقوله ﷺ: «الطيرة شرك»[٢]، ولكنها من الشرك الأصغر.

والتوكل هو: تفويض الأمور إلى الله والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيباً ووكيلاً.

ثم قال: «فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: يا رسول الله! ادْعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر، فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكَّاشة»:

ولعل سبب رد الآخر أنه لم يكن معه من الإيمان ما مع عكاشة، أو مخافة أن يتتابع أهل المجلس فيسألها من ليس من أهلها.

وفي هذا الحديث فضيلة عكاشة، وأنه من هؤلاء السبعين، وأما هذه الأمور التي ذكرت في الحديث: **«لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**؛ فهي التي جعلت هؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهي حقيقة التوحيد؛ أي: من أتى بها من الناس فقد حقق التوحيد.

فهذا هو مطابقة الحديث للترجمة، ففيه فضيلة من فضائل تحقيق التوحيد، وهي دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٦٨٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري برقم (٥٦٨٣)، من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٩١٠)، والترمذي برقم (١٦١٤).
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الأرناؤوط في شرح السنة (١٢/ ١٧٨).

[٣]

باب:
الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر»، فسُئل عنه؟ فقال: «الرياء».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»، رواه البخاري.

ولمسلم، عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

العاشرة: فيه تفسير: (لا إله إلا الله)، كما ذكره البخاري.

الحادية عشر: فضيلة من سلم من الشرك.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
الخوف من الشرك

هذا الباب في الخوف من الشرك ؛ وذلك لأن الواجب على الإنسان أن يكون خائفاً مشفقاً من أن يقع في الشرك، وهو لا يشعر، وذلك لأمور :

أولاً : أن الشرك أعظم الذنوب، وأنه لا يغفر إلا بالتوبة، فإذا مات عليه صاحبه دخل النار .

ثانياً : أن الشرك قد خافه الرسل على أنفسهم، وخافه الأنبياء على أممهم ؛ فها هو إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ عليه السلام يخاف من الشرك على نفسه وعلى بنيه، فيدعو الله أن يجنبه إياه[١] فاستجاب الله له، وقد قال إبراهيم التيمي[٢] : (من يأمن البلاء بعد إبراهيم) .

ثالثاً : أن الشرك يقع كثيراً ويحدث من أناس قد لا يظنون أنه شرك، ولا يعتقدونه ؛ فيعتقد الواحد منهم أنه لا يصل إلى الشرك، وهو في نفس الأمر مشرك، ويستعظمون الكبائر والذنوب فينكرونها، ويقعون في الشرك ولا ينكرونه .

وقد اهتم المؤلف الكتاب رحمه الله بأنواع الشرك، ودقق في تتبعها ولم يترك خصلة تكون من أنواع الشرك إلا أتى عليها، وطفق يعلم تلامذته أنواع الشرك،

---

(١) في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم : ٣٥، ٣٦] .

(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٤٦) .

ويعلمهم التوحيد، وما يخل بالتوحيد.

وذكر بعض المؤرخين: أن تلامذته لما طال عليهم الوقت في تعلم التوحيد، قال بعضهم: التوحيد فهمناه، يقولونه للشيخ محمد بن عبد الوهاب، فعند ذلك أراد أن يمتحنهم، فقال ذات يوم: سمعنا أن بنتاً لآل فلان وقعت في جريمة الزنا، فاستعظموا ذلك، واستكبروه، قالوا: كيف تفعل هذه الجريمة البشعة؟ التي هي كذا وكذا، وفيها وفيها، ولكن بعد يوم أو يومين قال الشيخ محمد لتلامذته: تحققنا أن الأمر أسهل، لم يقع منهم شيء ولم تقع البنت في جريمة الزنا، ثم قال: إنهم قد عملوا لها عملاً من السحر وألقوه عليها رجاء أن تشفى، وهذا الأمر أسهل، فعند ذلك هان عليهم، وقالوا: صدقت هذا أسهل من جريمة الزنا، فعند ذلك قال: عرفت أنكم ما فهمتم التوحيد، كيف يكون الشرك أسهل عليكم من الزنا؟!! هذا شرك، وهذه معصية، فلما كان الشرك يقع فيه الكثير من الناس، ولا يعتقدون أنه شرك، كان من المهم أن نبحث فيه، ونعرف دقائقه ونخاف منه.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتان وثلاثة أحاديث:

■ **الآية الأولى: قوله: [وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:١١٦]]:**

وهذه أشد آية في الشرك، ويعم الشرك الأصغر والأكبر.

وقد ذكر العلماء أن الشرك قسمان: أصغر وأكبر، وكلاهما لا يغفر إلا بالتوبة، فإذا مات إنسان وهو مصر على الشرك الأكبر، فهو مخلد في النار، وإذا مات وهو يفعل الشرك الأصغر، فإنه ولا بد سيدخل النار، ولكن يعذب فيها بقدر شركه ما دام معه أصل الإسلام، وأصل العقيدة والأعمال؛ فلا يغفر له

شركه، لكن لا يصل به الحد إلى الخلود في النار، فإذا وقع في رياء يسير مثلاً أو تطير أو حلف بغير الله، أو ما أشبه ذلك؛ فهذا ذنب لا يُغفر فلابد من دخول النار لتمحيص صاحبه، وتطهيره، ثم يخرج بعد التمحيص والتطهير، فالشرك أعظم الذنوب.

■ **الآية الثانية**: قوله: [**وقال الخليل عليه السلام**: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥]]:

عبادة الأصنام رأس الشرك، وقد ذكر الله عن إبراهيم أنه كسّر أصنام قومه: فقال تعالى: ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا**﴾ [الأنبياء: ٥٨]، بعد قوله: ﴿**وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥٧]. وقال: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾ [الصافات: ٩٣]، أي: كسّر أصنامهم، ومع ذلك تعوذ بالله من عبادتها، ولهذا قال: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: ٣٥]؛ فإذا كان إبرهيم يخاف على نفسه أن يعبد الأصنام مع كونه يحطمها، فكيف بغيره؟!

ولهذا قال بعض العلماء[١]: (ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم)؛ فمن يأمن الوقوع في الشرك ما دام إبراهيم يخاف على نفسه!

كذلك ذكر الله أن الشرك يحرم على صاحبه الجنة، ولابد له من النار، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ**﴾ [المائدة: ٧٢]، والمراد هنا: الشرك الأكبر وهو الذي حرّم على صاحبه الجنة.

---

(١) تقدم أنه إبراهيم التيمي.

وأما الأحاديث:

■ **الحديث الأول:** قوله: [وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر»، فسُئل عنه؟ فقال: «الرياء»[1]]:

يعني: أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يخف على أصحابه من عبادة الأصنام، لأنه ما مات إلا وقد فقهوا، لكن خاف عليهم أشياء من الشرك الأصغر، يقع فيها الإنسان استحساناً، فقال: «أخوف مما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه فقال: «الرياء»، ففسره بأنه: الرياء[2].

ثم قال في تمام الحديث: «يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه»، يعني: أن من الشرك أن يزيد في صلاته للناس، فإذا صلى في الخلوة كانت صلاته خفيفة لا يطمئن فيها، أو لا يسبح إلا واحدة، ولكن إذا كان أمام الناس اطمأن فيها، وزاد في هيئاتها، فكأنه ما صلّى إلا للناس، فهذه الزيادة تحبط عمله؛ وتُبطل صلاته؛ لأنها لغير الله.

كذلك إذا كان في الخفاء وفي الخلوة لا يتصدق، أو إذا تصدق مثلاً تصدق بدرهم، لكن أمام الناس يتصدق بأكثر من ذلك من أجل نظر الناس إليه، والله تعالى قد ذمّ ذلك، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والطبراني في الكبير برقم (٤٣٠١) وأورده البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٣)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٢)، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن شبيب بن خالد وهو ثقة. وحسن الحافظ إسناده كما في بلوغ المرام (٣٠٢)، وقال المنذري في الترغيب (١/ ٦٩): إسناده جيد. وقال الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (١٤/ ٣٢٤): إسناده قوي.

(٢) وسيأتينا هذا الحديث إن شاء الله، حيث عقد المؤلف رحمه الله في هذا الكتاب باباً في الرياء وذكر فيه هذا الحديث.

فبهذا نعرف أن الرياء في الأعمال يعتبر محبطاً لها، وسمّاه النبي عليه الصلاة والسلام شركاً أصغر، وخافه على أمته.

وكذلك ذكر ابن عباس[(١)]: أن الشرك موجود في هذه الأمة، ولكنه خفي، لا يعرفه كل أحد، ولا يتفطن له كل أحد، فقد قال في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، قال: «الأنداد: هو الشرك، أخفى في هذه الأمة من دبيب النمل، على صفاة سوداء، في ظلمة الليل»[(٢)].

فكما أن النملة تختفي في الظلمة، ولا أحد يتفطن لها، فكذلك الشرك يقع في الأمة، ولا يتقطن له أحد، إلا كما يُتفطن للنملة التي تمشي على صخرة سوداء في ظلمة الليل.

ثم ذكر لهذا الشرك أمثلة، وأكثرها أقوال، قال: أن تقول: «والله وحياتك يا فلان، وحياتي»؛ أي: الحلف بغير الله، كالحلف بالحياة ونحو ذلك.

كذلك قول الرجل: «ما شاء الله وشئت»، وقوله: «لولا الكلب لأتانا اللصوص»، «ولولا البط في الدار لأتى اللصوص».

وكذلك قول بعضهم: «لولا فلان لحصل علينا حادث»، أو «لولا فلان لقتلنا العدو»، أو «لولا السلاح الذي معنا لهلكنا»، أو ما أشبه ذلك، ومثل هذه الأقوال تقع كثيراً، فيكون في ذلك قد اعتمد على السبب ونسي الرب تعالى، وفي مثل هذا يجب أن يأتي بـ«ثم»، فيقول: لولا الله ثم فلان... إلخ.

وما ذُكر في هذه الأحاديث يدل على عظيم خطر الشرك، فمن ذلك: أن النبي ﷺ خافه على أصحابه؛ فالخوف على غيرهم بطريق الأولى.

---

(١) سيأتينا إن شاء الله هذا الأثر في هذا الباب.

(٢) أورده ابن كثير في «تفسيره» (١ / ٥٧) عند تفسير هذه الآية وعزاه لابن أبي حاتم.

■ **الحديث الثاني: قوله: [وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»، رواه البخاري**(١)]:

■ **الحديث الثالث: قوله: [ولمسلم عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»**(٢)]:

في هذين الحديثين إخبار من النبي ﷺ بعقوبة من مات وهو مشرك.

والفرق بين حديث ابن مسعود، وحديث جابر: أن حديث ابن مسعود في الموت على الشرك: «**من مات**»، وحديث جابر في البعث عليه: «**من لقي الله**»، لكن معلوم أن من مات على الشرك لقي الله بالشرك.

وقد يطلق على من لقي الله: أنه مات، و يقال: فلان لقي ربه؛ أو قدم على ربه، أي: مات، فقوله: «**من مات**»؛ أي: من لقي الله، وكلاهما متقارب.

فالحاصل أنه قال في حديث ابن مسعود: «**يدعو من دون الله نداً**»، وقال في حديث جابر: «**يشرك بالله شيئاً**»، فدل على أن الند هو: الشرك، وأن من دعا الله نداً فقد أشرك، وأن من مات على ذلك فإنه واقع تحت الوعيد، ويكون حديث جابر مفسراً لحديث ابن مسعود، وهذا هو الشرك الأكبر الذي ذكره ابن القيم بقوله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر
ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أياً
كان من حجر ومن إنسان

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وأخرجه مسلم برقم (٩٢)، بغير هذا اللفظ.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٣).

يدعـــوه، أو يرجـــوه، ثـم يخـــافـــه

ويحـــبـــه كـــمـــحـــبـــة الديّان

فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه إن مات عليه؛ وهو أن يجعل المرء لله نداً وهو الذي خلقه.

وفي حديث جابر بشارة عظيمة وهي: أن من مات لا يشرك بالله شيئاً؛ أي: سالماً من الشرك دقيقة وجليلة؛ فإنه يكون من أهل الجنة.

لكن معلوم أن من حقق التوحيد، وعبد الله وحده، وسلم من دقيق الشرك وجليله، يصير مسرعاً إلى امتثال الواجبات، ومبتعداً عن اقتراف المحرمات؛ لأن ذلك من تمام تحقيق التوحيد.

■ ■ ■ ■ ■

[٤]

باب:
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، ـ وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله ـ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه.

ولهما، عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه». فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «انفذ على رسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمر النعم». يدوكون؛ أي: يخوضون.

■ فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة.

الخامسة: أن من قُبح الشرك كونه مسبة الله.

السادسة: وهي من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى: «أن يوحدوا الله»، معنى شهادة: أن لا إله إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرىٰ علىٰ سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية..» إلخ، علم من أعلام النبوة.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها ايضا.

الحادية والعشرون: فضيلة عليّ رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسْع لها ومنعها عمن سعىٰ.

الرابعة عشرة: الأدب في قوله: «علىٰ رسلك».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدىٰ علىٰ يديه رجل واحد.

الثلاثون: الحلف علىٰ الفتيا.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

هذا الباب يراد به: دعوة الناس إلى التوحيد؛ لأن الله بعث الرسل إلى أقوامهم يدعونهم إلى التوحيد، والرسل بَعثوا أفراداً من أمتهم يدعون الناس إلى طاعة الله، وإفراده بالعبادة، وتوحيده سبحانه، ولا شك أنهم يدعون الناس إلى الدين كله؛ ولكن يقدمون التوحيد قبل كل شيء؛ لأن التوحيد شرط لصحة الأعمال.

فالذي يتعبد ويتقرب إلى الله قبل أن يحقق التوحيد لا يقبل الله منه عباداته، فلأجل ذلك يبدأ الرسل دعوتهم بالتوحيد، فكل رسول بدأ دعوته بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. والبدء بالدعوة إلى التوحيد دليل على أهميته.

ويعبر عن التوحيد بالشهادتين، وتطلق شهادة أن لا إله إلا الله، ويكتفى بها عن الشهادة الأخرى: (أشهد أن محمداً رسول الله).

فإذا قيل: فلان يشهد أن لا إله إلا الله، فالمراد: أنه يشهد الشهادتين، وإذا قيل: باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فالمراد مع شهادة أن محمداً رسول الله، وإذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله**»(١)، فالمراد: مع الشهادة الأخرى؛ أي: مع شهادة أن محمداً رسول الله، وهكذا يعبر بلا إله إلا الله عن التوحيد، وقد يعبر بها عن الدين كله؛ لأن الدين أساسه

---

(١) أخرج أبو داود برقم (٣١١٦)، والحاكم في المستدرك (١ / ٣٥١). قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

التوحيد، وعبادة الله وحده والإيمان به، ولكن البدء بها دليل على أهميتها.

والدعاء إليها وظيفة الرسل، ووظيفة أتباع الرسل، فالكل مأمورون بأن يدعوا إلى الله؛ والدعاء إلى الله هو الدعاء إلى عبادة الله.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]]:

أي: ادعو إلى توحيد الله، وأدعو إلى معرفة الله، وأدعو إلى عبادة الله، فأطلق: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: إلى ما أمر الله به، وما فرضه، وما يحبه من عبادة خالصة.

وقد تطلق الدعوة وتعم، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]؛ أي: إلى التوحيد، وإلى الدين، وإلى الإسلام، فأطلق عليه الدعوة إلى الخير.

ولكن كثيراً ما يعبر عنها بالدعوة إلى الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]؛ أي: إلى توحيد الله.

وقد تطلق الدعوة إلى التوحيد، ويعبر عنها بالسبيل، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ أي: إلى ربك، وإلى معرفته، وإلى عبادته، وإلى توحيده.

فالدعوة إلى الله، والدعوة إلى الخير، والدعوة إلى سبيل الله بمعنى واحد، وهي الدعوة إلى التوحيد.

ومن شروط الداعي إلى الله أن تكون دعوته على بصيرة؛ لأن الرسل لم يدع إلا وهو على بصيرة، ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والبصيرة هي: النور والعلم، فلا يدعو وهو جاهل، ولا يدعو وهو شاك أو متردد، فلا يدعو الداعي إلا وهو على بصيرة وعلم، يعرف أن ما يدعو إليه هو الحق، ويعلم أدلة ما يدعو إليه، ويتبصر الطريق التي يسلكها في الدعوة، ويجيد التعبير عن دعوته بالأساليب الجميلة الحسنة والمناسبة، فبذلك تصير الطريق أمامه واضحة، ولا يمكن أن يقوض مسيرته شيء، ولا أن يعيقه عائق.

ثم قال: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ أي: ومن اتبعني يدعو ـ أيضاً ـ إلى الله وهو على بصيرة.

فإذن عرف من هذا أن أتباع الرسل يدعون إلى الله على بصيرة؛ فمن أراد أن يحقق اتباع الرسول لزمه أن يدعو إلى الله بعد أن يتبصر.

■ **قوله: [عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ماتدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، ـ وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله ـ، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، أخرجاه]**[1].

بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن في أول سنة عشرة من الهجرة، وتوفي النبي ﷺ سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهو في اليمن.

وقد بعثه النبي ﷺ إلى اليمن كله بأربعة وظائف:

الأولى: الدعوة، والثانية: التعليم، والثالثة: جمع الزكوات والصدقات والجزية، والرابعة: القضاء.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٤٧)، ومسلم برقم (١٩).

فأول شيء طلبه النبي ﷺ منه هو الدعوة، فقال له: «**فليكن أول ما تدعوهم**»، فدل على أنه بُعث داعياً، وبعد أن يستجيبوا عليك أن تعلمهم، لذا قال له النبي ﷺ: «**فأعلمهم**»، وهذا يدل على أنه بُعث معلماً، ثم إذا استجابوا والتزموا عليك أن تجمع منهم الزكوات والصدقات وتوزعها على مستحقيها، فإذا وقع بينهم خصومات فَصَلَ وحَكَمَ بينهم؛ حيث قال له النبي ﷺ: «**كيف تقضي بينهم؟**»، قال: بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد**»، قال فبسنة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد**»، قال: أجتهد رأيي[(١)].

وقد اختار الرسول ﷺ معاذاً؛ لأنه من أعلم الصحابة؛ فقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**وأعلمهم بالحلال والحرام: معاذ بن جبل**»[(٢)]، فكان شاباً متصفاً بالذكاء وبالفهم وبالعلم، وقد ذكروا أنه لما حضره الموت بكى، وقال: (أبكي حيث إنه يفوتني ثلاث: صوم الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب)[(٣)]، وذلك دليل على أنه من أهل العلم الراسخين فيه.

وذكر بعض العلماء في فضائل معاذ: أنه يحشر أمام العلماء برتوة؛ أي:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٤٢)، وأبي داود برقم (٣٥٩٢، ٣٥٩٣)، والترمذي برقم (١٣٢٧).

قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي متصل، وأبو عون الثقفي اسمه محمد بن عبيد الله.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٢٨١)، والترمذي برقم (٣٧٩١)، وابن ماجه برقم (١٥٤)، وابن حبان (٢٢١٨، ٢٢١٩)، والحاكم (٣/ ٤٢٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٢٤). وقال الأرناؤوط في تحقيق شرح السنة (١٤/ ١٣٢): إسناده قوي.

(٣) انظر مثل هذا المعنى في ترجمة معاذ بن جبل رقم (١٤٣)، في تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٢/ ٩٨).

يسبق العلماء كلهم، وهذا دليل على أنه اتصف بالعلم؛ لذلك اختاره الرسول ﷺ لبعثته إلى اليمن، وحصل من ذلك عدة فوائد: منها: أن الله هدى على يديه الكثير، فدخلوا في دين الله، ومنها: أنه جمع الزكوات والصدقات، وأرسل بها إلى المدينة بعدما أعطى الفقراء المستضعفين المستحقين هناك، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا دون مقاومة، أو قتال.

ولما اتسعت رقعة اليمن، وانتشر الإسلام فيها، ووصل إلى أكثر البقاع وإلى حضرموت، أرسل معه النبي ﷺ مساعدين، فأرسل عليّاً في جهة أخرى، وأرسل عمار بن ياسر، وأرسل أبا موسى.

فاجتمع أربعة من فضلاء الصحابة، وكلهم بعثوا لتعليم الناس الدين، ودعوتهم لعبادة الله عز وجل، ونشر الإسلام؛ وذلك لأن الشخص الواحد لا يستطيع تعليم العدد الكثير من الناس تعاليم الدين كله.

والحاصل أنه لما بعثه علّمه الطريقة، فأخبره: بأن أمامه في اليمن أهل الكتاب، فقال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**»، والمراد بهم: اليهود الذين عندهم التوراة، والنصارى الذين عندهم الإنجيل، فأرشد النبي ﷺ معاذاً إلى الاستعداد وهو يدعو أهل الكتاب، لأنهم أهل جدل وعلم ومعرفة، فَأَعِدَّ لهم العدة، أي: أعد لشبهاتهم ما يدحضها.

والحاصل أن النبي ﷺ أمر معاذاً أن يبدأ الدعوة بالتوحيد بقوله: «**فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، فسميت شهادة؛ لأنها تحصل عن مشاهدة، كأن الذي قالها، قالها عن مشاهدة، وهو لم يشاهد الله عياناً؛ أي: ذاته، ولكن شاهد آيات الله، وشاهد العبر والمخلوقات، التي تدل على أن الله حق وأن إليهته حق؛ فكأنه شهد عن يقين وشهد عن علم، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ**

يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

* **وقوله: في الرواية الثاني: «إلى أن يوحدوا الله»**[1]:

أي: أن يدعو الناس إلى أن يوحدوا الله، وهذا دليل على أن القصد من شهادة أن لا إله إلا الله هو: التوحيد؛ لأنه قال: «**إلى أن يوحدوا الله**»؛ والتوحيد معناه: التخصيص والإفراد، أي: يفردوا الله بالعبادة، ويتركوا إلهية أو تأليه ما سواه، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، لكنهم لم يوحدوا الله، بل قالوها وأشركوا لم تنفعهم؛ لإن قول: لا إله إلا الله يستدعي أن يوحدوا الله ويخلصوا له العبادة.

* **ثم قال: «فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»:**

أي: بعد أن يستجيبوا لهذه الدعوة، ويخلصوا دينهم لله ويفردوه بالعبادة، ينتقل بهم إلى الركن الثاني وهو الصلاة، فأخبرهم بأنها فريضة، وأنها خمس صلوات مفرقة على اليوم والليلة، ولم يفصل له صفتها؛ لأن معاذاً كان على علم بتفاصيل الصلاة وواجباتها، و أركانها، وسننها، ومبطلاتها.

ومعنى: «**افتَرَضَ عليهم**»؛ أي: فرضها وألزمهم بها، والفرض: هو الشيء اللازم الملازم لذمة الفرد، وأصله اللازم للمكان، والفريضة سميت بذلك؛ لأنها ملازمة لذمة المكلف؛ فالصلوات فريضة فرضها الله وألزم بها عباده وهي خمس، وما زاد فإنه نفل: كصلاة الوتر، وصلاة الرواتب، التي قبل الفرائض وبعدها، وصلاة تحية المسجد، وصلاة الليل، وصلاة الضحى، وصلاة التراويح، وصلاة الكسوف، وما أشبهها؛ فهذه يقال لها: نوافل مكملات للعبادات، أما الفرائض فهي خمس.

---

(١) وهي رواية البخاري في صحيحة برقم (٧٣٧٢).

وبعد أن أخبره ﷺ بأن الصلاة هي الفريضة الثانية بعد التوحيد، انتقل به إلىٰ الفريضة الثالثة؛ وهي الزكاة؛ التي هي قرينة الصلاة في كتاب الله، فقال: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**». وسماها النبي ﷺ هنا: «**صدقة**»، لأنها تدل علىٰ صدق من أخلص وأخرجها، وإذا أخرجها العبد وهو مصدق بها قبلت منه.

ثم ذكر له مصارفها، وأنها للفقراء، أي: تؤخذ من الأغنياء وتعطي للفقراء، فهي ليست للأغنياء ولا للأثرياء، وإنما تعطىٰ للفقراء علىٰ وجه المواساة؛ لأن الفقراء المعوزين قد لا يجدون ما يسد حاجتهم؛ فجعل الله في أموال الأغنياء حقّاً للفقراء؛ فلذا قال له الرسول ﷺ: «**تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

واستدل بهذا علىٰ أن الزكاة تؤخذ من البلد وتصرف في نفس البلد، والله أعلم.

ثم نهاه عن الظلم؛ لأنه عرف أن معاذاً هو الذي سيجمع الصدقات، فقال له: «**فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**». أي: إذا استجابوا لك، ودفعوا إليك زكاتهم، واستسلموا، فخذ من أوسط أموالهم، فلا تأخذ سقطها ورديئها ورخيصها؛ فتظلم الفقراء، ولا تأخذ نفيسها وكريمها وغاليها فتظلم أصحاب الأموال؛ فإنك إما أن تظلم هؤلاء أو تظلم أولئك، بل توسط واعدل حتىٰ لا تظلم أحداً منهم؛ لأنك لو ظلمت هذا أو هذا فربما دعا عليك، ودعوة المظلوم مستجابة، لا تحجب عن الله تعالىٰ.

■ **قوله: [ولهما، عن سهل بن سعد: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه». فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فلما أصبحوا، غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: «انفذ على رسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمر النعم»(١). يدوكون؛ أي: يخوضون]:**

هذا الحديث قاله ﷺ يوم خيبر، في سنة سبع من الهجرة، وخيبر: هي البلدة التي بقرب المدينة، وهي مشهورة باسمها إلى الآن، وكان أهلها من اليهود، ولما أجلى النبي ﷺ بني قينقاع وبني النضير نزل كثير منهم بخيبر على قوم من أهلها، ولما كانوا بقرب المدينة كانوا يصالحون المسلمين على ترك القتال، ولكنهم كثيراً ما كانوا ينقضون الصلح، ومن ذلك نقض الصلح يوم الأحزاب.

ويوم الأحزاب هو اليوم الذي جاء فيه الكفار والمشركون لمحاربة المسلمين بالمدينة، حيث اتفق المشركون مع اليهود على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه، فنقض أهل خيبر العهد والصلح؛ فلما لم يكن لهم عهد ولا صلح، غزاهم النبي ﷺ سنة سبع، ونصره الله عليهم، وقتلهم وفتح بلادهم، وعندما أقبل النبي ﷺ وأصحابه على بلادهم، وقد خرجوا بمساحيهم فرأوه، قالوا: محمد والله، محمد والخميس؛ يعني: الجيش؛ فقال النبي ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٧٠١)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»(١) .

فنزل بهم وحاصرهم نحواً من نصف شهر أو أكثر حتىٰ أعانه الله ، وفتح أكثر حصونهم بالغلبة وبالقوة ، وفتح حصنين أو ثلاثةً بالصلح ، ولما فتحها أقرهم فيها علىٰ أن يعملوا في زراعة الأرض ، وسقي النخل ، ولهم نصف التمر ونصف الزرع مقابل عملهم ، ولرسول الله ﷺ وأهل المدينة النصف الآخر مقابل ملكهم ؛ لأن المسلمين ملكوها بالغلبة وبالاستيلاء .

وفي ليلة من الليالي والرسول ﷺ محاصر في خيبر أخبر أنها ستفتح غداً ، بقوله : «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله» .

و«الراية» هي : العَلَمُ الذي ينصبه أمير الجيس في وسط الصفوف ، ويكون حوله المجاهدون ؛ حتىٰ لا يتفرقوا ويشذوا ، فإذا رأوا العلم قصدوه واجتمعوا حوله .

ثم أن النبي ﷺ في هذا الحديث وصف هذا الرجل بأنه : «يحب الله ورسوله» ، والصحابة كلهم يعرفون من أنفسهم أنهم يحبون الله ويحبون الرسول ، ولكن وصفه أيضاً بصفة ثانية ، بقوله : «يحبه الله ورسوله» ، وهذه هي الخصلة التي تسابقوا من أجلها ، يود كل واحد منهم أن يكون هو الذي يُعطىٰ الراية حتىٰ يكون محبوباً عند الله وعند رسوله ، وهذا مما جعل عمر رضي الله عنه يقول : «ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ»(٢) ، رغبة في الحصول علىٰ محبة الله ورسوله .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٣٧١) . ومسلم برقم (١٣٦٥)(٨٤) في «كتاب النكاح» ، ثم أخرجه ـ أيضاً ـ في كتاب الجهاد والسير برقم (١٣٦٥)ـ(١٢٠) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٤٠٥) .

ومن المعلوم أن الله تعالىٰ يحب أهل الإيمان جميعاً، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإذا أردت أن يحبك الله، فاتبع هذا النبي الكريم ﷺ؛ لأن الله يقول: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾؛ فمن أحب الله أطاعه، ومن أحب الرسول اتبعه، ومتىٰ أحببت الله وأطعته، وأحببت الرسول واتبعته؛ فأبشر بأن الله تعالىٰ سوف يحبك؛ لأن الله يقول في هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

واتباع الرسول؛ هو تقليده في كل ما جاء عنه، سواء كان حديثاً، أو سنة، أو غير ذلك؛ حتىٰ تحصل علىٰ هذه المرتبة التي هي محبة الله، ومحبة الرسول ﷺ.

أما إذا قال الإنسان: أحب الله وأحب الرسول، ثم تأتيه أوامر الله، وأوامر الرسول فيلقيها وراء ظهره ولا يتبعها، وتأتيه الإرشادات والإشارات ولا يعمل بها ولا يتبعها، فإنه بذلك لا يكون صادقاً، إنما الصادق هو الذي يقبل ذلك عن يقين ورضا، وتقبل وطواعية.

ثم يقول ﷺ: «يفتح الله على يديه»، أي: يفتح الله علىٰ يديه تلك الحصون الممتنعة.

وبعد أن وصف النبي ﷺ هذا الرجل بهذه الصفات، بات الصحابة ليلتهم سهراً لم يناموا، يدوكون. أي: يخوضون ويتكلمون، يتمنىٰ كل منهم أن يعطىٰ الراية، حتىٰ جاءوا في الصباح مبكرين إلىٰ الرسول ﷺ، فسألهم النبي ﷺ عن علي، فأخبروه بأنه أرمد يشتكي عينيه، وقد تأخر من أجل ذلك الرمد، فأرسل إليه النبي ﷺ من يأتي به، وهو علىٰ تلك الحال، فتفل في عينيه، ودعا له فبرأ من

ساعته، وهذا فيه علامة من علامات نبوته ﷺ؛ حيث إن الله استجاب دعاءه، وشفي عليٌّ من وجع عينيه، يقول علي: «لما أن تفل في عيني ما صدعت ولا رمدت بعدها»[1]؛ أي: ما أصابني صداع في رأسي، ولا وجع في عيني بعد تلك المرة، وهذا كله ببركة دعوة النبي ﷺ له، وتفله في عينيه.

ثم أن النبي ﷺ: «أعطاه الراية»؛ أي: دفعها إليه، وقال له: «**انفذ على رسلك**»؛ أي: سر نحو العدو وهم اليهود، على مهل وتؤدة، فلا تستعجل ولا تشق على المسلمين الذين يغزون معك، بأن تكلفهم السير السريع «**حتى تنزل بساحتهم**»؛ أي: بالمكان المتسع الذي أمامهم، «**ثم ادعهم إلى الإسلام**»؛ أي: تدعوهم إلى الإسلام وإلى الخضوع لله ولشرعه ودينه، وأن تُسْلِمُوا لله رب العالمين، وأن تقبلوا هذا الدين، وأن تتلفظوا بالشهادتين. وأول شيء تبدؤهم به أن تدعوهم إلى معرفة الله، وإلى الإيمان به، وإلى طاعته وعدم الشرك به، ثم اتباع الرسول ﷺ في كل ما أمر به ونهى عنه. وعدم اتباع غيره من المشايخ الذين يسيرون على غير شريعته، ويدعونا إلى الابتداع في الدين، وعدم اتباع الطواغيت الذين يشرعون للناس شرائع من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك كله من الدعوة إلى الله.

ثم تُبين لهم بأننا لم نقصد الاستعلاء، ولا الترفع عليكم، ولا قصدنا التملك عليكم، ولا قصدنا الأموال والسبايا، فلم نقصد إلا نشر الإسلام في أنحاء العالم، وتمكينه في القلوب ودخول الناس فيه.

هذه هي رغبة النبي ﷺ وصحابته الذين قاتلوا على الإسلام، لم يكونوا

---

(١) أخرجه الطبراني وأحمد وأبو يعلى بنحوه، انظر مجمع الزوائد للهيثمي (٩/ ١٢٢).

يقاتلون الناس من أجل أن يكونوا ملوكاً عليهم، ولا كانوا يقاتلونهم من أجل أن يحصلوا على الأموال التي يغنمونها ولا السبايا التي يأخذونها، إنما قصدهم أن يدخل الناس في الإسلام.

وقد ذكر ذلك النبي ﷺ في عدة أحاديث، كما في حديث بريدة الطويل، الذي يقول فيه: «**وإذا لقيت عدوك من المشريكن فادعهم إلى ثلاث خصال: فأيتهن ما أجابوك لها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام**»[1]، أي: ابدأ بالدعوة إلى الإسلام؛ يعني: لا تقاتلهم قبل أن تدعوهم إلى الإسلام، فإذا قبلوا منك فكف عنهم.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا غزا قوماً لا يغزوهم إلا وقد أبلغهم دعوته، وأنه جاء بهذا الإسلام، فإذا نزل قريباً منهم استمع فإن سمع أذاناً عرف أنهم مسلمون، فأمسك عن القتال، وإلا قاتلهم.

وإذا لم تكن بلغتهم الدعوة، يبدأ فيبلغهم إياها، ويقول لهم: اقبلوا هذا الدين، واقبلوا هذا الإسلام، وسوف تبقون على أموالكم وعلى بلادكم وعلى أنفسكم، وتحصل لكم ـ أيضاً ـ المنزلة والدرجة العالية، التي هي شرف الدنيا والآخرة، وتكونوا أعزة في الدنيا، وأعزة في الآخرة، ولكن كثيراً منهم يبخلون بأديانهم، ويقولون: ديننا الذي ولدنا عليه، وورثناه من الآباء والأجداد لا نتركه لك، ولا نبغي به بديلاً.

فاليهود يتمسكون بيهوديتهم، ويبقون عليها، ويدعون أنها لم تنسخ، وأنها لم تحرف، ويصرون على التمسك بها، ولا يقبلون الإسلام.

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٣١).

وكذلك النصارىٰ في ديانتهم، التي يدّعون أنها وراثة من المسيح، ويسمونه بلغتهم اليسوع، فيقولون: نحن علىٰ دين اليسوع، ولا نتركه، ولا نريد به بديلاً.

هذا بالنسبة إلىٰ الأديان التي هي غير دين الإسلام.

وهكذا أيضاً الذين هم من أهل الإسلام، ولكنهم منحرفون، تجدهم يُدْعَوْنَ إلىٰ الإسلام الصحيح، ولكنهم يصرون علىٰ البقاء علىٰ تلك البدع، أو ذلك الشرك الذي يَدَّعُونَ أنه ليس بشرك، وَيَدَّعُونَ أنه هو الأصل، ويزعمون أنهم ورثوه عن الآباء والأجداد، فلا يبغون له بديلاً.

فمن ذلك مثلاً: عبدة القبور الذين يعبدون الأموات ويذبحون للأموات، وينذرون لهم، ويطوفون بتلك القبور، ويتبركون بجدرانها وحيطانها، ويحملون التربة لها، وما أشبه ذلك، ويزعمون أن هذا تبرك بهؤلاء الأولياء والسادة والصالحين، فإذا قيل لهم: أسلموا، قالوا: نحن مسلمون، وإذا قيل لهم: اتركوا هذا الشرك، قالوا: هذا ليس بشرك، بل هذا من دين الإسلام، وهذا تعظيم لهؤلاء الذين هم عظماء عند الله ونحو ذلك، وما علموا أن هذا هو عين الشرك الذي هو دعوة غير الله معه، فلا يقبلون الدعوة إلىٰ الإسلام الصحيح.

وهكذا أيضاً أغلب المبتدعين المتمسكين ببدعهم، لا تفيد فيهم الدعوات، والترغيبات، والترهيبات. فالرافضة الذين هم علىٰ عقيدة سيئة، من المغالاة في أهل البيت كالحسن، والحسين، وعلي، وفاطمة، ونحوهم، والبغض لبقية الصحابة، إذا نصحوا أو بين لهم لم يقبلوا؛ وذلك لأنهم ورثوا هذه العقيدة السيئة أباً عن جدّ؛ فألفوها وبقوا عليها، فلا ينفع معهم النصح، ولا الوعظ

والتذكير.

وهكذا أيضاً الذين يتمسكون بعاداتهم القديمة المنحرفة، إذا دعوا إلىٰ ترك هذه العادات وجدوا صعوبة في ذلك، ولكن قد يتركونها بالتدرج، فإن النبي ﷺ لما دعا أهل مكة إلىٰ ترك مألوفاتهم امتنعوا، وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقال الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]، وقال لهم إبراهيم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]، وأخبر عن آلهتهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

والحاصل أن الإسلام جاء بهذا الدين وبهذه الشريعة السمحاء، ولم يقصد استرقاق الناس، ولا تملكهم، ولا الاستعلاء عليهم، فمنهم من هداه الله فقبله لما تبين له صحة ما جاء به، ومنهم من حقت عليه الضلالة فضل والعياذ بالله.

وبعد أن تدعوهم إلىٰ الإسلام، «**أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**»؛ أي: قل لهم أسلموا، فإذا أسلمتم وجب عليكم كذا، ووجب عليكم كذا.

واحرص علىٰ أن يهتدوا، ويقبلوا منك ما تأتيهم به، واحرص علىٰ أن يهدي الله بك أي شخص، لقوله ﷺ: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً**»؛ أي: يهتدي علىٰ يديك، كأن يكون منحرفاً فيهتدي علىٰ يديك، أو يكون مذنباً فيتوب علىٰ يديك، أو يكون كافراً فيسلم علىٰ يديك، فلك بذلك أجر عظيم: «**خير لك من حُمر النعم**»، وحمر النعم هي: الإبل الحمر، كان العرب يتنافسون في اقتنائها،

ويعدونها أفخر المال عندهم، وهذا على وجه التقريب، وإلا فالاهتداء يكون أجره في الآخرة، وأجر الآخرة لا يقاس بالدنيا بأكملها، فذرة في الآخرة خير من الدنيا وما فيها، إبلها وغنمها وجميع ممتلكاتها، وإنما مثل لهم بشيء ترغب فيه نفوسهم ويحبونه، وهو تنافسهم في هذا.

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن ثواب من دعا إلى الله فقال: «**من دعا إلى هدى كان له مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء**»[(١)].

فالذي يدعو إلى الله ويهتدي على يديه إنسان، يكون له مثل أجره كما في الحديث: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»[(٢)]، فإذا دعا المسلم إنساناً إلى المسجد فهداه الله، كان له مثل أجره، وأجره كامل لا ينقص، وإذا دعاه إلى القرآن فهداه الله، وقرأه وتعلمه وعمل به، كان له أجر على حسب عمله، وللداعي مثل أجره؛ لأنه السبب في هدايته وتبصرته، وهكذا من دعا إلى هدى فله مثل أجور من اتبعه.

أما الذين يدعون إلى ضلالة ومعصية، فعليهم مثل أوزار من اتبعهم، لقوله ﷺ: «**ومن دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من ابتعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[(٣)]، فالذي يدعو إلى الأغاني أو إلى الفحش، ومعصية الله عز وجل، ويتبعه أناس على ذلك، فعليهم أوزارهم كاملة، وعليه مثل أوزارهم كلهم ولو كثروا.

والذي يدعو إلى معصية أياً كانت، والذي يدعو إلى شرك، وإلى تعظيم

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨٩٣).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤).

ميت، وإلى حلف بغير الله، وإلى غير ذلك من المعاصي ويُتبع في ذلك؛ يحمل مثل أوزار من ضلوا بسببه جميعاً إلى يوم القيامة، كما بين ذلك رسول الله ﷺ.

وكذلك قوله ﷺ: «**لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل**»[1].

فكل من سنّ معصية أو اخترع ضلالة وانخدع به الناس، واتبعوه على ذلك فانه يحمل عليه مثل آثامهم وأوزارهم، لا ينقص منهم شيء، وفي هذا ترغيب للإنسان أن يكون داعية خيرٍ، وأن يكون مجتنباً للشر بعيداً عنه، والله تعالى أعلم.

▪ ▪ ▪ ▪ ▪

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٣٥)، ومسلم برقم (١٦٧٧).

[٥]

باب:
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ [الإسراء: ٥٦].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ـ٢٨].

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله: حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل».

وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

● فيه أكبر المسائل وأهمها:

وهي: تفسير التوحيد: وتفسير الشهادة، وبيّنها بأمور واضحة:

* منها: آية الإسراء: بيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

* ومنها: آية براءة: بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه، طاعة العلماء والعباد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

* ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]، فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

* ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبّاً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟

ومنها: قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»، وهذا من أعظم ما يبين معنى (لا إله إلا الله)، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال؛ بل ولا معرفة معناها مع لفظها؛ بل ولا الإقرار بذلك؛ بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له؛ بل لا يحرُمُ ماله

ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه.

فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويالله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

إذا عرفنا أن الله فرض علينا أن نوحده فنحن بحاجة إلىٰ معرفة التوحيد، يعني: ما هو هذا التوحيد الذي فرضه الله علينا؟

ولا يمكن أن نعرف أنواع التوحيد إلا إذا عرفنا أنواع الشرك، فإذا عرفنا أنواع الشرك وتجنبناها سلم لنا الوحيد، فإن معرفة الشيء تتوقف علىٰ معرفة ضده، وتصور التوحيد إنما هو بعد تصور أنواع الشرك.

وما دمنا عرفنا أن التوحيد فرض، وأنه أهم الفروض وأوجبها، وأنه حق الله علىٰ عباده، وأنه سبب للاهتداء في الآخرة، وسبب للأمن في يوم القيامة، وسبب لدخول الجنة، وسبب للنجاة من النار، وسبب لرجحان الأعمال، وسبب لمغفرة الذنوب، وأن من حققه أتم تحقيق صار من أهل الجنة دون أن يتعرض لحساب أو عذاب، وأننا مكلفون أن نعمل به وأن ندعو الناس إليه.

ما دمنا عرفنا ذلك كله فإننا بحاجة إلىٰ معرفة هذا التوحيد الذي هذه فضائله.

فالتوحيد: مشتق من الواحد، وهو إفراد الله تعالىٰ بأنواع العبادة.

* وأنواع التوحيد أربعة:

* النوع الأول: توحيد الإلهية: وهو الاعتقاد بأن جميع أنواع العبادة لا تصلح إلا لله، وإفراد الله بها.

* النوع الثاني: **توحيد الذات**: وهو الاعتقاد بأن الله واحد في ذاته؛ أي: ليس معه خالق آخر، وليس معه من يشابهه في ذاته.

* النوع الثالث: **توحيد الصفات**: وهو الاعتقاد بأن كل صفة لله لا تشبه صفة من صفات خلقه.

* النوع الرابع: **توحيد الأفعال**: وهو الاعتقاد بأن الله هو الفاعل لكل ما في الوجود، وأنه ليس له شريك في أفعاله، فهو المتفرد بالأفعال، وبالخلق، وبالرزق، وبالتدبير، وما أشبه ذلك.

والمشركون اعترفوا بتوحيد الأفعال، فقد أقروا بأن الله هو الذي خلقهم ورزقهم، وهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي ينزل المطر، وهو الذي ينبت النبات... إلخ، ولكنه لم يكف؛ حيث طلب منهم توحيد العبادة الذي هو توحيد الله بأفعال العباد.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله تحت هذا الباب أربعة آيات فيها: تفسير توحيد الله بأفعال العباد، الذي هو حق الله على العبيد.

■ **الآية الأولى**: قوله: [**وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾** [الإسراء: ٥٧]]:

وقد سبقها قوله تعالى: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾** [الإسراء: ٥٦]؛ أي: ادعو كل معبوداتكم، وانظروا هل يملكون كشف الضر عنكم؟! أو يملكون تحويله منكم إلى غيركم؟! أو يملكون تحويله من عضو إلى عضو؟!

والجواب: أنهم لا يملكون.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، أي: إن أولئك المدعوين الذين تدعونهم من دون الله خير منكم؛ لأنهم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، أي: يبتغون القربة إلىٰ الله بالأعمال الصالحة، والوسيلة هي: القربة، فالصلاة وسيلة، والدعاء وسيلة، والتسبيح وسيلة، والذبح وسيلة، والتكبير وسيلة، والذكر وسيلة.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، أي: مَنْ الأقرب الداعين أم المدعوين؟

لا شك أن المدعوين هم الأقرب، وذلك لأنهم لم يفعلوا كفعلهم، فإن الداعين عبدوا أولئك الأموات وتقربوا إليهم وذبحوا لهم، وأولئك المدعوين كانوا رجالاً صالحين؛ إما علماء أو أنبياء، وكانوا يتقربون إلىٰ ربهم بالأعمال الصالحة: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾؛ أي: كان أولئك المدعوين الصالحين يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه، لذا كانوا خيراً منكم أيها العابدون، الذين عبدتموهم مع الله.

فكان الواجب علىٰ الداعين أن يقتدوا بأولئك المدعوين لأنهم كانوا يعبدون الله، فلماذا لم تعبدوا الله مثلهم؟

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾، أي: يجب أن نحذر أن يقع عذاب الله وذلك بالخوف والرجاء وعبادته وتحقيق التوحيد التام والكامل.

وهذه الآية فيمن يعبد مخلوقاً، وذلك المخلوق يعبد الله، فالذين يعبدون عيسىٰ عليه السلام، يقال لهم: إن عيسىٰ عليه السلام يبتغي الوسيلة إلىٰ ربه، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه، وكذلك الذين يعبدون الملائكة، يقال لهم: إن الملائكة عباد لله مكرمون، يعبدون الله وحده، وهم يتبغون الوسيلة إلىٰ ربهم، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

وهكذا الذين يعبدون الصالحين من الأموات والأحياء، يقال لهم: إن هؤلاء الصالحين يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

فكل من عبد مخلوقاً وكان ذلك المخلوق المعبود يعبد الله؛ فإنه داخل في هذه الآية.

■ **الآية الثانية: قوله:** [وقوله: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** [الزخرف: ٢٦-٢٨]]:

وهذه الآية في قصة إبراهيم عليه السلام، وهي أصرح دليل علىٰ مقصود إبراهيم من قومه لما أنكر عليهم عبادة غير الله، قال لهم: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾**.

وهذا دليل علىٰ أن قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون الله ويعبدون معه آلهة أخرىٰ غير الله، وهذه الآلهة إما من الأحياء، أو الأموات، أو الجماد؛ ومن أجل ذلك تبرأ إبراهيم عليه السلام من كل معبوداتهم واستثنىٰ ربه.

وقوله: **﴿بَرَاءٌ﴾**؛ أي: متبرئ ومبتعد ومبغض لها، وبرئ منكم ومن أعمالكم، ومن معبوداتكم، **﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾**؛ أي: ابتدع خلقي؛ أي: إلا الخالق لي ولكم ولسائر المخلوقات **﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾** إلىٰ سواء السبيل.

وفي هذه الآية دليل علىٰ أن حقيقة التوحيد: البراءة من المعبودات كلها إلا الله وحده.

وفي آية أخرىٰ أن إبراهيم عليه السلامة قال: **﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾** [الشعراء: ٧٥-٧٧]، فقد

صرح بعداوة كل معبوداتهم إلا رب العالمين.

■ **الآية الثالثة: قوله:** [وقوله: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١]]:

هذه الآية في سياق الكلام على اليهود والنصارى الذين قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٠]، ثم قال الله ردّاً عليهم وبياناً لفساد قولهم: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ . . .**﴾الآية؛ أي: أنهم اتخذوا أحبارهم: وهم العلماء من اليهود، ورهبانهم: وهم العباد من النصارى.

وقد كان هؤلاء الأحبار والرهبان مقدسين عند عامة الناس من اليهود والنصارى، بحيث إنهم يتقبلون منهم، ويتبعون تشريعهم ويعظمونهم ويطيعونهم، فيحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، ويغيرون لهم الشريعة، ويسقطون عنهم الحدود، والناس يطيعونهم في ذلك، وكأنهم أرباب؛ أي: جعلوهم بمثابة الرب.

﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١]؛ فلم يؤمروا في كتبهم التي أنزلت عليهم إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً؛ وهو الله، وهذا هو تفسير التوحيد.

قال في فتح المجيد[١]: «وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله؛ لسنا نعبدهم، قال: «أليس

---

(١) انظر «فتح المجيد» (١ / ٩٧).

يحلون لكم ما حرّم الله فتحلونه،ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟» قال: بلى، قال النبي ﷺ: **«فتلك عبادتهم»**[(١)].

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله، وبها اتخذوهم أرباباً، كما هو الواقع في هذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، الذي هو مدلول شهادة (لا إله إلا الله). انتهى.

■ **الآية الرابعة: قوله:** [وقوله: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾** [البقرة: ١٦٥]]:

هذه الآية فيها ذكر نوع من أنواع الشرك، وهو شرك المحبة، وسيأتي الكلام عنه في باب: قول الله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا ...﴾** الآية [البقرة: ١٦٥].

إن هناك من الناس من يحبون بعض المخلوقات الحب الواجب لله، ولكن محبة المؤمنين لله أشد من محبة هؤلاء لمألوهاتهم ولمعبوداتهم؛ سواءً كانوا يحبون ميتاً من الأموات المقبورين، أو يحبون نداً كشجرة، أوحجر، أو بقعة، أو قبة، أو قبر، وما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٠٩٥)، وابن جرير برقم (١٦٦٣١)و(١٦٦٣٢)و(١٦٦٣٣)، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٢٣)، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تحقيقه على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: لكن في الباب عن حذيفة موقوفاً، أخرجه ابن جرير برقم (١٦٦٣٤) وبه يقوى.

وقال ابن كثير: رواه أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

إنهم يحبونهم كحب الله؛ فحبهم لله وحبهم للأنداد على حد سواء، وفي هذا دليل على أنهم يحبون الله حبّاً شديداً، ولكن حبهم لله هذا لم يدخلهم في الإسلام؛ وذلك أنهم جعلوا حبهم مشتركاً، قسماً لله وقسماً لهؤلاء الأموات وهؤلاء الأنداد.

والمؤمنون حبهم لله أشد؛ وذلك لأن المؤمنين حبهم كله خالص لله، أما هؤلاء فحبهم مشترك، ولا شك أن الحب الخالص أقوى من الحب المشترك.

وهذه الآية فيها تفسير التوحيد؛ لأنه الذي يكون فيه الحب لله تعالى، وأن الشرك هو محبة غير الله كمحبة الله.

■ قوله: [**وفي الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله: حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل**(١)]:

ظاهر هذا الحديث أن التلفظ بالشهادة لا يكفي، فلا يصير مسلماً بمجرد التلفظ حتى يترك عبادة غير الله.

وقوله: «**وحسابه على الله عز وجل**»: قال في فتح المجيد(٢): (أي: الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حسابه، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم، وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً، والتزم شرائع الإسلام، وجب الكف عنه) انتهى.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣)، من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رضي الله عنه.

(٢) انظر «فتح المجيد» ص(١ / ٢٢٤) بتحقيق الوليد بن فريان.

■ وقوله: [وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب]:

قال في فتح المجيد[1]: (وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد، ويوضح معنى لا إله إلا الله، وفيه ـ أيضاً ـ بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر، وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، ومما تركه من مضمون لا إله إلا الله، فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى: لا إله إلا الله، وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبضدها تتبين الأشياء.

فبمعرفة الأصغر من الشرك، يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحد حقّاً.

وبمعرفة وسائل الشرك والنهي عنها، تعرف الغايات التي نهي عن الوسائل من أجلها.

فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص، بل يقتضيه.

وفيه أيضاً من أدلة التوحيد: إثبات الصفات، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله؛ وكل ما يعرّف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته؛ يدل على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله). انتهى.

* ومن المسائل التي ذكرها المصنف في هذا الباب: قال: (ومنها: آية البقرة في الكفار، الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، فذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله): فدل أنهم يحبون الله حبّاً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند

(١) انظر «فتح المجيد» ص(١ / ٢٢٤). تحقيق الوليد بن فريان.

وحده ولم يحب الله؟

* ومن المسائل التي ذكرها المصنف رحمه الله، أيضاً قال: «**فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال**»: فلو قالها إنسان مائة مرة، ولكنه يعبد مع الله غيره، أو لم يكفر بعبادة غير الله، ولا أنكر على من يعبد غير الله، أو أقر من يعبد المسيح، أو من يعبد عبد القادر، أو من يعبد البدوي، أو من يعبد فلاناً، أو ما أشبه ذلك؛ فهذا حلال الدم والمال؛ لأنه لم يكفر بما يعبد من دون الله، والكفر يستدعي إنكاره ويستدعي البراءة منه، ويستلزم الإنكار على عابديه، وتشنيعه عليهم، ومقته لهم، وإنكاره لأفعالهم، وأن يكون الإنكار علنياً.

ثم قال المصنف: «**بل ولا معرفة معناها مع لفظها**»: فكون الإنسان يعرف معنى (لا إله إلا الله)، ويعرف مدلولها، ويعرف أنه لا أحد يستحق الإلهية إلا الله، وأن الإلهية حق الله لا يشاركه فيها أحد غيره، ولكنه لم يعمل بمقتضاها، أو لم ينكر على من خالف مقتضاها، وعبد غير الله، فهذا لا ينتفع ولا يحرم ماله ودمه، حتى يكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله أو دمه؛ بل يكون دمه وماله حلالاً؛ حيث إنه استحل شيئاً يضاد معنى: لا إله إلا الله.

■ ■ ■ ■ ■

[٦]

باب:
من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقة من صُفْر، فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة، فقال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهناً؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»، رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

وله ،عن عقبة بن عامر، مرفوعاً: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له».

وفي رواية: «ومن تعلق تميمة فقد أشرك».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

*** فيه مسائل:**

الأولى: التغليظ في لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: «**لا تزيدك إلا وهناً**».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئاً وُكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمّى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له؛ أي: ترك الله له.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

هذا أول الأبواب التي ذكر فيها ما ينافي التوحيد من الشركيات الظاهرة والخفية.

وقد جزم الشيخ رحمه الله بأن هذا اللبس من الشرك إذا قصد به رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله.

والمراد باللبس: الاستعمال، فإن لبس كل شيء بحسبه، فلبس الحلقة ربطها في العضد أو الساق أو الاصبع، ولبس الخيط ربطه ووضعه في بعض أعضاء البدن.

ويراد بالحلقة: كل حديدة متلاقية الطرفين، وسواء كان صنعها كذلك، أو عند اللبس عطف أحد طرفيها حتى صارت حلقة، وقد تكون من أعواد أو من معدن، أو ربل، أو طين أو غير ذلك، والذين يلبسونها يظنونها تنفعهم وتخفف عنهم الآلام، أو تحرسهم من الأضرار والأمراض، فيعتقدون أنها تشفي بذاتها، وتؤثر حماية ودفعاً، ومنفعة ظاهرة، مع أنها مخلوقة مصنوعة، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فكيف تملك لغيرها شيئاً من ذلك؟! فلا ترفع البلاء من الإنسان أو من المجتمع بعد نزوله، ولا تقدر على دفعه ورده قبل نزوله.

ويراد بالبلاء: الأمراض والعاهات، والمصائب والعقوبات، وكذلك تسلط

الأعداء وغلبتهم ونحو ذلك، ولا يدفع ذلك إلا الله تعالىٰ، فالواجب علىٰ العباد أن يعتمدوا علىٰ ربهم، ويدعوه ويطلبوا منه حمايته وحراسته وحفظه لهم، وأن يفعلوا الأسباب الحسيّة، فيأخذوا الحذر كما قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وذلك بأخذ كل ما بقي من الأضرار؛ كاللباس لدفع البرد والحر، وكالأكل والشرب لدفع الجوع والظمأ، ومثل التكسب بما أباحه الله لجلب الرزق الحلال، وكالعلاج لدفع الأمراض بالأدوية المباحة، ونحو ذلك، مع التوكل علىٰ الله فإنه مسبب الأسباب.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر: ٣٨]]:

هذا الخطاب للنبي ﷺ، أمره الله تعالىٰ بمناظرة المشركين في آلهتهم التي يدعونها من دون الله، ويصرفون لها العبادة التي هي خالص حق الله تعالىٰ، هل تقدر علىٰ كشف الضر والبلاء الذي يقدره الله علىٰ الإنسان، أو تدفعه وترده فلا يقع، وهل تقدر علىٰ إمساك رحمة الله التي يريد الله وقوعها للناس أو لبعضهم؟

فالمعنىٰ: أخبروني أيها العابدون لغير الله عن آلهتكم التي تعظمونها، وتصرفون لها أنواع العبادة، لو قدر الله عليكم أو علىٰ بعضكم مرضاً أو قحطاً أو موتاً أو مصيبة، فهل لها قدرة علىٰ كشف ذلك البلاء، أو ردِّه حتىٰ لا يقع؟! أو قدر الله تعالىٰ لي أو لأحد من الناس رحمة ونعمة وخيراً ورزقاً، فهل تقدر هذه المعبودات علىٰ إمساك رحمته وردها، ومنع الوقوع لها؟

الجواب: أنها لا تقدر على شيء من ذلك، فإن أولئك المشركين يعترفون بأن ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فهم يعترفون أن النفع وجلب الخير من الله وحده، وأن دافع الشرور هو الله العظيم، وإنما جعلوا تلك المعبودات وسائط بينهم وبين الله، يرجون شفاعتها وبركاتها، وهذا الوصف يدخل فيه لبس الحلقة أو الخيط، واعتقاد أنه يكشف الضرر أو يجلب الخير، فيكون من لبسه لذلك قد فعل ما لا فائدة فيه، كما أن المشركين عبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، فلا يجلب لهم خيراً، ولا يمسك عنهم ضراً، فالواجب تعلق القلوب بعلام الغيوب، واعتقاد أنه هو الذي يملك الضر والنفع دون من سواه.

■ **قوله: [عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلْقة من صُفْر، فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة، فقال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهناً؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»، رواه أحمد بإسناد لا بأس به**[(١)]]:

وهو في المسند برقم (١٩٩٤٣)، ولفظه: أن النبي ﷺ أبصر على عضد

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجة (٣٥٣١)، وابن حبان (١٣/ ٤٤٩، ٦٠٨٥)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٧٢) رقم (٣٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢١٦)، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٣٥١).

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١٤٠): هذا إسناد حسن، مبارك هو ابن فضالة مختلف فيه. أ. هـ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٣): وفيه مبارك بن فضالة وهو ثقة، وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. أ. هـ.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وعزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٦/ ١١٣)، للحاكم، وقال: قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال المصنف (أي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب): رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

وقد خرجه الشيخ عبد الله بن جبرين حفظه الله وذكر بعض الألفاظ.

رجل حلقة، أراه قال: من صفر، فقال: «**ويحك ما هذه؟**» قال: من الواهنة، قال: «**أما إنها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك فإنك لو مت..إلخ**».

ورواه الحاكم في المستدرك في الطب، ولفظه: دخلت على النبي ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: «**ما هذه؟**» فقلت: من الواهنة، فقال: «**انبذها**». وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

و«**الحلقة**»: قطعة من حديد أو نحوه متلاقية الطرفين، وكل ما ليس له طرف فهو حلقة، ومنه تحلق القوم حول العالم، وذلك إذا استداروا حوله.

و«**الصفر**»: هو الذي تعمل منه الأواني، وهو نوع من النحاس الجيد، ولونه يميل إلى الصفرة.

و«**الواهنة**» عرق يأخذ بالمنكب وبالعضد كلها، ويحصل منه وهن وضعف في البدن.

ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ أنكر على هذا الرجل ـ وهو عمران نفسه كما في رواية الحاكم ـ لبس هذه الحلقة كعلاج لهذا المرض، وذلك أنه يعتقد في هذه الحلقة أنها تدفع هذا المرض، أو تخففه بعد نزوله، فأمره النبي ﷺ أن ينبذها؛ أي: يطرحها ويلقيها عنه، بعد أن يخلعها، وأخبره بأنها لا تنفعه من هذا المرض، بل تزيده وهنًا إلى وهنه.

و«**الوهن**» هو: الألم والضعف كما في قوله تعالى: ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ**﴾ [لقمان: ١٤].

ثم إن النبي ﷺ قد عرف أنها حلقة، وأنها من صفر، فقوله: «**ما هذا؟**»، أي: ما هذا الفعل؟ ولماذا لبست هذه الحلقة؟ وما السبب في جعلها في عضدك؟

وقد عرف أنه قصد بلبسها استشفاءً من مرض، وأنها لم تكن حلياً، ولم يقصد بها الزينة، فسأله عن الحامل له على وضعها في عضده، فلما أخبره بالسبب أمره بنزعها ثم طرحها، وأخبره أنها لا شفاء فيها لا من الواهنة ولا من غيرها، و أنها تزيده مرضاً.

ولعل السبب أنه لما اعتقد أنها تنفعه وتفيده عاقبه الله بنقيض قصده، أو أنه لما تعلق قلبه بمخلوق، واعتقد أن له تأخير الألم أو إزالته عاقبه الله على هذا الذنب الذي هو شرك بعقوبة حسية أو معنوية، بنقص توحيده، وإضعاف إيمانه، فكان ذلك معنى زيادة الوهن، أو بمرض مع مرضه عقوبة على هذا الفعل الذي لم يأذن به الله تعالى.

ثم قال: «**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**».

الفلاح هو: الفوز والسعادة، والظفر بالمطلوب، وهو من خصائص الموحدين، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ أي: السعداء في الدنيا والآخرة، وقد أخبر الله تعالى بصفات أهل الفلاح بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيات، [المؤمنون: ١]، فعلى هذا يكون المعنى أنك لو بقيت على لبس هذه الحلقة لأجل الاستشفاء بها والاعتقاد فيها فإنه لا يحالفك الفلاح؛ بل تفوتك السعادة، و تخسر في الآخرة أعظم الخسران، وهو دليل على أن الشرك ولو كان من الأصغر يؤدي إلى الخسران المبين، فإن هذا اللبس لا يصل بصاحبه إلى الشرك الأكبر إذا كان مجرد ظن أنها ترفع البلاء كسبب، ومع ذلك فقد نهى عنها أشد النهي، حيث أمر بنبذها، وتوعد على لبسها لهذا الغرض بعدم الفلاح المؤبد، ولكن هذا التأبيد مقيد بالدنيا، أو بعدم عفو الله ورحمته.

■ **قوله: [وله، عن عقبة بن عامر، مرفوعاً: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»[1]]:**

هكذا رواه أحمد في المسند برقم (١٧٣٧٢)، ورواه أبو يعلىٰ في مسنده برقم (١٧٥٩)، والحاكم في المستدرك (٤ / ٤١٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني ورجالهم ثقات.

و(التميمة): واحدة التمائم التي تعمل من خرزات، أو نوىٰ، أو خرق، أو كتابات، تجمع في خيط أو خرقة، وتعلق علىٰ الأولاد ونحوهم، يتقون بها العين، كما قال سيبويه في معلقته:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

فألهيتها عن ذي تمائم محول

أي: شغلتها عن الطفل الذي قد علقت عليه التمائم.

وقال الشاعر:

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفع

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤ / ١٥٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٥) وأبو يعلىٰ في مسنده (٣ / ٢٩٦) رقم (١٧٥٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ٢١٦، ٤١٧)، وابن حبان (١٣ / ٤٥٠) رقم (٦٠٦٨) والبيهقي (٩ / ٣٥٠) والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٢٩٧) رقم (٨٢٠).

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / ٣٠٦): إسناده جيد، وقال الهيثمي (٥ / ١٠٣)، بعد أن عزاه إلىٰ أحمد وأبو يعلىٰ والطبراني: ورجالهم ثقات، وقال الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة ص(١١٤) رقم (٦٢): ورجال حديثه موثوقون، وقال المناوي في «التيسير» (٢ / ٢٣١): إسناده صحيح.

ومعنى الحديث: أن من علق هذه التميمة على نفسه، أو على ولده، أو دابته، أو على سقف داره أو بابها، وقصد بذلك الحماية والتحرز من العين أو الأضرار، أو الأمراض والعاهات، «فلا أتم الله له»، وهذا دعاء عليه بنقيض قصده، فإن التميمة مشتقة من التمام؛ أي: أنها في زعمهم تتم بها المقاصد، ويتم بها الحفظ والحراسة من الأضرار والشرور، وهذا تعلق على مخلوق، واعتقاد أن هذه الخرزات والخرق تدفع البلاء قبل نزوله، أو ترفعه بعد النزول، أو تخففه، مع أنها جماد مخلوق لا حركة فيها، ولا أثر لها في الظاهر، ولكنهم لجهلهم وبعدهم عن الحق، وعن معرفة الرب تعالى؛ خيل إليهم أنها مع الاعتقاد فيها تفيدهم وتنفعهم، ورأوا على الاعتماد عليها آباءهم وأسلافهم فجاء الشرع بإنكار ذلك، وأبطل هذا الاعتقاد، وأمر بالتوكل على الله، واعتقاد أنه هو النافع الضار، وأن هذه التعاليق لا تأثير لها أصلاً.

ثم إن قوله: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له»، يعم من تعلق قلبه بها، ولو لم يلبسها، كمن يعلقها على الأطفال أو الدواب أو المنازل، فإنه يصدق عليه أنه قد علق قلبه بها، وتوهم أنها تحرس المنزل بطبعها، أو تحفظ الدابة من الضياع واللصوص والسباع، أو الأطفال من العين والهوام والأمراض، فاعتبر هو الفاعل، وإن كانت على غيره، فإن الأطفال ليس لهم اختيار، فالتكليف والإثم على الوالدين اللذين باشرا هذا التعليق.

وكذا يقال في تعليق الودع، الذي واحدته ودعة، وهي شيء أبيض يشبه، الصدف، في وسطها شق مثل شور النواة، أو أوسع، منها ما هو كالنواة وما هو أكبر منها، ذكروا أنه يستخرج من البحار، فأهل الجاهلية ومن شابههم من المشركين في هذه الأمة وغيرها ينظمونه في سلك، ويعلقونه على الأطفال ونحوهم، وقد يجعلونه مع التمائم داخل الخرق، وقد يجمعه الكهنة ونحوهم

وينثرونه عند طلب معرفة المغيبات، كالضرب بالحصىٰ، ويستدلون به علىٰ بعض الحوادث المستقبلة التي تخبرهم بها الشياطين، فلهذا أنكر النبي ﷺ علىٰ من تعلق قلبه به، ودعا عليهم بقوله: «**ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له**»؛ أي: لا جعله في دعة وسكون؛ بل جعله في قلق واضطراب.

وهذا دعاء عليه بنقيض قصده، حيث قصد الحماية والحفظ والراحة، والطمأنينة والسرور بهذا التعليق، وتعلق قلبه بهذه الودعات التي هي مخلوقة مربوبة، لا تملك نفعاً ولا ضرّاً؛ بل هي جماد وتفنىٰ، ولا ترد عن نفسها، فكيف عن غيرها؟! فمن تعلق قلبه بها قاصداً النفع فهو حري أن يعاقبه الله، ويسلط عليه الآفات والشرور عاجلاً أو آجلاً، ولو قدر أنه حصل له في نظره شيء من النفع الذي هو من باب المصادفة، فإن عاقبته وخيمة والله أعلم.

■ **قوله**: [**وفي رواية**: «**ومن تعلق تميمة فقد أشرك**»[(١)]]:

هذا اللفظ وقع في حديث آخر رواه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر، أن النبي ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، وقال: «**إن عليه تميمة**»، وقال: «**من علق تميمة فقد أشرك**»، ورواه الحاكم بنحوه ورواته ثقات.

ومعنىٰ الشرك في هذا التعليق: أن من علقها فقد تعلق قلبه بها، وظن أنها تؤثر وتفيد بطبعها، وتحرس وتحمي من علقها، فكان هذا تعلقاً بغير الله فيكون شركاً، فإن اعتقد أن التمائم لها أثر بنفسها، وأنها هي التي تنفع وتدفع بذاتها فهو شرك أكبر؛ لأنه جعل مع الله متصرفاً في الكون وإن اعتقدها تؤثر بإذن الله، وأن

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٥٦)، والحاكم (٤ / ٤١٧).

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٦ / ١١٢): رواه أحمد والحاكم ورواة أحمد ثقات.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ١٠٣): رواة أحمد ثقات.

الله جعل فيها هذا النفع، فتعلق قلبه بها لذلك فهو من الأصغر، وهو أكبر من الكبائر والله أعلم.

■ **قوله: [ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾**[1] [يوسف: ١٠٦]]:

قال الشارح الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: وروىٰ وكيع عن حذيفة أنه دخل علىٰ مريض يعوده فلمس عضده فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ فقال: شيء رقي لي فيه، فقطعه، وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك[2].

وذكر ابن كثير عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن عروة، قال: دخل حذيفة علىٰ مريض فرأىٰ في عضده سيراً فقطعه، أو انتزعه، ثم قال: **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾**[3] [يوسف: ١٠٦].

وهذه الآية نزلت في مشركي العرب، فإنهم يؤمنون بالله ويوحدونه في الشدة، وفي لجة البحر، فإذا نجوا من الشدة أشركوا بالله، وجعلوا له أنداداً.

وقيل: إن إيمانهم إقرارهم بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الخالق الرازق المدبر، المتصرف في الكون، الذي يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهم مع ذلك يجعلون معه آلهة أخرىٰ يصرفون لها العبادة التي هي حق الله علىٰ العبيد.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير كما في «تيسير العزيز الحميد» (ص١٦٠)، و«الفتح» (ص١٢١)، وأورده ابن كثير في تفسيره(٤/ ٣٤٢).

(٢) انظر «فتح المجيد» (١/ ٢٣٧).

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٢).

ثم إن حذيفة رضي الله عنه استدل بها على أن تعليق السير، أو الخيط لدفع المرض من الشرك؛ أي: ذلك الرجل مسلم موحد، ولكنه وقع منه شرك بهذا التعليق وربط هذا الخيط، حيث تعلق قلبه به، وظن أنه ينفعه أو يخفف عنه من الحمى أو من الأمراض، مع أنه خيط أو سير عادي؛ أي: مخلوق، لا يتصرف في نفسه، فكيف يدفع عن غيره؟

وهذا التعليق من الشرك الأصغر، ولكن حذيفة لم يتساهل مع ذلك الرجل، فبادر بقطع الخيط، وأزال المنكر بيده، ولم ينتظر إزالة صاحبه له، مبادرة إلى محو الشرك، واستدل عليه بهذه الآية التي نزلت في الشرك الأكبر، لعموم الآية لنوعي الشرك، ففيه دليل على أن هذا التعليق والربط بهذا الاعتقاد داخل في عموم الشرك الذي حرمه الله، وتوعد عليه بالعذاب، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٧]

باب:
ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح، عن أبي بشير الأنصاري: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ـ أو قلادة ـ إلا قُطعت».

وعن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، رواه أحمد، وأبو داود.

وعن عبد الله بن عُكَيم، مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»، رواه أحمد، والترمذي.

(التمائم): شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

و (الرقى): هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و (التولة): شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى الإمام أحمد، عن رويفع، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أن من عقد لحيته، أو تقلد وتَرَاً، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمداً بريئ منه».

وعن سعيد بن جبير، قال: من قطع تميمة من إنسان، كان كعدل رقبة. رواه وكيع.

وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقى والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء، هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
ما جاء في الرقى والتمائم

أي: ما جاء في حكمها وما يجوز منها وما لا يجوز، وما وقع فيه خلاف.

والمراد بالرقى: القراءة على المرضى، باستعمال النفث والنفخ عليه، مع قراءة آيات أو غيرها.

وقد تقدم في باب: (من حقق التوحيد) حديث بريدة بن الحصيب بلفظ: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[1]، وقد فسرها المؤلف هنا بالعزائم، و ذلك أن الراقي يعزم على قراءته ويجزم، فيقرأ بقوة، ويستمر في القراءة مدة طويلة أو قصيرة، مع النفث على المريض.

وقد اختلف في حكمها، فجاء في الباب السابق إباحتها بحديث: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»، كما جاء تركها والتورع عنها في قوله ﷺ في صفة السبعين ألفاً: «**هم الذين: لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[2]،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٤ / ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، وأبو داود برقم (٣٨٨٤). والترمذي برقم (٢٠٥٧). عن عمران بن حصين.

وأخرجه أحمد (١ / ٢٧١)، وابن ماجة برقم (٣٥١٣)، عن حصين بن عبد الرحمن، قال الهيثمي رجال أحمد ثقات. وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٢٤٤٨): إسناده صحيح.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٥٧٠٥، ٥٧٥٢) مطولاً، وبرقم (٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١)، مختصراً، ومسلم برقم (٢٢٠)، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وانظر شرحه وتخريجه في الباب الثاني، باب (من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب).

متفق عليه، وهو مدح لهم على ترك طلب الرقية، وأنهم بهذه الصفات استحقوا دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

● **ومع ذلك فالجمهور على جواز الرقية المباحة، لكن بشروط ثلاثة:**

* **الأول:** أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، أو بالأدعية المأثورة السالمة من الشرك.

* **الثاني:** كون الرقية باللسان العربي، وما يعرف معناه، فلا تجوز بلغة مجهولة، ولا بحروف مقطعة أو منكسة، ولا بكلام لا معنى له في الظاهر.

* **الثالث:** أن يعتقد أن الرقية لا توثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

وقد ثبت أن النبي ﷺ رقى بعض أصحابه(١)، ورقاه جبريل عليه السلام(٢)،

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ: كان يرقي بهذه الرقية: «**أذهب الباس، رب الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت**». أخرجه مسلم برقم (٢١٩١)(٤٩).

وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أتى المريض يدعو له: «**أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**». أخرجه البخاري برقم (٥٦٧٥)، ومسلم برقم (٢١٩١)(٤٨).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن و الحسين، ويقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**». أخرجه البخاري برقم (٣٣٧١). وغيرها من الأحاديث.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢١٨٥). من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل، قال: باسم الله يبريك، ومن كل داءٍ يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت؟ فقال: «**نعم**». قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك. أخرجه مسلم برقم (٢١٨٦).

وروى مسلم في صحيحه عن عوف بن مالك قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**أعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**»(١).

وعن أنس قال: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحمة والنملة(٢)، رواه مسلم.

وثبت في الصحيح عن أبي سعيد قصة الصحابة الذين نزلوا بحي من أحياء العرب، فلدغ سيد الحي، فرقاه أبو سعيد أو أحد أولئك الصحابة بفاتحة الكتاب فشفي بإذن الله، وأعطوهم على ذلك جعلاً، فقال النبي ﷺ: «**وما أدراك أنها رقية**»، ثم قال: «**اقسموا واضربوا لي معكم سهماً**»(٣)، وقال: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى**»(٤).

وقد ثبت في الرقية أدعية كثيرة:

* **منها**: حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ ينفث على نفسه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيده نفسه رجاء بركتها(٥)، وفي رواية: كان إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾، وبالمعوذتين جميعاً، ثم يسمح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده، قالت: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به(٦)، رواه البخاري.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٧٣٦)، ومسلم برقم (٢٢٠١).

(٤) أخرجه البخاري برقم (٥٧٣٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري برقم (٥٧٥١)، ومسلم برقم (٢١٩٢)(٥١).

(٦) أخرجه البخاري برقم (٥٧٤٨)، ومسلم برقم (٢١٩٢).

* وله عن أنس، قال: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ: «**اللهم رب الناس، مذهب الباس، أشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»(١).

* وله أيضاً عن عائشة: كان النبي ﷺ يقول في الرقية: «**بسم الله تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفى سقيمنا، بإذن ربنا**»(٢).

* وروى الإمام أحمد(٥/ ٣٢٣) برقم(٢٢٧٥٥)، عن عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ قال: «**إن جبريل عليه السلام رقاني برقية برئت: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من حسد كل حاسد وعين، بسم الله يشفيك**»(٣).

وهناك الكثير من الأدعية التي ورد استعمالها في الرقية الشرعية، وهي تدل على جواز جنس الرقية وفائدتها.

وقد روى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا: يا رسول الله إنه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب؛ فعرضوا عليه، فقال: «**ما أرى بأساً، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه**»(٤).

وقد تمسك قوم بهذا العموم فأجازوا كل رقية جربت فنفعت، لكن لابد من الشروط الثلاثة المتقدمة.

وليعلم أن تأثير الرقية الشرعية يكون بحسب إيمان الراقي وصلاح نيته، واستقامته، وسلامة معتقده، وبعده عن المحرمات، فمتى كان الراقي حافظاً لكتاب الله وما تيسر من السنة النبوية، ومشتغلاً بتلاوة القرآن وتدبره، وكان

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٤٢).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٧٤٥)، ومسلم برقم (٢١٩٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٣).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢١٩٩)(٦٣).

محافظاً على العبادات، مبتعداً عن المعاصي والمكروهات، يتقرب إلى الله تعالى بعد الفرائض بالنوافل، ويتزود من الحسنات، ويحفظ نفسه وأهله ومنزله من الملاهي والأغاني وأسباب الفساد، وكان سليم الاعتقاد، بعيداً عن البدع والمحدثات، فإنه بإذن الله يكون لرقيته الأثر الظاهر في شفاء المريض، وفي علاج الأمراض المستعصية كالمس، والسحر، والعين، ونحوها كما نُقل من ذلك وقائع فيها أعجب العجائب من أفراد طهروا عقائدهم من الأدناس، وبطونهم من الحرام، والمشتبه، وألسنتهم من الإثم والكذب والزور، وصانوا أعراضهم مما يقدح فيهم، حتى أن منهم من إذا نفث في الإناء مرتين امتلأ بإذن الله وفاض ما فيه.

أما الكثير من أهل الرقية في هذه الأزمنة فإنهم جهلاء بحقوق الله تعالى وبكتابه وشرعه، يتصدى أحدهم للعلاج بالرقية بمجرد ما يسمع آية أو دعاء، ويظن أنه بلغ الذروة، ولهذا يقل تأثير الرقية معهم.

وقد يكون السبب في عدم التأثير كون المريض من أهل المعاصي والفساد، إما بامتلاء منزله من الملاهي وآلات الأغاني، وإما بما يقترفه من الذنوب ويتركه من الواجبات، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]؛ فيدخل في الذين (لا يؤمنون) من إيمانهم ضعيف يحصل معه كثير من المعاصي، وترك الطاعات.

وأيضاً فإن من أسباب تأثير الرقية أن يجزم المريض بأنها هي السبب الوحيد لشفاء ما به من ألم، ويعتقد أن القرآن والأدعية النبوية مؤثرة ومفيدة بإذن الله لأهل الإيمان، لقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فأما الذي يستعمل الرقية كتجربة قائلاً: إن لم تنفع فإنها لا تضر، فَقَلَّ أن يستفيد منها، وهو الغالب من كثير من الناس؛ حيث يتتبعون القراء، ويدفعون الأموال ثم لا يجدون لذلك أثراً، بسبب الشك في تأثيرها أو بسبب ضعف الإيمان، والله المتسعان.

■ قوله: [**في الصحيح ،عن أبي بشير الأنصاري: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر ـ أو قلادة ـ إلا قُطعت»**(1)]:

يعني: أن ذلك وقع في بعض الغزوات أو نحوها من الأسفار، وكأنه ذُكر للنبي ﷺ أن بعض المسلمين لم يزل عندهم شيء من العادات الجاهلية في تعليق الأوتار ونحوها في رقاب الإبل، فبعث أحد الصحابة وأوصاه أن يقطع ما وجده من الأوتار المعلقه في رقبة أي بعير، تطهيراً للمسلمين من هذا الاعتقاد الذي يؤدي بهم إلىٰ الشرك، ولو كان من الأصغر؛ حيث أنه ينقص التوحيد.

وقوله: «**في بعض أسفاره**»، لم تعين تلك السفرة، ولا يترتب علىٰ الجهل بها أو العلم بعينها حكم.

فأما (**الرسول**) الذي بعثه فهو زيد بن حارثة مولىٰ رسول الله ﷺ، وقد قتل في غزوة مؤتة رضي الله عنه، أمره أن لا يُبقي شيئاً من القلائد في رقاب الإبل، وخص في الرواية الصحيحة قلائد الأوتار.

والمراد (**بالوتر**): شرعة القوس، وهو الحبل الذي يُربط به القوس الذي يستعمل الرمي به للصيد أو في القتال، يعمل من الصوف أو من الليف، كما في قول الحجاج:

---

(1) أخرجه البخاري برقم (٣٠٠٥)، ومسلم برقم (٢١١٥).

والقــوس فـــيــهـــا وتر عـــرد

مـــــثل ذراع البكـر أو أشـــــد

ثم إن هذا الوتر إذا اخلولق علقوه في رقاب الإبل، أو في رقاب الأولاد، يتقون به العين، ويزعمون فيه البركة والحماية، وذلك أنه استعمل كثيراً في النكاية بالعدو وحماية الديار، فيتبركون به، و يعلقونه في رقاب الإبل، أو الخيل، ويدعون أن له التأثير في الحماية والحراسة، والحفظ عن العين والأضرار، فأمر النبي ﷺ في هذا الحديث بقطعها، فإن هذا الاعتقاء شرك، حيث ظنوا هذا الوتر يؤثر بنفسه في حماية الأنفس والأموال والإبل، كما اعتقدوا ذلك في التمائم، فأخبرهم النبي ﷺ أنها لا ترد من أمر الله شيئاً، وأمرهم أن يتوكلوا على الله، فمن توكل على الله كفاه.

■ قوله: [**وعن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، رواه أحمد، وأبو داود**(١)]:

هذا الحديث رواه الإمام أحمد (١ / ٣٨١) برقم (٣٦١٥)عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود، قالت: دخل عبد الله فجلس إلى جنبي فرأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قلت: خيط رُقي لي فيه، فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم**

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٨٣)، وأحمد (١ / ٣٨١)، وابن ماجة برقم (٣٥٧٦)، وابن حبان (٧ / ٦٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤ / ٢١٧، ٤١٨)، والطبراني في «الكبير» برقم (١٠٥٠٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩ / ٣٥٠).

قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٣٦١٥): إسناده حسن.

والتولة شرك»، فقلت له: لم تقول هذا، وقد كانت عيني تقذف، فكننت أختلف إلى ذلك اليهودي يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده فإذا رقيتها كف عنها، إنما كانت يكفيكِ أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: «**أذهب الباس، رب الناس، أشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**»(١).

وكذا أخرجه ابن ماجه برقم (٣٥٣٠) به مطولاً، ورواه أبو داود في الطب واختصره، وحسنه أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٣٦١٥) عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله، وقال: لم يعرف اسمه، ولكنه تابعي، فهو على الستر وقبول حديثه، وسكت عنه أبو داود فهو عنده صالح.

■ **قوله**: [**وعن عبد الله بن عُكَيم، مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»، رواه أحمد، والترمذي**(٢)]:

هذا الحديث رواه أحمد برقم (١٨٧٣٦) عن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي

---

(١) هذا الدعاء «أذهب الباس . . . . .» ثبت أيضاً عن عدد من الصحابة، وقد سبق تخريجه في أول هذا الباب، وانظر تخريج الحديث السابق.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٠، ٣١١)، والترمذي (٢٠٧٣)، والحاكم (٤/ ٢١٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٥١).

قال الترمذي: حديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث ابن أبي ليلى. أ. هـ. **وقال ابن البنا في** «الفتح الرباني» (١٧/ ١٨٨): قلت: هذا الحديث لا تقل درجته عن الحسن لا سيما وله شواهد تؤيده. **وقال الألباني**: في «غاية المرام» رقم (٢٩٧): حسن، وذكر أن له شاهداً عن الحسن البصري مرسلاً أخرجه ابن وهب في «الجامع» ص١١٣ أخبرني جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول: فذكره مرفوعاً. وهذا إسناد مرسل صحيح.

ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه**».

أخرجه النسائي (٧/ ١١٢)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٣٨)، والمزي في «تهذيب =

ليلي، قال: دخلنا على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده، فقيل له: لو تعلقت شيئاً؟ فقال: أتعلق شيئاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه».

وكذا هو في سنن الترمذي في كراهة التعليق من كتاب الطب.

وهذا يعم التعاليق من القرآن وغيره، ويدخل فيه تعليقها على الصبيان والدواب، والسيارات والمنازل، والصغار والكبار، ويعم تعلق القلب بها، والاعتماد عليها، واعتقاد أنها تحرس وتقي صاحبها من العين والحسد، والجان، والعاهات، والأمراض، والبلايا، والمصائب، والحوادث، فمن فعل ذلك وكله الله إليها، ومن وكله الله إلى مخلوق فقد وكله إلى ضيعة وخسارة، ولن تغني عنه تلك التعاليق شيئاً، وبذلك يكون قد صرف هذا التعلق والتعظيم لمخلوق، فيكون شركاً.

وقد روى الإمام أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: أوحى الله إلى داود: «يا داود أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من

= الكمال» (٢ / ٦٥٤)، من طريق عباد بن ميسرة المنقري عن الحسن البصري عن أبي هريرة مرفوعاً به.

وأخرجه ابن مردوية في «التفسير» كما في «الدر المنثور» (٦ / ٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢ / ٢٨٠) رقم (١٤٩٢)، وحسنه ابن مفلح كما في «قرة عيون الموحدين» ص(١٣٧)، و«فتح المجيد» ص (٤٠٢)، وفي «الآداب الشرعية» (٣ / ٧٨)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / ٣٢): رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، ولم يسمع منه عند الجمهور. أ.هـ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٧١٤)، وقال الذهبي في «الميزان» (٢ / ٣٧٨): هذا الحديث لا يصح للين عباد وانقطاعه.

وسيأتي تخريجه إن شاء الله في الباب الرابع والعشرين (باب: بيان شيء من أنواع السحر).

عبادي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي أوديتها هلك»[1]. هكذا ذكره الشارح[2] وغيره.

وظاهر الحديث أن التعلق بالله يحصل بتعلق القلب بالرب سبحانه، بحيث يفوض أمره إليه، ويرضىٰ به حسيباً ووكيلاً، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ويحصل التعلق علىٰ مخلوق كأن يتعلق رجاءه بفلان، و يفوض أمره إليه، ويعتقد أنه سيقوم بكفايته ورزقه وحمايته، ولا يخطر ربه بقلبه، فيكله الله إلىٰ ذلك المخلوق.

---

(١) قال محقق كتاب «فتح المجيد» الدكتور الشيخ الوليد بن فريان: لم أقف عليه في كتاب «الزهد» ولا في «المسند» للإمام أحمد. ثم قال: وأخرجه من غير هذا الطريق أبو نعيم في «الحلية» (٤ / ٢٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» رقم (٤٩٦)... الخ.

وقد أورده ابن كثير في «تفسيره» (٣ / ٣٧٠) عند تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. نقله عن وهب بن منبه.

قال العلامة الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢ / ١٣٢) رقم: (٦٨٨): أخرجه تمام الرازي في «الفوائد» (٥ / ٥٨ / ٢) من طريق يوسف بن السَّفْر عن الأوزاعي عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعاً.

ثم قال: وهذا موضوع، المتهم به ابن السَّفْر؛ فإنه ممن يضع الحديث كما تقدم، ولعله من الإسرائيليات التي تلقاها كعب بن مالك عن بعض مسلمة أهل الكتاب، ثم نسبه هذا الكذاب إلىٰ رسول الله ﷺ.

ثم قال: والحديث عزاه السيوطي في «الجامع» لابن عساكر وحده، وهذا قصور واضح، ولم يتكلم عليه شارحه المناوي بشيء.

(٢) أي شارح كتاب «فتح المجيد».

● وقد فسر المؤلف رحمه الله تعالى هذه الثلاثة:

*** فأما (التمائم): فقال المؤلف رحمه الله تعالى: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه:**

وقد ذكرنا في الباب قبل هذا المراد بالتمائم، وكيفية تعليقها، والتعلق عليها، والاعتقاد فيها، ومتى يكون شرك أكبر وأصغر.

فأما إذا كانت من القرآن فقد ذكر الشارح في تيسير العزيز الحميد جواز ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، وأبي جعفر الباقر، وأحمد في إحدى الروايتين، وهو ظاهر اختيار ابن القيم، وقاسوا ذلك على الرقية بأسماء الله وصفاته وكلامه، وحملوا النهي على التمائم الشركية.

وقالت طائفة: لا يجوز التعليق مطلقاً، وبه قال ابن مسعود وأصحابه، وابن عباس، و حذيفة، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن عكيم، و غيرهم، وهو الرواية الثانية عن أحمد اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون لهذا الحديث وما في معناه، حيث عمم في التمائم، ولم يفرق بين القرآن وغيره.

والفرق بين الرقية والتعليق أن التعليق لا بد فيه من أوراقٍ ومدادٍ وخرقٍ وخيوطٍ وجلودٍ وسيورٍ، وكلها قد يعتقد فيها، وأما الرقية فهي مجرد كلام يقرؤه الراقي وينفث بعده.

ورجح صاحب فتح المجيد المنع مطلقاً، وكذا الشيخ ابن قاسم في حاشية التوحيد، لوجوه:

*** الأول:** عموم النهي عن التمائم والتعاليق، كحديث: «**من تعلق شيئاً وكل**

إليه»[١]، وحديث: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[٢]، ولا مخصص لهذا العموم.

* **الثاني**: سد الذريعة، فإن من علق القرآن فقد يفضي به الأمر إلىٰ تعليق ما ليس من القرآن، ومن قواعد الشرع سد الذرائع، فإن التعاليق ذريعة إلىٰ الشرك لتعلق القلوب بها.

* **الثالث**: أن من علقها فلا بد أن يمتهنها، ويدخل بها بيوت الخلاء، والأماكن المستقذرة التي ينزه عنها كلام الله تعالىٰ، كما ورد النهي عن دخول الخلاء بما فيه ذكر الله تعالىٰ.

* **الرابع**: أن من علقها تعلق قلبه بها، مع أن فيها الخرق أو الجلود أو الخيوط والسيور، والورق والمداد مما هو مخلوق، ومن تعلق بذلك وكل إليه.

* **الخامس**: أنه ﷺ كان يرقي ويُرقىٰ، فلو كان التعليق مباحاً من القرآن لأمر به ولفعله، ولم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة ما يدل علىٰ تعليق الآيات علىٰ الصدر أو الدابة أو نحوها لطلب الاستشفاء بها، فإنه ينافي التوكل والإخلاص.

فأما تعليقها في المجالس والمكاتب أمام الداخل والخارج، فإن كان القصد منها الاستفادة من معانيها، وتذكير من قرأها بما تتضمن من المواعظ والارشادات، فهو مقصد حسن، ويلحق بها علىٰ هذا القصد تعليق الحكم والفوائد والنصائح، ولو من غير الكتاب والسنة، لحصول الفائدة منها، ويعم ذلك تعليقها في المجالس، والسيارات ونحوها.

وأما من قصد منها التبرك والحماية، والحفظ والحراسة من الأضرار

---

(١) سيأتي تخريجه مفصلاً قريباً في هذا الباب.

(٢) انظر تخريجه في الباب السادس (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط).

والأمراض، فإن ذلك داخل في النهي، كالذي يجعل في سيارته مصحفاً أو كتاب أدعية، لاعتقاده أنه يحرسها من اللصوص والعين، والحسد والجن ونحو ذلك، فكلة تعلق بغير الله، فيدخل في الشرك المذكور في هذا الحديث.

*** وأما (الرقى) فقال المؤلف رحمه الله: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة[1]:**

وقد سبق في باب: (من حقق التوحيد) ذكر الحديث بذلك، وفي أول هذا الباب ذكرنا الجائز من الرقى، ويراد بالشرك فيها ما فيه توسل بأسماء الشياطين والجن، فإن السحرة والكهنة والمشعوذين يستعملون في الرقى أنواعاً من الشرك بدعاء غير الله، وذكر أسماء بعض الشياطين ومردة الجن، كما يستعمل ذلك السحرة في السحر والكهانة، فكل رقية فيها تلك الأسماء، أو فيها كلام لا يعرف معناه، فهي من الشرك، وكذا الاعتماد على الرقية، واعتقاد أنها تؤثر بنفسها دون إرادة الله وقدرته، بخلاف الرقية بأسماء الله تعالى وصفاته، والأدعية النبوية، والآيات القرآنية التي ورد الأمر باستعمالها في الرقية.

*** وأما (التولة): فقال المؤلف رحمه الله: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته:**

أي: أنه من عمل السحرة الذين يتقربون إلى الشياطين ومردة الجن حتى يتمكن من قلب الزوج أو الزوجة، فيتعلق كل منهما بالآخر، ويزيد في القرب منه، ولا يقدر على فراقه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤ / ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٦)، والترمذي برقم (٢٠٥٧)، وأبو داود برقم (٣٨٨٤)، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما.

وأخرجه أحمد (١ / ٢٧١)، وابن ماجه برقم (٣٥١٣)، عن حصين بن عبد الرحمن. قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات. وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٢٤٤٨): إسناده صحيح.

وقد حكىٰ لنا بعض المشايخ أن امرأة دخلت عليها إحدىٰ السواحر فأعطتها دواء يجلب لها محبة زوجها ولكن المرأة أطعمته كبشاً، ثم إن ذلك الكبش تعلق بها، فلا يقر حتىٰ يجعل رأسه في حجرها، فذبحوه فوجدوا رأسه مليئاً بالدواء الذي لا يستقر معه إلا بالالتصاق بها.

ولا شك أن الشياطين لهم تمكن من النفوذ في جسد ابن آدم، والوصول إلىٰ قلبه، فلا يستبعد أن يحدث في قلب الإنسان محبة زائدة، أو كراهية شديدة، وهو ما يسمىٰ بالصرف والعطف؛ أي: صرف بعض الناس عن أحبائه، بوقوع الوحشة بينه وبينهم، ونفرته منهم، واستئناسه بالبعد عنهم، أو العطف الذي هو تعلقه بمحبوبه، وشدة التصاقه به، بحيث لا يقدر علىٰ فراقه، وكل ذلك بقضاء الله تعالىٰ وقدره الكوني، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

■ **قوله: [وروى الإمام أحمد، عن رويفع، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أن من عقد لحيته، أو تقلد وتَراً، أو استنجى برجيع دابة، أو عظم؛ فإن محمداً بريئ منه»[1]]:**

روىٰ هذا الحديث الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بأسانيد متعددة، يقوي بعضها بعضاً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٠٨، ١٠٩)، وأبو داود رقم (٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٩١).

وأخرجه من طريق آخر النسائي (٨/ ١٣٥)، والبيهقي (١/ ١١٠)، وإسناده صحيح، كما في «النهج السديد» (ص٦٢).

وقد قال الشيخ ابن جبرين حفظه الله: روىٰ هذا الحديث الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بأسانيد متعددة يقوي بعضها بعضاً.

وهذا الصحابي من الأنصار، وقد طالت به الحياة حتى مات سنة ست وخمسين للهجرة عن عمر مديد.

أمره النبي ﷺ أن يبلغ ما علمه من هذا الحديث، وكذا غيره، ففيه وجوب البيان، وتعليم الناس ما يجهلونه عند مسيس الحاجة إلى ذلك، وقد وردت أحاديث في وجوب البلاغ كحديث: «**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**»[١] ونحوه.

* **أما عقد اللحية**، فقيل: أنه ما يفعله بعض الأعاجم الذين تطول لحاهم، فيعقدونها تكبراً وإعجاباً في الحرب ونحوه، فنهى عن ذلك لتحريم الكبر، أو لمنع التشبه بالأعاجم.

وقيل: إن عقدها هو معالجة الشعر حتى يتجعد، وتنعقد كل شعرة إلى نفسها، والجعد في شعر الرأس هذا السبط، وهذا التجعيد من فعل أهل التأنث، والتشبه بالنساء، ولا شك أن حلقها أو تقصيرها أولى بالنهي، لأنه تشبه ظاهر بالإناث، وقد لعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء[٢].

وحمل بعضهم عقد اللحية على عقدها في الصلاة، كما ورد به رواية في الحديث، وذلك عبث وشغل في الصلاة.

* **أما تقلد الوتر**، فقد عرفنا أن الوتر هو: شرعة القوس؛ أي: الحبل الذي يعقد فيه؛ أي: من جعله كالقلادة في عنقه للتبرك به، واعتقاد أنه ينفع، ويحمي من الشرور والآفات، وذلك من فعل الجاهلية، وهو الشاهد من الحديث، لأن

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٦٧)، ومسلم برقم (١٦٧٩)، عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٨٨٥). عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تعليقه في الرقبه أو على الدابة شرك، لأنه تعلق بمخلوق، ومن تعلق شيئاً وكل إليه[١].

وأما الاستنجاء فإنه مسح أثر الخارج من السبيل للطهارة، وقد ورد النهي عن استعمال العظم ورجيع الدابة في الاستنجاء[٢]، وعلل بأنهما لا يطهران[٣]، أو أنهما طعام المؤمنين من الجن[٤]، وقد ذكر ذلك الفقهاء في باب آداب دخول الخلاء.

* وقوله: «**فإن محمداً بريء منه**»: هذا وعيد شديد لمن فعل شيئاً من هذه المذكورات، وظاهره أنه بريء من ذلك العامل، لأنه بلغه النهي فأصر وعاند، وتظاهر بالمعصية، ويكون هذا من أحاديث الوعيد، التي وردت للزجر عن اقتراف المحرمات، والتحذير من التساهل بها.

وقيل: إن المعنى بريء من فعله، وهو عقده للحية تكبراً أو تأنثاً، وتقلده الوتر اعتقاداً أنه يؤثر بنفسه، ويدفع الشر بطبعه، واستنجاؤه بالروث الذي هو زبل الدابة مأكولة أو غير مأكولة، لنجاسته أو لقذراته، أو لأنه علف لدواب الجن، وكذا العظم لمأكول الدواب أو غير المأكول، إما للزوجته وكونه لا يزيل الأذى، أو لأنه طعام لمؤمني الجن.

ومعتقد أهل السنة أن الكبائر لا تخرج من الملة، وأن أصحابها وإن دخلوا

---

(١) يشير الشيخ إلى حديث عبدالله بن عكيم الذي سبق تخريجه في هذا الباب.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢)، من حديث سلمان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارقطني (١ / ٥٦). وقال إسناده صحيح، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يستنجى بعظم أو روث. وقال: إنهما لا يطهران.

(٤) أخرجه مسلم برقم (٤٥٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

النار فإنهم لا يخلدون فيها، فعلىٰ هذا البراءة منهم تفيد الزجر والتنفير عن هذه المحرمات، حتىٰ لا يتهاون بها المؤمن فيدخل في الوعيد.

■ **قوله: [وعن سعيد بن جبير، قال: من قطع تميمة من إنسان، كان كعدل رقبة»(١)، رواه وكيع]:**

والمراد بالتميمة العوذة التي تعلق في العنق أو العضد، يعتقد فيها أنها تجلب الخير أو تدفع الشر بنفسها، وذلك شرك بالله، وقد سبق حديث عقبة بلفظ: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»(٢)، وذلك لأنه يعلق قلبه بهذه الخرزات ونحوها، ويكل أمره إليها، فمن قطعها منه فقد أنقذه من هذا الشرك، فكأنه أعتقه من النار، فيكون له أجر من أعتق رقبة؛ أي: حررها وأزال الرق عنها في الدنيا، وقد جاء الحديث أن: «**من أعتق رقبة مؤمنة أعتقه الله بكل جزء منه جزءاً منه من النار**»(٣).

ثم إن هذا الأثر قاله سعيد بن جبير، وهو من كبار التابعين، وتلامذة الصحابة، وقد جزم بالحكم، فلا بد أن عنده دليل علىٰ هذا الحكم، فلذلك قال العلماء: أن له حكم المرفوع، ولو كان من تابعي، فهو دليل علىٰ فضل قطع التمائم من المعلقين لها، لإنقاذهم من الشرك.

■ **قوله: [وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن(٤)]:**

أي: روىٰ وكيع بن الجراح رحمه الله عن إبراهيم بن يزيد النخعي، ومراده

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» رقم (٣٥٢٤).

(٢) سبق تخريجه في الباب السادس (باب من الشرك لبس الحلقة و الخيط).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٥١٧)، ومسلم برقم (١٥٠٩). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥١٨).

أن أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه يكرهون جميع التمائم، ولو كانت من القرآن، أي: كراهة تحريم، حيث تلقوا عن ابن مسعود النهي عن تعليق كل تميمة، وحيث روى الحديث المرفوع أن التمائم من الشرك[1]، فلذلك كانوا يحرمونها، ويمنعون من تعليقها.

وأصحاب ابن مسعود تلامذته الذين تلقوا العلم عنه في الكوفة، ورووا عنه كثيراً، ومنهم علقمة، والأسود، و أبو وائل، والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خثيم، وغيرهم، وكانوا مشهورين بالعلم الصحيح، وموثوقين من ثقات التابعين، وذلك دليل على أن التعاليق كلها مكروهة كراهة تحريم، لما سبق من الأدلة في عموم النهي عنها، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

---

(١) سبق تخريجه في هذا الباب.

[٨]

باب:
من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وعن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلكم»، رواه الترمذي وصححه.

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم الأمر، بل رد عليهم بقوله: «**الله أكبر إنها السنن لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا**﴾.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى «لا إله إلا الله»، مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر»، فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

الثامنة عشرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن ما ذم الله به اليهود والنصارىٰ في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه متقرَّر عندهم: أن العبادات مبناها علىٰ الأمر فصار فيه التنبيه علىٰ مسائل القبر. أما «من ربك؟» فواضح، وأما «من نبيك؟» فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما «ما دينك؟»، فمن قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا﴾، إلىٰ آخره.

الحادية والعشرون: أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤْمَنْ أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة، لقولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر».

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
من تبرك بشجرة أوحجر ونحوهما

التبرك: قصد البركة التي هي كثرة الخير.

وصفة التبرك بالشجرة ونحوها أن يتمسح بها أو يستصحب شيئاً من أوراقها أو أغصانها، أو يتبرك بما مسها من ماء أو تراب لاعتقاده أن الشجرة أثرت فيه بركة ونفعاً، بحيث يحصل من آثار ذلك بركة في الرزق ونماء فيه، أو جلب نفع أو دفع ضر.

ويلحق بالشجر والحجر ما قد يعتقد فيه البركة كالقبور والقباب، والبقاع والعيون ونحوها، فإن الكثير من الناس قد يعتقدون في بقعة من الأرض البركة بسبب أن أحد الأولياء بات فيها أو دفن حولها، وكذا يتبركون بعين أو بئر لاعتقادهم أنها نالت البركة بقربها من أحد الأولياء، أو أن منهم من بصق فيها، أو سقط فيها خاتمه أو نعله ونحو ذلك، ثم هم مع ذلك يستجلبون بها الخير، ويظنون أنها تعصمهم من السوء، أو تدفع عن عهم كيد الأعداء، أو تغنيهم عند الافتقار، أو تشفي مرضاهم، وتحفظ أموالهم.

ولا شك أن هذا كله مما يوقع في الشرك، حيث يعظمون ما ليس بعظيم، ويعلقون آمالهم على مخلوق ضعيف، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره.

ثم إن هناك بعض المخلوقات كعيسى والمطر ونحو ذلك بما وصفه الله بالبركة، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ١٠]، وهو المطر، فإن

من بركته أثره على الأرض، بحيث ينبت النبات، وتكثر من آثاره الخيرات، ومع ذلك لا يعتقد فيه أنه يؤثر بذاته، فمن شرب منه للتبرك اعتقد أن الله هو الذي أنزل فيه البركة، ولو شاء لنزعها منه.

وهكذا يقال في ماء زمزم، حيث ورد أنه: «**طعام طعم وشفاء سقم**»[1]، وأنه لما شرب له[2]، فالله هو الذي أنزل فيه البركة، وجعل فيه شفاء السقم، ولا يجوز الاعتقاد أنه يشفي بنفسه، ويجوز أن ينزع الله منه ما وضعه فيه من البركة.

وقد تكون خاصة بالمؤمنين وأهل التوحيد، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**﴾ [فصلت: ٤٤]؛ فأخبر بأن القرآن الذي هو كلام الله تعالى شفاء للمؤمنين دون غيرهم، فكذلك يقال في ماء المطر وماء زمزم هي: بركة لأهل الاعتقاد الصحيح، وتوحيد الرب تعالى، دون الكفار والمشركين.

وأما تبرك الصحابة بالنبي ﷺ، فقد روى البخاري في كتاب الشروط عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم حديث الشروط في صلح الحديبية، وفيه: ثم إن عروة أبي ابن مسعود جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم برقم (٢٤٧٣)، مطولاً، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
أما قوله: «وشفاء سقم» فقد أخرجها أبو داود الطيالسي في «المسند» (ص٨١) برقم (٤٥٧).

(٢) قوله: «أنه لما شرب له». وردت في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته يشبعك أشبعك الله به، و إن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة جبريل وسقيا إسماعيل**». أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٨٩) برقم (٢٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٧٣).
ووردت أيضاً في حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له**». أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٧، ٣٧٢)، وابن ماجة برقم (٣٠٦٢). وصححه السيوطي، والألباني في «إرواء الغليل» رقم (١١٢٣).

تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه.. إلخ، زاد ابن إسحاق: ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه[(١)]، قال الحافظ في الفتح: وفيه طهارة النخامة والشعر... إلخ[(٢)].

وفي حديث أبي جحيفة المتفق عليه: فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به[(٣)]، وفي لفظ: ورأيت الناس يتبدرون ذاك الوضوء، فمن أصاب منه شيئاً تمسح به، ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه[(٤)]... الخ.

ولكن هذا التبرك من خصائص النبي ﷺ؛ حيث لم يفعلوه مع أبي بكر ولا عمر ولا العباس ولا أحد بعد النبي ﷺ، فلا يجوز أن يتمسح بأحد من الناس لا بعرقه ولا بثيابه.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾** [النجم: ١٩-٢٣]]:

والمعنى: أخبروني عن حال هذه الأصنام التي كنتم تعظمونها، وتتبركون

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في شروط الصلح في الحديبية وما حدث فيها برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) انظر «فتح الباري» لابن حجر (٥/ ٤٠٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم (١٨٧). ومسلم برقم (٥٠٣)(٢٥٣) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٧٦). ومسلم برقم (٥٠٣)(٢٥٠) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

بها، و ترجون نفعها، فأي فائدة فيها، وما أثر تعظيمكم لها، وهذه أسماء أوثان كان المشركون يعبدونها قبل الإسلام.

● **فأما اللات فهي**: طاغية أهل الطائف، والتي يفتخرون بها ويعظمونها، ويتمسحون بها، ويعكفون حولها، ويذبحون لها، ويحلفون بها.

وهي عبارة عن صخرة كبيرة منقوشة وملونة، وحولها فناء واسع، ينيحون فيه، ويطوفون بتلك الصخرة، ويتقربون إليها بما يمكنهم، ولابد أن الشيطان يكلمهم من داخلها، ويخبرهم ببعض المغيبات، ويقضي بعض حوائجهم، حتىٰ يُمَكِّنَ حبها وتوقيرها من قلوبهم، ولأجل ذلك لما أسلموا طلبوا من النبي ﷺ أن يمتعهم بالطاغية سنة؛ أي: يتركها لهم، فامتنع من ذلك، ثم إنه بعث إليها المغيرة بن شعبة فهدمها، وحطم الصخرة، وأزال أعلامها، وبنىٰ موضعها مسجد للصلاة، واضمحل أثر تلك الطاغية[١].

وقد روي عن ابن عباس، وغيره أنه قرأها: (اللاتّ)، بفتح التاء وتشديدها[٢].

وسيأتي في باب: (**ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يعيدها أوثاناً**)[٣]، ما رواه ابن جرير عن مجاهد في اللات، قال: كان يلتّ لهم السويق فمات فعكفوا علىٰ قبره[٤]، وعن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج[٥].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) الباب رقم (٢٠)

(٤) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٧/ ٥٨).

(٥) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٩) في «التفسير» عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾.

فعلىٰ هذا كان أصل هذه الطاغية هذا الرجل الصالح الذي يخدم الحجاج ويكرمهم، ويطعمهم السويق بعد أن يخلطه بسمن أو نحوه.

وعلىٰ القراءة المشهورة ذكروا أنهم اشتقوا اسمها من الإله فأنثوها لكون الاسم ينصرف إلىٰ الصخرة.

● **وأما العزى فهي**: اسم لشجرات في وادىٰ نخلة بين مكة والطائف، وكانت قريش ومن حولها تعظم العزىٰ ويحلفون بها، وافتخر بها أبو سفيان يوم أحد؛ حيث رفع صوته بقوله: لنا العزىٰ ولاعزىٰ لكم، فقال النبي ﷺ: «**قولوا الله مولانا ولامولى لكم**»(١)، وكانوا يتمسحون بتلك الشجرات ويتبركون بها، ويعكفون عندها، ويحلفون بها، ولها في قلوبهم قدر ومكان كبير.

ولاشك أن هناك ما يدفعهم إلىٰ تعظيمها، فقد يسمعون من داخلها أصواتاً تجيب سؤالهم وتخبرهم ببعض الأشياء الغائبة التي تطلع عليها الشياطين، ونحو ذلك مما يكون سبباً في تمسكهم بدعائها والذبح لها والطواف بها، مع أنها في الظاهر سَمُرَات(٢) عادية، لا فرق بينها وبين سائر الشجر، لكن الشيطان له غرض في تعظيمها، ليوقعهم في الشرك والكفر.

ثم إن النبي ﷺ لما فتح مكة بعث إليها خالد بن الوليد فقطع السمرات، وهدم البيت الذي عليها، ثم أتىٰ النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**»؛ فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها أمعنوا في الجبل، وهم يقولون: يا عزىٰ يا عزىٰ، فأتاها خالد فإذا أمراة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب علىٰ رأسها، فعلاها بالسيف حتىٰ قتلها، ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**تلك العزى**»، أي: أن هذه المرأة شيطانة تتكلم في أصل تلك

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٣٩). من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) سَمُرَات: جمع سَمُرَة وهي شجرة الطلح، ويطلق علىٰ الشجر العادي.

الشجرات، وتخبر من يقصدها ببعض المغيبات، فبقتل تلك الشيطانية من الجن بطل ما يتعلقون به(١).

● **وأما مناة فهي**: بناية تقع بالمشلل عند قديد، بين مكة والمدينة، كانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، ويهلون منها بالحج أو بالعمرة.

قيل: إنهم اشتقوا اسمها من الله المنان، وقيل: سميت بذلك لكثرة ما يمنى، أي: يراق عندها من دماء القرابين، ذكروا أن النبي ﷺ بعث إليها علياً بعد فتح مكة فهدمها(٢).

ثم إنه يلحق بها ما يعظم من البنايات والقبور والأضرحة، وتبنى عليها القباب، وتوضع عليها الأستار، ويقصدها العامة والخاصة يتمسحون بجدرانها، ويهتفون بأسمائها، وينحرون عندها النحائر، ويحلقون الرؤوس بخضوع وخشوع، ويصرفون لها خالص حق الله من العبادة والتضرع، والتعظيم، ولو سموها مشاهد أو مزارات، فلا يخرجها ذلك عن كونها أصناماً وأوثاناً، ولو سموا أفعالهم عندها تبركاً وتوسلاً واستشفاعاً ووساطة، فإنه في الحقيقة شرك ظاهر، ودعاء لغير الله، فإن العبرة بالحقائق لا بالأسماء.

● وبعد أن ذكر تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله ويعظمونها، ويصرفون لها خالص حق الله، أشار إلى بعض اعتقاداتهم، وهو أنهم جعلوا لله ولداً، وجعلوا ذلك الولد أنثى، حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، وقد كانوا يأنفون من الإناث، بل قد يقتل بعضهم البنات، كما قال تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ**

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٥٤)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٦ / ١٢٦).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٤ / ٢٥٣، ٢٥٤)، وغيره.

كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٧ ـ ٥٩]؛ فذكر أن بعضهم إذا ولدت له الأنثى كره ذلك، واسود وجهه، واستخفى من قومه، ثم تارة يمسكها على هون وذل واحتقار لها، وأحياناً يقتلها، أو يدفنها في التراب، وهو (وأد البنات)، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

● ثم أخبر بأن هذه القسمة ﴿ضِيزَىٰ﴾؛ أي: جائرة مائلة غير عادلة، حيث فضلوا أنفسهم على الرب العظيم الذي هو خالقهم ومالكهم، ولهذا أخبر بعد ذلك عن تلك الأصنام والمعبودات التي تقدمت، وهي اللات، والعزى، ومناة، وبيّن أنها مجرد أسماء لقبوا بها تلك الأحجار والأشجار، والبنايات التي قلدوا فيها آباءهم وأجدادهم، واخترعوا لها تلك الأسماء التي ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، فليس لهم حجة ولا برهان، ولا دليل يتمسكون به في عبادتها وتعظيمها، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾، أي: إنهم يتبعون ظنهم وتخمينهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]، وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»(١)، متفق عليه.

والظن هاهنا هو التخرص والتخمين، ثم البناء على ما ظنه واعتقده حقاً، فهؤلاء ظنوا المنفعة في تلك الأصنام، فأقدموا على عبادتها بلا دليل يجزمون به.

وهكذا أخبر بأنهم يتبعون أيضاً هواهم: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾؛ أي: ما تميل إليه وتستحسنه، مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وفي الحديث: «حبك الشيء يعمي ويصم»(٢)، رواه أحمد وأبو داود، وقال

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠٦٦)، ومسلم برقم (٢٥٦٣). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٤)، وأبو داود برقم (٥١٣٠) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

أبو أمامة: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما عبد تحت السماء إنه أبغض إلى الله من الهوى»(١)، ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

● ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: البيان الواضح، وهو هذا القرآن الكريم الذي أنزل على محمد ﷺ، فمن اتبعه اهتدى، ومن خالفه ضل وهوى، والله أعلم.

■ قوله: [وعن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلكم»، رواه الترمذي وصححه](٢):

ذكر هذا الصحابي رضي الله عنه أنهم خرجوا مع النبي ﷺ غزاة بعد فتح مكة سنة ثمان، وتوجهوا إلى حنين لغزو هوزان، وكان كثير منهم من مسلمة الفتح، أو قريب عهدهم بالكفر وعبادة الأشجار والأحجار، ولم يتمكنوا من معرفة ما

---

(١) انظر «تفسير القرطبي» (١٦ / ١٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد في المسند (٥ / ٢١٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٦٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٦)، وابن جرير (٩ / ٣١، ٣٢)، وأبو يعلى (٣ / ٣٠)، وابن حبان (١٨٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٢٩٠، ٣٢٩٤)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٣ / ٥٣٣).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه ابن حجر في الإصابة (٤ / ٢١٦). وصححه الأرناؤوط في «جامع الأصول» (١٠ / ٣٤).

يقرب من الشرك، وقد عرفوا أن للمشركين من هوزان ونحوهم شجرة كبيرة من السدر، يعظمونها ويتبركون بها، ويعكفون عندها، وقد جعلوا في أغصانها خيوطاً أو حبالاً كهيئة العرىٰ، يعلقون فيها سيوفهم ورماحهم وأقواسهم، زعماً منهم أنها تكتسب قوة وتأثيراً، ونكاية بالعدو، ويشتد وقعها، وتنالها بركة تلك الشجرة.

ويسمون تلك الشجرة ذات أنواط، فظن أولئك المسلمون الجدد أن فعلهم جائز ومفيد، وأن المسلمين بحاجة إلىٰ مثل تلك الشجرة، فبعد أن مروا بسدرة تشبه سدرة المشركين تذكروا تلك، فطلبوا من النبي ﷺ أن يأذن لهم في اتخاذ سدرة يختارها لهم، يعملون معها ما يعمله المشركون في تلك السدرة.

ولكن النبي ﷺ استغرب هذا الطلب، وكبر الله وعظمه عن هذا العمل، وأخبرهم بأن هذه المقالة وهذا الطلب شبيه بقول بني إسرائيل لموسىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، مع أن بني إسرائيل قد رأوا الآيات والمعجزات، وقد أنجاهم الله من فرعون، وأغرق آل فرعون بمرأىٰ منهم، ومع هذا طلبوا من موسىٰ أن يجعل لهم إلهاً مثل أولئك الذين يعكفون علىٰ أصنام لهم.

ثم إن النبي ﷺ أخبر بأن هذه الأمة سوف تركب سنن المشركين قبلهم، وتفعل كما فعلوا، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ، فحدث في هذه الأمة الشرك والغلو في الأموات، ودعاؤهم مع الله، وتقليد اليهود والنصارىٰ، واعتقاد أن ما فعلوه هو عين الصواب، فالله المستعان.

● فقوله: «عن أبي واقد الليثي»: ذكر الترمذي أن اسمه الحارث بن عمرو، وفي اسمه خلاف كما في الإصابة، قيل: أنه شهد بدراً، ولعل الصواب ما في

هذا الحديث أنه أسلم سنة ثمان أو نحو ذلك، حيث ذكر أنه مع الذين هم حدثاء عهد بكفر لما خرجوا إلى حنين.

وحنين موضع مشهور بين مكة والطائف، كانت فيه الغزوه المذكورة في القرآن بين المسلمين وهوزان، التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، الآية، وكانت في آخر سنة ثمان بعد فتح مكة.

● ومعنى قوله: و«نحن حدثا، عهد بكفر»؛ أي: قريب عهدهم بالشرك، فلم تطل مدة بقائهم في الإسلام ليعرفوا ما ينافي التوحيد أو ينقص ثوابه، وهذا اعتذار منهم عن هذه المقالة التي حملهم الجهل عليها، وهو دليل على أن من قبلهم قد عرفوا حقيقة التوحيد، ولا يخفى عليهم حكم اتخاذ الشجر للتبرك به.

● وقوله: «وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط»: يمكن أن يريد بالمشركين هوزان وثقيف الذين لم يسلموا إذ ذاك، ويجوز أن يريد غيرهم من الكفار.

والسدر من أفضل شجر العضاه، ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، وذكره في شجر الجنة بقوله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨]، وفي قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ [النجم: ١٤].

وذكرت في حديث الإسراء أن نبقها كقلال هجر؛ أي: ثمرها الذي يؤكل.

ووقع في مسند أحمد في هذا الحديث: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، وفي رواية له: اجعل لنا هذه ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط... الخ.

والعكوف: طول الإقامة حول الشيء، وكان المشركون يلازمون أصنامهم، ويطيلون الإقامة والبقاء حولها، تعظيماً لها، كما قال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، وقال عنهم: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وكان أولئك المشركون يطيلون البقاء حول تلك السدرة، تبركاً بها، وتعظيماً لها.

● وقوله: «**وينوطون بها أسلحتهم**»؛ أي: يعلقونها عليها، وسموها ذات أنواط، حيث جعلوا في أغصانها عرىً من الحبال أو الخيوط فيعلقون بها الأقواس والسيوف ونحوها، يزعمون أنها تنالها بركة تلك الشجرة، فتكون أقوىٰ وأنكىٰ ضرباً عند القتال.

● وقوله: «**فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط**»: أرادوا الخير وظنوا أنه لا حرج في ذلك، ولم يكونوا متعمدين لطلب الشرك، فلما رأوا تلك السدرة العظيمة توهموا أن اتخاذها لتعليق الأسلحة بها أمر جائز أومفيد، فلذلك طلبوا الإذن أن يجعلها لهم ذات أنواط لغرض التبرك بها.

● وقوله ﷺ: «**الله أكبر**»: هكذا عند الإمام أحمد، وللترمذي: «**سبحان الله**» قالها استنكاراً واستغراباً لصدور هذه المقالة منهم بعد إسلامهم، وكثيراً ما يسبح النبي ﷺ ربه أو يكبره لغرابة بعض المقالات أو الحوادث، وقد يقول ذلك تعظيماً لربه تعالىٰ وتنزيهاً له عن الإشراك به أو صرف شيء من التعظيم والتأله لغيره.

● وقوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾**»: هكذا أقسم ﷺ وهو الصادق المصدوق، وأراد بذلك تحقيق هذا التشبيه؛ أي: أن طلبكم لنصب هذه الشجرة لتعظيمها والتبرك بها شبيه أو قريب

من طلب بني إسرائيل أن يجعل لهم موسىٰ إلاهاً؛ أي: صنماً يعكفون عنده، مع التفاوت بين المقصدين في النية، ولا شك أن بني إسرائيل لو عصوا موسىٰ ونصبوا لهم صنماً إلاهاً يعبدونه لكفروا بذلك، وهكذا لو أن هؤلاء الصحابة خالفوا نهي النبي ﷺ واتخذوا شجرة لتعظيمها والتبرك بها لعصوا الله ورسوله.

● وقوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»؛ أي: طرق الأمم قبلكم وعاداتهم، وتفعلون كأفعالهم، وقد وقع ما أخبر به ﷺ؛ حيث ركبت هذه الأمة ما ركبته الأمم السابقة، ووقعوا في الشرك وعبادة غير الله، وهذا تحذير منه ﷺ من مثل هذه الأعمال، وبيان لأنواع الشرك حتىٰ يبتعدوا عنها، فلقد بلّغ ﷺ وحذر وأنذر، فقامت الحجة علىٰ الخلق، وانقطعت المعاذير، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٩]

باب:
ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عن علي بن أبي طالب، قال: «حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى مُحْدِثاً، لعن الله من غير منار الأرض»، رواه مسلم.

وعن طارق بن شهاب: أن ر سول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذُباب، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً، قالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»، رواه أحمد.

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه، ومنه تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوىٰ محدثاً؛ وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق الله، فيلتجيء إلىٰ من يجيره من ذلك.

السادسة: لعن من غير منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي علىٰ سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك علىٰ القتل ولم يوافقهم علىٰ طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**».

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتىٰ عند عبدة الأوثان.

الشرح

باب:
ما جاء في الذبح لغير الله

الذبح قد يكون من الأمور العادية، وقد يكون عبادة لله، وقد يكون عبادة لغير الله.

● **فالذي من الأمور العادية**: هو ذبح الناس الدواب التي يريدون أكلها، وهذا هو الذبح العادي، وله شروط معروفة، يكون بها ذلك الحيوان المذبوح حلالاً إن تمت الشروط، أو حراماً إن فقدت الشروط أو بعضها.

فلقد أباح الله للإنسان بهيمة الأنعام ينتفع بها ويأكل منها، كقوله تعالىٰ: ﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ**﴾ [المائدة: ١]، وكقوله تعالىٰ: ﴿**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [النحل: ٥]؛ يعني: من بهيمة الأنعام، التي هي: الإبل، والبقر، والغنم، وكذا ما يشبهها من الصيد ونحوه، و كذلك الطير المباح ونحوه باستثناء ما ورد تحريمه.

لكن نهىٰ عن ما لم يذكر اسم الله عليه، فقال تعالىٰ: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢١]، إذ لما نزل تحريم الميتة أوحىٰ الشيطان إلىٰ المشركين أن يقولوا لمحمد وأصحابه: كيف تزعم يا محمد أن ذبحك حلال وذبح الله حرام؟ أليس الله هو الذي أمات الميتة وذبحها، فكيف تكون حراماً؟! وما ذبحته أنت تزعم أنه حلال، فعند ذلك أنزل الله: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ [الأنعام: ١٢١]، وأنزل: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾ [الأنعام: ١١٨، ١١٩].

وأخبر بأن الميتة حرام؛ وذلك لأنها لم يذكر اسم الله عليها، و لأنها متعفنة

محبوس فيها الدم الذي هو مضر ومحرم، فأما إذا ذبحت ذبحاً شرعياً، فإن هذا الذبح يبيحها ويحلها.

* شروط الذبح الشرعي:

ذكر العلماء رحمهم الله للذبح أربعة شروط حتى يكون المذبوح حلالاً، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: ذكر اسم الله: فيذكر اسم الله عند الذبح بقوله: (باسم الله)، وإن زاد بقوله: (والله أكبر)، فهو أفضل، ولا يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأن المقام ليس مقام رحمة، إنما يقتصر على باسم الله، وتقديره: (باسم الله أذبحها)، أو: (باسم الله أستحلها)، أو: (باسم الله استعين على ذبحها)، أو: (بسم الله أتبرك بذبحها)، ونحو لك، كما يؤمر أن يذكر اسم الله عند الأكل وعند الشرب وعند اللباس، وغيره؛ لأن اسم الله به تحل البركات، وبنزعه تنزع البركة.

الشرط الثاني: أهلية الذابح: وهو أن يكون مسلماً أو كتابياً، فإن كان مشركاً أو ملحداً أو منحرفاً غير متمسك بإسلامه كالمرتد ردة مكفرة، أو نحوه، فإنها لا تحل ذبيحته؛ لأن الله لم يبح إلا ذبح المسلم وذبح الكتابي، بقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥]، ويعني بطعامهم: ذبائحهم، كما اتفق على ذلك المفسرون من السلف ومن بعدهم.

وذلك لأن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من شرعهم ومن ديانتهم ذكر اسم الله تعالى عند الذبح، ومن شرعهم عدم حل الميتة التي تذبح بغير ذبح شرعي، فمن أجل ذلك أباح الله تعالى ذبحهم لتمام الشروط فيه.

أما ذبح المشرك حتىٰ ولو ذبحها ذبحاً كاملاً كذبح المسلم، حتىٰ ولو ذكر اسم الله عليها، فإن ظاهر النص الاقتصار على المسلم أو الكتابي، وتحريم ذبائح المشركين والملحدين والشيوعيين والمرتدين، وسائر أنواع الكافرين.

الشرط الثالث: الآلة التي تذبح بها: بأن تكون حادة القطع سريعة في الذبح.

وقد جوز النبي ﷺ الذبح بكل ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه، لما استأذنه بعض أصحابه أن يذبحوا بالقصب، ولم يكن معهم (مُدىً)؛ أي: السكاكين فقالوا: إنا لاقوا العدو غداً، وليس معنا مُدىً، أفنذبح بالقصب، قال: «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه**»؛ أي: الشيء الذي يقطع جلدة الحلق، ويسيل الدم، فإنه يُحِلُّ الذبيحة، ثم استثنىٰ فقال: «**ما لم يكن سن ولا ظفر**»، ثم علل بقوله: «**وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة**»[1]، فهم يذبحون بأظفارهم؛ أي: إن أحدهم يطيل ظفره ثم يذبح به، فنهىٰ أن يذبح بالظفر حتىٰ ولو عصفوراً ونحوه، ونهىٰ أن يذبح بسن.

وتعليله بذلك ـ أيضاً ـ يفهم منه أنه لا يجوز الذبح بالعظم، لأنه قال: «**أما السن فعظم**» فلا يذبح بالعظم، أما بقية ما يذبح به من حديد ومن أعواد ومن قصب ومن حجارة ومن خشب، وما أشبه ذلك، فإنه يحل الذبح به.

الشرط الرابع: أن يُقطع الحلقوم والمرئ والودجان من الذبيحة: فإذا لم تقطع هذه الأشياء فلا تحل، وبالأخص مجرىٰ الطعام، وهو: المريء، ومجرىٰ النفس وهو: الحلقوم، فلا بد من قطعهما، فلو اقتصر علىٰ قطع مجرىٰ النفس وتركها حتىٰ ماتت لصارت ميتة، وكذلك يتأكد من قطع الودجين، وهما عرقان بجانبي

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٨٨)، ومسلم برقم (١٩٦٨)، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

المريء الذي هو مجرىٰ الطعام، وبقطعهما يخرج الدم باندفاع.

أما كيفية الذبح: فقد أمر النبي ﷺ بالإحسان عند الذبح بقوله ﷺ: «**وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**»[1]، أمرنا أن نريح الذبيحة؛ أي: إذا أراد أن يذبح لابد أن تكون السكين حادة قوية سهلة القطع حتىٰ لا تتعذب الذبيحة وتتألم كثيراً.

واختلف: هل يقطع عظم الرقبة حتى يسرع الموت أم لا؟

فمنهم من استحب قطع عظم الرقبة إلىٰ أن يقطع المخ، وعللوا ذلك بأنه أسرع في إزهاق الروح، وأسرع لموتها وعدم تألمها.

ومنهم من قال: لا يقطع الرقبة؛ بل يقتصر علىٰ قطع هذه الأشياء، ونحوها، وقالوا: إذا طالت حياتها دقيقة أو دقيقتين مثلاً كان ذلك سبباً لخروج بقية الدم من عروقها وسيلانه، وعلىٰ كل حال فالأمر واسع إن قطع الرقبة، أو تركها.

هذه هي شروط الذبح الحلال، وهو ما يسمىٰ بالذبح للحم.

● فأما إذا ذبحت الذبيحة لغير الله ـ وهو المراد بالباب ـ فإنها تكون حراماً لأنها عبادة لغير الله، ولو تمت شروط الذبح التي تقدمت، فإذا جاء إنسان وقال: أنا مسلم أو أنا كتابي من أهل الكتاب ومعه ذبيحة كشاة، أو نحوها، ومعه سكين حادة، وذبحها، وقال: باسم الله، وقطع الحلقوم والمريء والودجين، وكان ذبحه لها تعظيماً لقبر أو تعظيماً لميت أو لبقعة أو نحو ذلك، فإنها تصبح حرامًا؛ لأنها مما أهل به لغير الله.

---

(١) رواه مسلم برقم (١٩٥٥)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

ويقع كثيراً الذبح لمخلوقين من كثير من الجهلة، فيتساهلون بذلك، أو يتعمدون ذلك، وقد ذكر لنا كثيراً أن بعضهم إذا اشترىٰ سيارة ذبح عندها، ويقول: إن هذا الذبح يزيل أثر العين، أو الحسد، ونحوهما، أو يحل البركة فيكون ذبحاً لغير الله، وليس ذبحاً للحم، وهناك في بعض البلاد عيون تنبع من الأرض، وأهل تلك البلاد يذبحون لهذه العين حتىٰ لا تتوقف، فيذبحون لها كل أسبوع ويزعمون أنهم إذا لم يذبحوا لها غارت وتوقف جريانها، وهم ينتفعون بها، فيسقون بها نخيلهم، وأشجارهم، فهذا ذبح لمخلوق.

وكذلك يُذكر أن الكثير منهم إذا أراد أن يستوطن داراً، أو يسكنها، ذبح عند عتبة الباب، ويزعم أن هذا الذبح يقيه من دخول الجن أو السباع أو اللصوص أو غيرها.

وهكذا إذا أراد حفر بئر ذبح في مكانها زاعماً أن الجن تسد عيونها حتىٰ لا ينبع الماء إن لم يفعل ذلك.

أو إذا أراد بناء دار وتأسيسها ذبح في أساس الحيطان التي يريد أن يبنيها، ويزعم أن هذا يحصل به بركة أو يحصل به دفع شر أو أذىٰ.

وكل هذا من الذبح لغير الله، يدخل في هذا الباب، وقد قال فيه النبي ﷺ: **«لعن الله من ذبح لغير الله»**(١).

● **وعلى هذا فأقسام الذبح هي:**

القسم الأول: أن يكون مباحاً،وهو ما تقدمت به الشروط، وكان قصده من ذبحه أكل اللحم فقط.

---

(١) سيأتي تخريجه ـ إن شاء الله ـ في هذا الباب.

والقسم الثاني: **أن يكون حراماً**، وهو ما ذبحه وتمت فيه الشروط أو لم تتم، ولكن قصده تعظيم هذه البقعة.

والقسم الثالث: **ما ذبحه للأكل**، ولكنه اختلت فيه الشروط فهو حرام لاختلال الشروط.

والقسم الرابع: **ما ذبحه باسم مخلوق مع تمام الشروط للحم**، ولكن قال عليها: باسم المسيح أو باسم البدوي، أو ما أشبه ذلك، فمثل هذا أيضاً ذبح على غير اسم الله، فلا يكون حلالاً؛ بل يكون حراماً؛ وذلك لكونه داخلاً في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، ولأنه يصدق عليه دخوله فيما أهل به لغير الله.

القسم الخامس: **وهو أفضلها**، وهو ما ذبح لله تعالى وتوفرت فيه الشروط، مثل القرابين والأضاحي ونحوها إذا قصد بها التقرب إلى الله تعالى، وكان الذابح مسلماً، وذكر اسم الله، والآلة حادة، وتمت الشروط، فإنه يكون من أحلها وأفضلها.

فالإنسان إذا توقى ما هو حرام واقتصر على ما هو حلال؛ فإن الله تعالى جعل بدل الحرام ما يقوم مقامه.

• كما أن الذبح يكون عبادة كذبح الهدايا والقرابين والأضاحي والصدقة التي تذبح لله ولمرضاة الله وفي سبيل الله وباسم الله، فذابحها يؤجر ويثاب على ذبحها.

فكل عبادة يتقرب بها إلى الله لا تصلح لغيره، وإذا صرفت لغير الله كان ذلك الفعل شركاً، وإذا عرفت أن هذا الشيء عبادة فإن التقرب به إلى الله طاعة وتوحيد، وصرفه أو صرف بعضه لغير الله شرك، وكفر بالله عز وجل.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]:

تقدم أن الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، بل صرفها لغير الله شرك، وهذه الآيات من الأدلة على كون الذبح عبادة؛ لأن الله قرنه بالصلاة في هاتين الآيتين[١]، الآية الأولى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي...﴾، والآية الثانية: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

والآية عامة في كل الصلوات؛ أي: لا تصل إلا لله فكما أنك لا تصلي إلا لله، فكذلك لا تذبح ولا تنحر إلا تقرباً إلى الله لا إلى غيره، فلا تتقرب بالذبح لمخلوق؛ ولا تتقرب بالذبح لبقعة أو لشجر أو لحجر أو لميت، أو نحوه؛ بل تقرب بالذبح تعظيماً لله كما أن الصلاة لله، كما في هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾، والنسك: هو الذبح، كما في قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

قال مجاهد في قوله: ﴿صَلاتِي وَنُسُكِي﴾، قال: النسك: الذبح في الحج والعمرة، وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾: وذبحي، وكذلك قال الضحاك[٢].

فالمعنى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي﴾ لله، ﴿وَنُسُكِي﴾؛ أي: ذبحي لله ﴿وَمَحْيَايَ﴾؛ أي: ما آتيه في الحياة هو لله ﴿وَمَمَاتِي﴾؛ أي: ما أموت عليه ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ﴾، فإذا كانت هذه كلها لله، فإن صرفها لغير الله يعتبر شركاً؛ لأن هذا هو شأن كل عبادة يتقرب بها إلى الله، فإن صرفها لغيره شرك.

---

(١) يشير الشيخ إلى هذه الآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي...﴾، والآية الثانية التي تأتينا بعد هذه وهي قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٨).

■ **قوله: [وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]]:**

جمع الله تعالى في هذه الآية بين الصلاة والنحر، فإن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والذبح والنحر من أفضل العبادات المالية، قيل أن الصلاة هنا: جميع الصلاة المكتوبة والمندوبة، وقيل: أنها صلاة عيد النحر، وقيل المراد: الدعاء كله فإنه في اللغة صلاة.

وفسر النحر بنحر الأضاحي والهدايا، والصحيح أنه أعم من ذلك، فيدخل فيه نحر الصدقات والقرابين والهدايا ونحوها.

فالمعنى: اجعل صلاتك ونحرك كله لربك، ولا تجعل منه شيئاً لغيره، فدل على أن صرفه لغير الله شرك؛ لإنه خالص حق الله تعالى.

■ **قوله: [عن علي بن أبي طالب، قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى مُحْدِثاً، لعن الله من غير منار الأرض»[1]، رواه مسلم]:**

اللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمه الله، وذلك دليل على أنه ذنب كبير يستحق عليه اللعن، ويستحق عليه اللوم، وذلك لأنه تعظيم لغير الله.

● جاء في هذا الحديث اللعن على أربعة أشياء:

الأول: لعن الله من ذبح لغير الله.

الثاني: لعن الله من لعن والديه.

الثالث: لعن الله من آوى محدثاً.

الرابع: لعن الله من غير منار الأرض.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٨).

* **الأول : قوله : «لعن الله من ذبح لغير الله» :**

وسيأتي أن النبي ﷺ نهى أن يذبح في المكان الذي يذبح فيه المشركون لأعيادهم، أو لأوثانهم ولو كان الذبح لله، فكذلك الذبح لغير الله يكون بهذه المثابة، ولذلك قال : «من ذبح لغير الله» .

وقد سمى الله الذبائح قرابين، في قوله تعالى : ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧] ؛ فالذبائح : تسمى قرابين، والأضاحي والهدايا تسمى قرابين ؛ وذلك لأن العبد يتقرب بها إلى الله، كأنك تفترض أنك بعيد عن الله، وبعيد عن ثوابه، وبعيد عن أسباب رضاه، وهذه الأشياء والعبادات تقربك ؛ فكأنها تفتح لك الأبواب حتى تدخل، أو تجعلك قريباً بعد أن كنت بعيداً .

فالصلاة قربة ؛ لأنها تقربك إلى الله، والصدقة قربة ؛ لأنها تقربك بعد أن كنت بعيداً، كما أن المعاصي تُبعد عن الله تعالى وعن ثوابه، فكذلك الطاعات تسمى قربات .

ومن جملة تلك الذبائح التي تسمى قرابين : الأضحية، كما في قول ابن القيم :

شكر الضحية كل صاحب سنة
لله درك من أخي قربان

* **الثاني : قوله : «لعن الله من لعن والديه» :**

ولعن الوالدين ذنب كبير ؛ وذلك لأن فيه إساءة إلى من يستحق الإحسان ؛ فإن الوالدين لهما إحسان على ولدهما وجزاء الإحسان الإحسان، قال تعالى :

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، في عدة مواضع، فإذا قوبل هذا الإحسان بالإساءة، وقوبل بدلاً من الدعاء لهما والترحم عليهما بالسب والشتم واللعن؛ كان ممن بدل الحسنى بالإساءة، وبدل البر بالقطيعة وبالعقوق، وبدل الصلة بالقطيعة، فيكون مستحقاً لهذا اللعن والوعيد.

وليس هذا خاصّاً بالتصريح بأن يقول لأحدهما: أنت ملعون، أو عليك اللعنة، أو لعنك الله، فهذا ذنب كبير لو قاله، بل يعم ما إذا تسبب في إيصاله إليهما، فإنه يدخل في ذلك، ويكون من الكبائر، كما في الحديث، أنه ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم؛ يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[(١)].

والشتم: هو السب والقذف، فعقوق الوالدين من الذنوب التي يستحق فاعلها الوعيد.

*** الثالث: قوله: «لعن الله من آوى مُحْدِثاً»:**

ورواها بعضهم: «**من آوى مُحْدَثاً**»: بفتح الدال، والمحدِث: بكسر الدال، هو العاصي، والمحدَث: بفتح الدال، هو المعصية، ومعنى آواه: نصره؛ أي: حال بينه وبين أن يقام عليه الحد، أو يؤخذ منه الحق، أو يقتل إن كان قاتلاً، أو يقطع إن كان سارقاً، أو يرجم إن كان زانياً، أو ما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٩٧٣). ومسلم برقم (٩٠)، واللفظ له. من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وجاء اللعن صريحاً في الحديث الذي أخرجه الترمذي برقم (١٩٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وهو في صحيح الجامع برقم (٢٢١٤)، ولفظه: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، يلعن أبا الرجل فيلعن أباه، ويلعن أمه فيلعن أمه**».

فمثلاً إذا جاءك إنسان قاتل أو سارق، ثم أَجَرْتَهُ وعصمته وَحُلْتَ بينه وبين أن يؤخذ الحق منه، ويقام عليه الحد، فتكون قد آويت محدِثاً، فتدخل في قوله ﷺ: «لعن الله من آوى محدِثاً». وأيضاً فإن أهل الحق سوف يدعون عليك.

فيجب على المسلم أن يكون مساعداً لأهل الحق على العصاة، ولا يساعد العصاة على أهل الحق، «فمن آوى محدِثاً»، يعني: صار حرباً لله.

ويدخل في قوله: «من آوى محدَثاً» بالفتح، من دعا إلى المعاصي ومكنها؛ فإنه قد آوى المحدَث، كمن فتح أبواب العهور والفحش، وسعى في الأسباب التي يتمكن الناس فيها من المحدثات ومن المنكرات، وسعى في أسباب التبرج ودعوة النساء إلى أن يتبرجن، ويخلعن جلباب الحياء، أو سعى في تمكين الأغاني والملاهي حتى يشتغل بها الناس؛ فأتاح الفرصة للمنكرات حتى تنتشر؛ فهذا قد آوى المحدث، وكذلك من سعى في فتح أماكن الرقص وأماكن الغناء أو أماكن الزنا، أو سعى في حلول الفوضى حتى يختلط الناس ويخطف بعضهم بعضاً، ويسرق بعضهم بعضاً، ولا يكون هناك قوة تردع؛ فهذا قد آوى المحدث.

فمن آوى المحدَث بتمكينه من المعاصي بفتح أبوابها فهو مستحق للعن، ومن آوى المحدِث، بأن نصر العصاة بالحيلولة دونهم ودون أخذ الحق منهم، فقد آوى محدِثاً، وكل ذلك يستحق اللعن.

* **الرابع: قوله: «لعن الله من غير منار الأرض»:**

منار الأرض هي: الرسوم التي تحجز بين أرض وأرض، وهي عبارة عن علامات من الحديد، أو من حجارة، ينصبونها تفصل بين أرض هذا وأرض هذا؛ فيأتي إنسان ويقلع هذا النصب، ويقدمه في أرض جاره ليأخذ منه جزءاً قليلاً أو كثيراً، وذلك من الغلول والاقتطاع بغير حق، وهذا خيانة وسرقة

وغصب، وظلم عظيم، وذنب كبير، حتىٰ قال فيه النبي ﷺ: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين»(١)، وفي رواية: «من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»(٢)، وهذا جزاء الشبر، فكيف إذا اقتطع مئات الأذرع، أو مئات الأبواع؟ فإن هذا يعتبر أكبر وأكبر، بل أعظم وأشد.

ومعنىٰ «طوقه»: جُعل عنقاً في رقبته، ويأتي به يحمله كطوق العنق، وهذا - أيضاً - يدل علىٰ عظيم ظلم الناس.

والشاهد من الحديث هو: «لعن الله من ذبح لغير الله»، وبدأ به؛ لأنه شرك، والبقية معاص من كبائر الذنوب.

■ **قوله: [وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذُباب، ودخل النار رجل في ذباب»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئاً، قالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة»(٣)، رواه أحمد]:**

توعد النبي ﷺ في هذا الحديث علىٰ الذبح لغير الله بدخول النار، حيث

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٠) واللفظ له، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٥، ١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٣٥٨)، عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفاً بسند صحيح.

أخبر بأن رجلين قُتل أحدهما، وَسَلِمَ الآخر، فالذي قُتل دخل الجنة؛ لأنه سَلِمَ من الشرك، بسبب أنه طُلب منه أن يذبح ذبابة فامتنع، وقال لا أتقرب بها لأحد إلا لله. وأما الآخر فقد سلم من القتل لأنه فعل الشرك، حيث ذبح ذبابة تقرباً للصنم.

فالحاصل أن أحد هذين الرجلين قال: ليس عندي شيء أقربه، قالوا: قرب شيئاً يدل على تعظيمك حتى ولو ذباباً، فقرب هذا الذباب الحقير الدنيء، تعظيماً لذلك الصنم، فخلوا سبيله، وكان ذلك ردة منه وشركاً، فأصبح من أهل النار بسبب هذا التقريب، الذي هو تعظيم لشيء حقير.

أما الثاني: فإنه ما إن سمع ذلك، وعرف أن تعظيم هذا الصنم - ولو بهذا الشيء الحقير - شركٌ، فصمم، وقال: لا أقرب له ولا أعظمه، ولا أقرب إلا لله عز وجل، فعند ذلك قتلوه، وصبر على القتل، فكان جزاؤه أن دخل الجنة.

■ ■ ■ ■ ■

[١٠]

باب:
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

عن ثابت بن الضحاك، قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»، رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما».

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض؛ وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

اعلم أن الأماكن التي يُعصى الله فيها إذا قصدها المطيع فإنه يفتح للعصاة الأبواب فيقتدون به، ولو كانت نيته الطاعة.

وهذا الباب معقود للذبح، ولكن يراد به بقية الأعمال الصالحة، فالأماكن التي يذبح فيها المشركون لغير الله؛ مثل: ذبحهم للأصنام، وذبحهم للقبور، وذبحهم للعيون، وذبحهم للبركة في بقعة أو قبة، أو نحو ذلك، لا يجوز أن يذبح لله فيها، كذبح الأضحية أو الصدقة ونحو ذلك. والذبح لغير الله مما بينا من قبل أنه شرك بالله العظيم.

فإذا كان المشركون يذبحون عند هذا القبر تعظيماً له، فلا يجوز للمسلم أن يذبح فيه لله تعظيماً لله، كالأضحية، أو الصدقة، أو الهدي، وإن كان صحيح النية؛ لأنه لا يؤمن أن يقع في قلبه شيء من تعظيم البقعة، كما لا يؤمن أن يقتدي به الجهلاء، ويقولون: لقد رأينا فلاناً يذبح لهذا القبر أو نحوه، فيقعون فيما وقع فيه المشركون.

والمؤلف رحمه الله عقد هذا الباب للذبح، ولكنه عام في العبادات كلها، والدليل عليه الآية التي أوردها المصنف.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]:

نزلت هذه الآية في مسجد الضرار الذي أقامه المنافقون في المدينة، وقصدوا بذلك ما ذكر الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، ثم قال تعالىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾؛ أي: لا تقم في ذلك المسجد، فالرسول عليه الصلاة والسلام لو قام فيه فهذا القيام لا يكون إلا لله؛ فإنهم لما بنوه جاءوا للنبي ﷺ وقالوا: إنا قد بنينا عندنا مسجداً للضعيف، ولابن السبيل، ولنا في الليلة المطيرة، ونريد أن تأتينا فتصلي فيه، فقال النبي ﷺ: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»(١)، فلما قفل راجعاً من تبوك نزلت عليه هذه الآيات في مسجد الضرار، فأرسل إليه فَهُدِمَ.

وهذه الآية عامة لكل أماكن الكفر، وأماكن النفاق، وأماكن الشرك، لا يجوز أن يتعبد لله فيها؛ فالمكان الذي يقصده المشركون، ويذبحون فيه لهذا القبر أو لهذه البقعة، لا يقصده المسلم ليذبح فيه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد؛ أي: أماكن للصلاة، ومعلوم أن كل موضع يصلىٰ فيه فهو مسجد، ومعلوم أن من بنىٰ عليه مسجداً لا يقصد إلا أن يصلىٰ فيه لله، لكن لما كان قد يعظم، وقد يأتيه من يصلي فيه لغير الله، حسمت المادة ونهي عن ذلك نهياً كاملاً.

فالنهي عن مسجد الضرار أن يقام فيه خير مثال لبقية الأماكن التي يبنيها

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد (٢/ ٣٣٢)، وذكره ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٣٨٨)، عن ابن إسحاق عن الزهري، ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم مرسلاً، وضعفه الألباني في فقه السيرة، ص(٤٣٦).

المشركون أو المنافقون أو يقصدونها ويعبدون فيها غير الله، أو يبنونها لغير الله، فلا يقام فيها، ولا يصلىٰ فيها، ولا يتعبد فيها بأي نوع من أنواع العبادات.

■ **قوله: [عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر[1] إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»، رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما[2]]:**

هذا الحديث دليل علىٰ ما تقدم، وفيه أن هذا الرجل نذر نذراً لله ألزم به نفسه، فنذر أن ينحر إبلاً لله يتصدق بلحمها في موضع يقال له: بوانة، وهو مكان معروف هناك، فلما نذر هذا النذر الذي هو طاعة وتحقق شرطه، أو نذر نذراً مطلقاً توقف عنده حتىٰ يسأل أهل العلم، وذلك لأنهم لا ينفذون إلا بعدما يسألون عن الحكم، فذهب إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام وسأله ماذا ترىٰ في وفاء هذا النذر؟

والنذر هو: إلزام المكلف نفسه ما ليس واجباً عليه شرعاً تعظيماً للمنذور له.

والوفاء بالنذر إذا كان طاعة فهو واجب، وقد مدح الله أهله: ﴿يُوفُونَ

---

(١) قال الشيخ ابن جبرين: النحر: خاص بالإبل؛ ويكون في أصل الرقبة، مما يلي النحر. والإبل معروفة من بهيمة الأنعام، وهي التي تنحر، وكذلك كل ما له رقبة طويلة فإنه ينحر.

أما الذبح: فهو خاص بالبقر والغنم، ويكون في أصل الرأس، ويجوز ذبح ما ينحر، ونحر ما يذبح.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٣١٣)، قال شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١ / ٤٣٦): إسناده علىٰ شرط الصحيحين.

وأخرجه البيهقي (١٠ / ٨٣)، والطبراني في «الكبير» (١٣٤١)، قال ابن حجر في «التلخيص». (٤ / ١٨٠): حديث صحيح، وصححه الألباني في تخريج «المشكاة» (٣٤٣٧)، و«صحيح الجامع» (٢٥٤٨).

بِالنَّذْرِ﴾، وإذا كان معصية فلا يجوز كما سيأتي.

فمن أجل ذلك سأل هذا الرجل النبي ﷺ عن حكم الوفاء بالنذر في هذه البقعة، فسأله النبي ﷺ عن هذه البقعة، والتي اسمها (بوانه)، هل كان فيها قبل الإسلام وثن أو صنم يعبده المشركون ويقصدونه، ويذبحون فيه لغير الله؟ كوثن ينذرون له، ويطوفون به، ويدعونه، ويتمسكون بأركانه، ويتبركون به.

فقالوا: ليس فيها وثن.

ثم سأل بعد ذلك: هل فيها عيد من أعيادهم يقصدونها من أجله؟ يعني: المجتمعات التي يقصدونها ويجتمعون فيها ويعظمونها.

فقالوا: ليس فيها عيد من أعيادهم.

فعند ذلك أمره أن يوفي بنذره، وأخبره وأخبر غيره بأن النذر إذا كان نذر معصية فلا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر عيناً مملوكة لغيره، وليست ملكاً له -أي: للناذر- فلا يلزمه الوفاء به، ولكن في الجميع كفارة يمين، كما في قوله: **﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾** [المائدة: ٨٩].

* **وقوله: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟»**:

الوثن: كل ما يعبد من دون الله، ولكن إن كان له صورة أو تمثال سمي صنماً، وسمي وثناً، وإن لم يكن له صورة؛ بل يعبد لتصوره بالعقل، كمن يعبد الجن ومن يعبد الشيطان، فإنه يسمى وثناً، ولا يسمى صنماً.

والجاهلية: هي الوقت الذي قبل الإسلام، وسموا جاهلية لكثرة جهلهم، أو لأن عباداتهم كلها صادرة عن جهل.

* وقوله: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم**».

العيد: اسم لكل ما يعود ويتكرر من الاجتماع العام؛ إما بعود السنة، أو الشهر، أو الأسبوع، لذلك يسمى يوم الجمعة عيداً للأسبوع، ويوم الفطر عيد، ويوم الأضحى عيد، وأيام التشريق أيام عيد للمسلمين، فالشيء الذي يتكرر بعود السنة ونحوها يسمى عيداً.

وأهل الجاهلية كان لهم أعياد، وقد أبطلها الإسلام، فكانوا يجتمعون في بقاع خاصة، كالأسواق التي كانوا يجتمعون فيها كل سنة ثلاثة أيام أو نحوها، كما في الصحيح: أن مجنة وذو المجاز وعكاظ كانت أعياداً وأسواقاً يجتمعون فيها قبل الإسلام[1]، فجاء الإسلام ونسخها.

فالرسول عليه الصلاة والسلام سأل هل في هذه البقعة مجتمع يجتمعون فيه؟ ومعلوم أنهم إذا اجتمعوا فيه، فإنهم يعتقدون فيه أو يعظمونه، أو يعصون الله فيه، إما مثلاً بتفاخرهم وتكبرهم، أونحو ذلك من المعاصي، أو معاملاتهم السيئة والربوية، فلما أخبروه بأنه ليس فيها عيد من أعيادهم، قال: «**أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**».

فالنذر إذا كان في معصية الله لا يجوز الوفاء به، فمن نذر مثلاً أن يقتل فلاناً وقال: إن سلمت أو وصلت البلاد الفلانية فعلي أن أقتل فلاناً، فهذا ظلم، وحرام عليه أن يقتله، فإنه: «**لا وفاء لنذر في معصية الله**»، وكذلك إذا نذر أن يشرب خمراً أو يزني أو يسرق أو ينتهب مالاً أو نحو ذلك من المعاصي، أو يترك صلاة أو يمنع حقاً واجباً كزكاة أو كفارة، أو نحو ذلك من المعاصي «**فلا وفاء لنذر في معصية الله**».

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٩٨، ٤٥٢٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كذلك إن نذر عيناً ملكاً لغيره لم يلزمه الوفاء بها، مثل أن يقول: لله علي إن شفاني الله من هذا المرض أن أذبح شاة فلان، وهي ليست ملكاً له، أو قال: سوف أتصدق بثوب فلان، أو أوقف بيت فلان أو فرسه في سبيل الله، وهو ليس ملكاً له، لأنه لا يملك إلا ماله هو، فأما مال غيره فلا يقدرعليه، ولا يجوز له التصرف فيه، وإذا فعل فعليه كفارة يمين، لقوله ﷺ: **«لا نذر في معصية الله، وكفارته كفارة يمين»**[1].

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه أحمد (٦ / ٢٤٧)، وأبو داود برقم (٣٢٩٠، ٣٢٩١)، والترمذي برقم (١٥٢٤)، والنسائي (٧ / ٢٦، ٢٧)، وابن ماجه برقم (٢١٢٥). من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو حديث صحيح، صححه الألباني في «الإرواء» (٢٥٩٠).

[١١]

باب:

من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وفي الصحيح، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لايجوز الوفاء به.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
من الشرك النذر لغير الله

النذر: هو إلزام المكلف نفسه ما لم يجب عليه شرعاً تعظيماً للمنذور له.

والمكلف: هو الحر البالغ الرشيد، فإلزام الصغير نفسه بشيء لا يلزمه؛ لكونه غير مكلف، وإلزام السفيه أو المجنون ونحوه نفسه بشيء لا يلزمهم لفقد شرط التكليف.

ومعنى: إلزام المكلف نفسه ما لم يجب عليه شرعاً: أن يلزم نفسه لله أو لغير الله شيئاً لم يوجبه عليه الشرع، فإذا كان الذي أوجبه وألزم به نفسه قد أوجبه عليه الشرع فلا يسمى هذا نذراً.

فإذا قال إنسان: لله علي أن أصوم شهر رمضان، نقول: هذا لا يكون نذراً، بل يكون فرضاً شرعيّاً.

أما إذا قال: إن شفاني الله فللّه علي أن أعتكف عشر رمضان، فهذا يسمى نذراً؛ لأن الاعتكاف ليس بواجب شرعاً، وإنما أوجبه على نفسه.

والحاصل أن المكلف إذا أوجب على نفسه عبادة فإنه يلزمه الوفاء بها، وإذا أوجب على نفسه عادة من العادات فلا يلزمه الوفاء بها، بل يخير بين فعلها، وبين التكفير إذا تركها، أما إذا أوجب على نفسه فعل معصية، فإنه لا يجوز الوفاء بالمعصية، ولكن عليه أن يكفر كفارة يمين.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]]:

مدح الله تعالى عباده المقربين، بعد أن ذكر أن من ثوابهم في الجنة شرابهم من عين الكافور التي تمزج للأبرار، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-٧]؛ أي: أن الأبرار يمزج لهم الشراب بالكافور، فأما المقربون فإنها تصفى لهم فيشربون منها صرفاً.

ثم ذكر بعد ذلك بعض أعمالهم في الدنيا، ومنها قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾؛ أي: متى نذروا لله طاعة فإنهم يوفون بها، وهذا دليل على أن النذر عبادة وطاعة وقربة، يلزم بها المكلف نفسه، كصلاة، وصدقة، وحج، وصوم، واعتكاف، وطواف، وجهاد، وذكر، ودعاء، ونحوها؛ أي: يفعلون ما التزموا به، ويأتون به كاملاً، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وهو دليل على أن النذر عبادة يتقرب بها إلى الله، فلا يجوز صرفه لغير الله تعالى.

ثم وصفهم بأنهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، وهو يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والفزع، فيعملون الأعمال الصالحة، رجاء النجاة من شر ذلك اليوم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ١١]؛ أي: أمنهم فيه مما يخافون، والله أعلم.

■ قوله: [وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]]:

وهذه الآية تدل على أن النذر عبادة إذا التزم به فعل قربة أو طاعة، كقوله: لله علي أن أتصدق بمائة، أو إن شفى الله مريضي فللّه علي أن أحج وأعتمر، أو إن ربحت فعلي لله أن أصوم شهراً؛ أو أن أعتكف في المسجد الحرام عشراً، ونحو ذلك من القربات، فيلزمه الوفاء بها. فأخبر الله تعالى أنه يعلم ما ننفقه من النفقات، أو ننذره من النذور، وفي ضمن ذلك أنه يجازي عليه على حسب النية والعمل.

وإذا كان النذر جنسه طاعة لله تعالى، فإنه إذا صرف لغير الله صار شركاً بالله، وهو ما يفعله القبوريون من صرف النذور للأموات والأولياء، كقول أحدهم: إن شفي مريضي فعلي أن أسرج قبر السيد فلان ليلتين أو أكثر؛ أو إن رجع غائبي فعلي أن أذبح للقبر الفلاني، أو أهريق عليه سمناً؛ أو أصلي عند قبره ركعتين؛ ونحو ذلك مما فيه تعظيم لذلك السيد بما يذبح عنده، أو يتقرب إليه بسمن، أو إنارة، أو صلاة، أو سفر نحوه، ونحو ذلك مما هو شرك صريح، يدخل في النصوص التي تبين عاقبة المشركين.

■ **قوله: [وفي الصحيح، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»]**[(١)]:

النذر إما أن يكون مطلقاً أو معلقاً:

* **فالنذر المعلق:** هو الذي يعلق على شرط في المستقبل، ولا يلزم إلا إذا وجد ذلك الشرط، كأن يقول: إن شفى الله لي مريضاً، أو إن شفاني الله من هذا المرض، أو إن نجحت في دراستي، أو إن ربحت في تجارتي، أو إن رزقني الله

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٠٠).

ولداً ذكراً، فللّه علي أن أحج في هذا العام، أو فللّه علي أن أصوم عشرين يوماً، أو فللّه علي أن أصلي في هذه الليلة عشرين ركعة، أو فللّه عليّ أن أتصدق على المساكين بألف، أو فله علي أن أعتكف في ذلك المسجد شهراً أو عشراً، فهذا نذر عبادة، فإذا رزق ما شرطه لزمه الوفاء به، لأنه أوجب على نفسه عبادة، فلزمه الوفاء بما وعد به الله، فلا تخلف ما وعدت الله؛ حيث حقق الله لك ما طلبته.

ثم نقول: النذر إما أن يكون في طاعة، وإما أن يكون في معصية، وإما أن يكون في أمور مباحة.

● **فإن كان النذر في طاعة**، فإنه يجب الوفاء به، لأنه ألزم نفسه بشيء لم يوجبه عليه الشرع، فلو قال: لله علي أن أصوم عشرة أيام من كل شهر، أو أتصدق بألف كل شهر، أو اعتكف شهراً في المسجد الحرام أو المسجد النبوي، أو أن أعتمر كل عام في رمضان، أو أحج كل عام، ونحو ذلك، فإنه يجب الوفاء بمثل هذه الطاعات؛ لأنه أوجبها وألزم نفسه بها، لقوله ﷺ: **«من نذر أن يطيع الله فليطعه»**.

● **أما إذا كان نذر معصية**؛ فإنه يحرم الوفاء به لهذا الحديث، وهو قوله: **«ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**. فإن قال: إذا رد الله علي غائبي، أو نجحت، أو ربحت، فسأقتل فلاناً، أو أشرب الخمر ثلاثة أيام، أو أسرق، أو أزني، أو أفجر، فكل هذا من المعاصي، فلا يجوز الوفاء بها، سواء كانت المعصية ظاهرة أو خفية، وعليه في مثل هذه الحالة أن يترك المعصية، ويكفر كفارة يمين، لقوله: **«من نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**.

● **أما إذا كان ذلك النذر أمراً مباحاً**؛ فهو مخير بين فعله وبين الكفارة، كأن يقول: إن رزقني الله ولداً، أو إن نجحت، أو إن ربحت، ونحو ذلك، فعلي أن ألبس ثوباً بمائة، أو أن لا آكل إلا من هذا النوع من الطعام، أو أن اشترىٰ داراً واسعة، أو أن اشترىٰ سيارة بخمسين ألفاً مثلاً، ونحو ذلك، فهذه من الأمور المباحة، فمباح له أن يأكل من نوع كذا، وأن يلبس من نوع كذا، فلا يكون عبادة، فنقول له: أنت مخير بين أن توفي بنذرك، وبين أن تكفر كفارة يمين.

فإذا شق علىٰ المرء مثلاً شراء السيارة، أو لم يجد الثوب الذي نذر أن يلبسه، أو لم يستطع أن يتحول من هذا البيت، أو لم يستطع أن يدخل بيتاً صفته كذا وكذا، أو ما أشبه ذلك، فيكفر عن يمينه.

أما إذا كان مشتملاً علىٰ نذر طاعة ونذر مباح، فإنه يلزمه الوفاء بنذر الطاعة وله أن يترك المباح الذي لا فائدة فيه، وليس بعبادة، و عليه الكفارة، وقيل: لا تلزمه إذا وفىٰ بالبعض؛ ويستدلون بقصة أبي إسرائيل لما رآه النبي ﷺ واقفاً في الشمس، قال: «**لماذا وقف في الشمس؟**»، فقالوا: إنه نذر أن يصوم، وأن لا يستظل، ولا يقعد، ولا يتكلم، فقال النبي ﷺ: «**مروه أن يتكلم، وأن يجلس،وأن يستظل، ويتم صومه**»[1]؛ فلما كان الصوم عبادة أمره بأن يتمه، ولما كان ترك الكلام ليس بعبادة، وكذلك تعذيب النفس بترك الاستظلال، وتعذيب النفس بالقيام وعدم الجلوس؛ لا فائدة فيه، وليس من العبادات، نهاه عن ذلك، وأمره بأن يستمر فيما هو عبادة.

وكذلك إذا كان في النذر تعذيباً للنفس، فإنه يؤمر بتركه، ومن ذلك قصة

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٧٠٤) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن أختي نذرت أن تحج، ولا تركب، فقال النبي ﷺ: «**ما يصنع الله بعذاب أختك أو بتعذيبها نفسها**»، ثم قال: «**لتمش ولتركب**»[١]؛ يعني: تمشي إذا استطاعت، وإذا عجزت فلها أن تركب؛ حيث إن تعذيب النفس والمشقة عليها فيه تأليم ينفر من العبادة.

فالعبادة بالنذر إذا كانت طاعة وجب الوفاء بها، وإذا كان معصية لم يجز الوفاء بها، وإذا كان شيئاً مباحاً فهو مخير بين أن يوفي به، وبين أن يكفر كفارة يمين.

وقد أمر الله بالوفاء بالنذر في مثل مواسم الحج، فإذا نذر إنسان مثلاً أن يحج ماشياً ولم يكن عليه مشقة، فإن عليه أن يفعل ذلك؛ لأنه أعظم للأجر، وإذا نذر الحاج أن يطوف في كل يوم عشرين طوافاً، أو خمسة أطوفة، فإن عليه أن يوفي بالنذر، وذلك لقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ [الحج: ٢٩].

وكانت الأمم السابقة تفعل النذر، فقد أخبر الله تعالى عن مريم بقوله تعالى: ﴿**فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾ [مريم: ٢٦]؛ فذكر أن مريم نذرت صوماً، وفسر بالصمت ونحوه، أو بالصوم مع الصمت.

وكذلك أمها قبلها حكى الله عنها، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾ [آل عمران: ٣٥]، نذرت أن حملها هذا تجعله

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٢٩٥)، وهو في «المشكاة» برقم (٣٤٤١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: «لتمش وتركب»: أخرجها البخاري برقم (١٨٦٦)، ومسلم برقم (١٦٤٤)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

خادماً لبيت الله، وهو بيت المقدس، المسجد الأقصى، فرزقها الله هذه البنت فجعلتها كذلك خادمة، فدل على أن النذر معمول به وموجود قبل الإسلام.

وأما الحلف بالمخلوق فهذا لا كفارة فيه؛ فلو مثلاً حلف بتربة السيد فلان، أو حلف بالسيد البدوي، فقال: والسيد البدوي لأفعلن كذا وكذا، فنقول: هذا لا كفارة فيه، ولا يلزم الوفاء به، لأنه حلف بمخلوق، والحلف بالمخلوق حلف بغير الله تعالى، وهو أيضاً شرك بالله.

ونقول لمن حلف بغير الله تعالى: عليه أن يكفر ذلك الحلف بالتوبة، وبتجديد التوحيد؛ لأنه عليه السلام قال: «**من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**»[1]؛ أي: يجدد توحيده، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٥٠)، ومسلم برقم (١٦٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[١٢]

باب:
من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وعن خولة بنت حكيم، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»، رواه مسلم.

■ ■ ■ ■ ■

*** فيه مسائل:**

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية، من كف شر، أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
من الشرك الاستعاذة بغير الله

الاستعاذة عبادة من العبادات، وكل العبادات لا تصلح إلا لله، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والاستعاذة هي: طلب العوذ.

والمستعيذ هو: المحتمي والمستجير والخائف.

يقال: استعاذ، **يعني**: لاذ بالشيء واحتمى به، وتحصن، وتحرز وتحفظ عن الشر الذي يخافه ويحذر منه.

والمتسعاذ به هو: الذي يحفظه من ذلك الذي يخاف منه.

والمستعاذ منه هو: ذلك الشر الذي يحذره العبد ويخافه.

ولا يكون المستعيذ إلا عاجزاً عن مقاومة الشر الذي يخافه؛ فلذلك يعوذ بغيره، ولا يكون مستعاذاً به إلا قادراً على دفعه، قادراً على قمعه ورده، فلذلك كانت الاستعاذة عبادة، وكان المتسعيذ بالله عابداً لله، وذلك لأنه يخاف الشرور على نفسه.

وهكذا الإنسان في حياته يخاف الشرور، ويخاف الأضرار؛ وذلك لأن أعداءه قد أحاطوا به من كل مكان، ولأنه لا مقاومة له، ولا مدافعة له على دفع أولئك الاعداء إلا بإعانة من ربه.

فمن أجل ذلك يلجأ إلى ربه معظماً لله، ومكبراً ومجلاً له، وعالماً أنه هو

الملاذ، وهو المعاذ، وهو القادر على دفع الشرور والأضرار، ويعلم من نفسه أنه الضعيف، وأنه المهين، وأنه العاجز عن كل شيء؛ إلا إذا أمده ربه بقوته، وبحمايته، وبحفظه.

فلذلك يطرح نفسه على عتبات أبواب ربه، طريحاً، ذليلاً، مستكيناً، متواضعاً غاية التواضع، ومن أجل ذلك كانت الاستعاذة عبادة من أجل العبادات.

*** وقد وردت الاستعاذة في القرآن من أشياء كثيرة، فمن ذلك الاستعاذة من الشيطان، وقد ذكرت في مواضع:**

الموضع الأول: قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ أي: استعذ بالله من الشيطان، فإنك لا تقدر على التلخص من الشيطان، فأنت عاجز وضعيف عن مقاومة هذا العدو، فعلى المرء أن يلوذ بالله، ويستعيذ به ليحميه من شره ومن كيده.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وهذه ـ أيضاً ـ استعاذة من الشياطين أن يضروا الإنسان، وأن يحضروه، واستعاذة من همزاتهم التي هي من وسوستهم، ونحو ذلك، فلا يقدر المرء على مقاومة الشياطين إلا إذا أعانه الله، وأمده بقوة، وطردهم وأبعدهم عنه.

الموضع الثالث: عند قراءة القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

فهذا أمر بالاستعاذة في موضع؛ ويفيدنا ذلك أن الشيطان له تدخل على

المسلم عند قراءته، فيفسد عليه نيته، أو يخلط عليه قراءته، فإذا أعاذه الله منه كان ذلك حفظاً، وحماية، وحراسة، وتحصيناً من هذا الشيطان.

الموضع الرابع: مثل الموضع الأول، قوله تعالىٰ في سورة فصلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فهذه أربعة مواضع أمرنا الله أن نستعيذ فيها من الشيطان.

* وهناك ـ أيضاً ـ مواضع أخرىٰ أمر الله فيها أن يستعاذ به من أضرار أخرىٰ، مثل: سورتي المعوذتين فقد أمر الله نبيه أن يستعيذ فيهما من الشرور.

ففي سورة الناس: استعاذة من الشيطان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ ـ أي: الشيطان ـ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ـ٥]؛ فأمر الله بالاستعاذة برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من هذا الشيطان الموسوس، وهذا دليل علىٰ أن الإنسان عاجز عن مقاومته، إلا إذا أعانه الله، وأمده بسبب من عنده سبحانه.

أما السورة التي قبلها وهي سورة الفلق ففيها الاستعاذة من أربعة أمور من الشرور:

فبدأ السورة بالاستعاذة برب الفلق وهو الله، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، قيل: الفلق هو: الخَلْق، قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقيل: الفلق: الصبح، قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وعلىٰ كل حال المستعاذ به هو الله.

ثم بدأ بذكر الشرور التي يستعاذ منها، وهي:

الشر الأول: قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، وهذا أمر من الله لنبيه ﷺ أن

يستعيذ استعاذة عامة من شر جميع الخَلْق، ثم خصص بعض الشرور ومن ذلك:

الشر الثاني: قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣]. أي: تعوذ من الليل عند الغروب.

الشر الثالث: قوله: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. أي: تعوذ من السواحر.

الشر الرابع: قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]. أي: تعوذ من الحاسد الذي يحب زوال النعمة، وقيل أن الحاسد: العائن، لأن العين تصدر من إنسان شرير خبيث يحب زوال النعمة عن أخيه.

فأمر الله نبيه أن يستعيذ من هذه الشرور؛ لأنه عاجز عن مقاومة هذه الشرور؛ إلا إذا لجأ إلى الله تعالى يطلب منه الحماية والوقاية.

*** وكما وردت الاستعاذة في القرآن، فقد وردت أيضاً في أحاديث كثيرة لا تحصى فيها الاستعاذة بالله تعالى من شرور كثيرة، مما يدل على أن الله تعالى هو المعاذ، وهو الملاذ.**

ففي كثير من الأحاديث الاستعاذة من شرور كثيرة في الصلاة، وخارج الصلاة، ففي آخر الصلاة قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا صلى أحدكم أو إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال**»(١).

أي يقول: أعوذ بالله من عذاب جهنم، إلى آخره؛ وذلك لأن هذه الأشياء

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا ينجي ويحمي منها إلا الله تعالىٰ؛ فالمسلم يستعيذ به سبحانه، ويطلب منه أن ينجيك من شرورها.

وهكذا ـ أيضاً ـ ثبتت الاستعاذة من شرور كثيرة، كقوله ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من الهم، والحزن، ومن الجبن، والبخل، والكسل، والهرم، وسوء الأخلاق، وشماتة الأعداء، وضلع الدين،وقهر الرجال»**(١)، ونحوها كثير.

وهذه الأشياء المذكورة في الحديث قد عقدت لها أبواب كثيرة؛ تدل علىٰ أن لها أضراراً مختلفة، وأن الإنسان إذا استعاذ بالله تعالىٰ منها نجاه وحماه منها؛ سواء كانت شروراً قائمة بنفسها، أو صفات وأخلاقاً، فأكثر هذه الأشياء التي ذكرت في الأحاديث: الجبن، والبخل، والكسل، والهرم، فهي أخلاق.

والشرور القائمة بنفسها، مثل ما روي أن النبي ﷺ كان يقول: **«أعوذ بالله من أسد وأسود، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد»**(٢)، فهذه شرور قائمة بنفسها.

وكذلك الأخلاق السيئة، مثل قوله: **«أعوذ بالله أن أُضِل أو أُضَلَ، أو أزِلَ أو أُزَلَ، أو أظلِم أو أُظْلَمْ، أو أجهِل أو أُجهل علي»**(٣)، فهذه استعاذة بالله من هذه الأخلاق.

والحاصل أن الاستعاذة بالله عبادة من أجل العبادات، فالاستعاذة بغيره تكون شركاً.

---

(١) أخرج بنحوه البخاري برقم (٦٣٦٩)، ومسلم برقم (٢٧٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٦٠٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود رقم (٥٦٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٨٤) عن أم سلمة رضي الله عنها، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه رقم (٣١٣٤).

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]]:

حكىٰ الله عن المشركين قبل الإسلام أنهم يستعيذون بالمخلوقات؛ كما في هذه الآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وقيل: أن سبب نزول هذه الآية: أن جهلة المشركين إذا سافر أحدهم ونزل في مكان فيه خوف، يقول: (**أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن من سفهاء قومه**)، فيستعيذ بكبير الجن من سفهاء الجن؛ أي: الإنسي يستعيذ بكبير الجن، من سفهاء الجن، فيبيت وقلبه مضطرب يخشىٰ أن لا يعيذه فيكون هذا هو الذي يزيده رهقاً.

* وقوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي: أن الجن ما زادوكم أيها الإنس إلاخوفاً، وما زاودكم أمناً، وذلك لأنهم لا يملكون لهم ضراً، ولانفعاً، ولا يلمكون دفع أضرار السفهاء منهم.

وقيل: زادوكم أيها الإنس خوفاً وذعراً؛ أي: أن هذا الذي استعاذ بالجني من شر السفهاء، لم يفعل شيئاً يقيه حقّاً، ومع ذلك فهو معرض لأن يضره سفيه من السفهاء، فلم يستفد من هذه الاستعاذة، بل يكون قد أشرك بالله.

كذلك هناك قول آخر: إن الإنس زادوا الجن طغياناً وكبراً، وقالوا: قد خافنا الإنس فزادوهم كفراً.

وعل كل حال فإن الله تعالىٰ نبههم بهذه الحال، وهي الاستعاذة من المخلوق بالمخلوق؛ الاستعاذة من الإنسي بالجني، وأن ذلك لم يفد شيئاً.

■ **قوله: [وعن خولة بنت حكيم، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك»[١]، رواه مسلم]:**

أفاد هذا الحديث أن الاستعاذة بصفات الله تعالىٰ جائزة، ومن ذلك الاستعاذة بكلماته، فإن كلمات الله صفة من صفاته، كما في هذا الحديث.

وكلام الله ليس مخلوقاً، وقد ذُكر أن الإمام رحمه الله استدل بهذا الحديث علىٰ المعتزلة الذين قالوا: إن القرآن مخلوق، قال: لو كان القرآن مخلوقاً ما استعاذ به النبي ﷺ، ولم يحثنا علىٰ أن نستعيذ به، فإن الاستعاذة لا تجوز بالمخلوق.

وهذا من أجَلِّ الأدلة علىٰ إثبات أن القرآن ليس بمخلوق، كما زعمت المعتزلة وأذنابهم.

وأفادنا هذاالحديث أيضاً أن هذه الاستعاذة لها أهميتها، وأن الإنسان متىٰ كان خائفاً من وحوش، أو هوام، أو من اللصوص، أو نحو ذلك، فاستعاذ بهذه الاستعاذة، فإن الله تعالىٰ يحميه، ويحفظه، إذا قال: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق»**؛ فهي جملة قصيرة فيها خير كثير.

ورُوي أيضاً زيادة، أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: **«أعوذ بكلمات الله التامات، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة[٢]، ومن شر مخلوقات الله كلها عامة»**.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٣٧١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. أما الجملة الأخيرة منه فلم أجدها.

وكان ﷺ يعوذ الحسن والحسين من الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوىٰ ذلك[١]. وقال: ما تعوذ بمثلهن أحد[٢].

وقد ثبتت الاستعاذة بصفات أخرىٰ لله تعالىٰ، ومن ذلك قوله ﷺ: «أعوذ بعزة الله وقدرته من....»[٣]، وقوله ﷺ: **«أعوذ بعزتك التي لا تضام، وبجلالك الذي لا يرام»**[٤]؛ فهذا استعاذة بصفة من صفات الله عز وجل.

فعزة الله صفة من صفاته، وجلاله كذلك صفة من صفاته، وأما الاستعاذة بالمخلوق، فلا تجوز، ولا تصح، وهي شرك محرم.

فالحاصل أن الاستعاذة بالله تعالىٰ فيها الخير، وفيها الفائدة العظيمة؛ وذلك لأن الله تعالىٰ إذا علم من عبده صدق اللجوء إليه، وعلم أنه ما استعاذ به إلا وقد عظم قدر ربه في قلبه؛ فعند ذلك يعيذه، ويحميه، وينصره من المخاوف.

وهذه فائدة كبيرة يحصلها العبد من آثار هذه الاستعاذة، فإذا أكثرنا من الاستعاذة من كل الشرور سواء: أخلاق، أو أعمال، أو شرور المخلوقات المستقلة؛ فإن الله تعالىٰ ينجينا منها، ولا نستعيذ بأي مخلوق.

أما الاحتماء بالمخلوق فيما يقدر عليه من الشرور المحسوسة فهذا يجوز في حدود، فيجوز مثلاً أن يستجار بإنسان قوي ليكبح جماح المعتدين، ويحمي

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٥٨)، وابن ماجه برقم (٣٥١١)، والنسائي برقم (٥٥٠٩)، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي برقم (٥٤٤٥)، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٢)، وابن ماجه برقم (٣٥٢٢)، واللفظ له. من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

(٤) لم أجده.

المتسجير منهم، فمثل هذا استجارة واحتماء من شر محسوس يقدر على كفه ذلك الذي استجار به المرء، وإذا أتى إنسان إلى أمير مثلاً وقال له: إني في جوارك لتحميني من شر فلان الذي يريد أن يفتك بي، أو يقتلني، أو يضربني، أو يأخذ مالي بغير حق، فمثل هذا إذا استجار به فإن الاستجارة جائزة في حدود ما يقدر عليه.

فأما الاستعاذة التي هي الاحتماء والاحتفاظ من الشرور المعنوية ونحوها، فلا تصلح إلا لله تعالى، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[١٣]

باب:
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧].

وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢].

وروى الطبراني، بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله».

*** فيه مسائل:**

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة، من عطف العامّ على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿**وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ**﴾ [يونس: ١٠٦].

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إضاءً لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي، لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي، وعدواته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لايجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفي ﷺ حمى التوحيد، والتأدب مع الله.

الشرح

باب:
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وهذا نوع من أنواع الشرك، وهو الاستغاثة بغير الله، ودعاء غير الله.

والدعاء والاستغاثة متقاربان، ولذلك جمعها في باب واحد.

● **والفرق بين الدعاء والاستغاثة:**

أن الدعاء: يكون من المكروب، وغير المكروب.

والاستغاثة: لا تكون إلا من المكروب.

والمكروب: هو الذي وقع في شدة وضيق، وحرج ومشقة، فإذا دعا والحال هذه فإن دعاءه يسمى استغاثة.

ومن ذلك قصة الصحابة في غزوة بدر، عندما أحدق بهم العدو الذي هو مثلهم ثلاث مرات، والذي جاء بحنق وغيظ وغضب على الصحابة، ومعهم العدة، والقوة، والصحابة نحو ثلثهم، فاستغاث الصحابة ربهم فأغاثهم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾؛ أي: تستنصرونه، وتدعونه في تلك الحال الشديدة، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩][١].

---

(١) انظر القصة بتمامها في «مسند الإمام أحمد» (١/ ٣٠، ٣١)، وأوردها ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٢٨٩)، ثم قال: ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمارية وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢٠٨): إسناده صحيح.

فإجابة الداعي إذا كان ملهوفاً تسمى إغاثة، وإعطاؤه شيئاً يسمى غوثاً.

ومنه ـ أيضاً ـ إذا قحط الناس واستسقوا المطر يسمى دعاؤهم استغاثة، وذلك أنهم وقعوا في شدة، ووقعوا في حاجة وضيق، فإذا دعوا الله في تلك الحال فقد دعوه وهم مضطرون، ومكروبون، فيسمى دعاؤهم هذا استغاثة، وإذا أعطاهم الله ما طلبوه يسمى ذلك غوثاً، وغيثاً؛ ولذلك يسمى المطر غيثاً، وذلك أنه دعاء الذين استغاثوا الله؛ أي: طلبوا منه غوثاً لأولئك المكروبين، وغوثهم بمعنى: تفريج ما بهم من الكرب، وإزالة ما هم فيه من الشدة، والتوسعة عليهم.

فالحاصل أن الإنسان إذا دعا الله تعالى وهو في حال رخاء فهذا يسمى دعاء، وإن دعا الله وهو في حال كرب، وفي حال ضيق وشدة وحرج، فهو مستغيث.

فمثلاً: إذا أحدق بالإنسان العدو، أو جاءه من شهر في وجهه السلاح، وليس له استطاعة مقاومته، فدعا الله تعالى عليه، فإن دعاءه والحال هذه استغاثة.

ولا يجوز لأحد أن يدعو غير الله، سواء كان في كرب، أو في حال رخاء، بل عليه أن يكون دعاؤه لله، فإن دعا غير الله، أو استغاث بغير الله، فإنه قد أشرك، وقد جعل شيئاً من العبادة لغير الله، وذلك شرك في العبادة.

والدعاء عند العرب يطلق على النداء؛ دعا فلاناً بمعنى: ناداه، ودعا الله سأله، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فإذا قلت: دعا الله فمعناه: أسألك يا ألله، وقولك: اللهم، معناه: يا ألله.

فالدعاء: هو النداء يا ألله، وهو السؤال، فيقال له في حق الله: سؤال؛ لأن الداعي كأنه يسأل حاجته.

* ولاشك أن الدعاء من أفضل القربات، والله تعالى يحب من عباده أن يدعوه، وأحب عباده إليه الذين يكثرون دعاءه.

وقد ورد في الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»(١)، وورد أيضاً: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»(٢).

والأحاديث في الأدعية كثيرة، وألفت فيها المؤلفات، ورغَّب الشرع في الدعاء، وأخبر بأنه مخ العبادة، أو أنه هو العبادة، قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»(٣)، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فجعل الدعاء عبادة، فقال في أول الآية: ﴿ادْعُونِي﴾، وقال في آخرها: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾؛

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢، ٤٤٣)، والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الأرنؤوط في تحقيق «جامع الأصول» برقم (٢١٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤١٤).

(٢) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٤٦٧)، عن عائشة مرفوعاً، قال الألباني في «الضعيفة» (٦٣٧): باطل، ثم قال: وهذا سند ضعيف جداً؛ بل موضوع، يوسف بن السفر كذاب؛ بل قال الهيثمي: هو في عداد من يضع الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٤)، وأبو داود برقم (١٤٧٩)، وابن ماجه برقم (٣٨٢٨)، والترمذي برقم (٢٩٦٩)، ٣٢٤٧، ٣٣٧٢)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني كما في «الإرواء» (ص١٩٤)، و«صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٥٠).

أما حديث: «الدعاء مخ العبادة» فهو حديث ضعيف، أخرجه الترمذي برقم (٣٣٧١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. وقال الألباني رحمه الله في «أحكام الجنائز»: وهو ضعيف لسوء حفظه، ثم قال: لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان، وهو قوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة».

أي: دعائي.

وكذلك في الآية التي بعدها بقليل، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ [غافر: ٦٦]، فقوله: ﴿أَعْبُدَ﴾، و﴿تَدْعُونَ﴾؛ دليل على أن دعاءهم: عبادة.

وذكر الله عن إبراهيم الخليل أنه قال لأبيه وقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]، وقال في الآية التي بعدها: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]؛ فدل على أن: ﴿يَعْبُدُونَ﴾، و﴿تَدْعُونَ﴾؛ بمعنى واحد.

ولاشك أن الدعاء من أجلّ أنواع العبادة؛ وسبب ذلك أن فيه تعبداً، والتعبد هو التذلل، والعبادة سميت عبادة؛ لأن العابد فيها يتذلل، فعندما يفعلها يكون في حال ذل، وخضوع، وانقياد لربه؛ لذلك أصبحت من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم من أجله:

* **والدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسأله.**

ودعاء العبادة متضمن لدعاء المسألة، ودعاء المسألة مستلزم لدعاء العبادة.

● **ودعاء العبادة**: هو جميع الطاعات؛ فجميع الطاعات عبادة، وتسمى دعاء عبادة؛ لأن الذي يأتي بها كأنه يدعو بلسان الحال، وإن لم يدع بلسان المقال، فالذي مثلاً: يصوم، نقول: كأن لسان حاله يدعو الله؛ كأنه يقول: إني صمت لك يا ربي لتقبل مني، ولتأجرني ولتثيبني، ولتعظم أجري، وهو داع في نفس الأمر؛ كأنه يقول: ما صمت إلا للثواب، وما صمت إلا للأجر، وما صمت إلا للجزاء عند الله تعالى.

والذي يتصدق داع بلسان الحال، وإن لم يدع بلسان المقال، فلسان حاله يقول: إني أتصدق لك يا ربي، رجاء أن تضاعف صدقتي، ورجاء أن تنجيني من العذاب، ورجاء أن تخلف علي، وهكذا، فكان ذلك دليلاً على أنه داع وهو في العبادة.

فدل على أن كل عبادة فإنها دعاء: فالصلاة دعاء، والحج دعاء، والصدقة دعاء، والجهاد دعاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء، والنصح للمسلمين والموعظة دعاء، فكل ذلك داخل في الدعاء، إلا أنها تسمى دعاء عبادة.

● **أما دعاء المسألة:** فهو دعاء الطلب، وقد ورد فيه آيات وأحاديث كثيرة، كقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾ [البقرة: ٢٠١]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾[الكهف: ١٠]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا**﴾ [آل عمران: ٨]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة...**»(١)، وقوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول أو عمل**»(٢).

فهذا كله يسمى دعاء مسألة؛ وذلك أنه دعاء طلب، ولكنه - أيضاً - يتضمن دعاء العبادة، فهو عبادة، وذلك أن العبادة كما عرفت: هي الذل، ،وهي التذلل والخضوع.

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٧١). عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه برقم (٣٨٤٦)، عن عائشة رضي الله عنها، وأوله: «**اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله...**».

والمسلم إذا رفع كفيه يسأل ربه المغفرة، ويسأل ربه الجنة، ويعوذ به من النار، ويسأله العلم النافع، والعمل الصالح، ويسأله التوفيق والهداية، وما أشبه ذلك، فإنه في هذه الحال متعبد.

والذي يأتي بهذه الأمور يأتي بها حال خشوعه، وحال خضوعه، وحال تذلله، فيقال له: عابد عندما يُرىٰ وقد مد يديه، وأخضع رأسه، وأحضر قلبه، واستكان لربه، فكلها من مظاهر العبودية.

والحاصل أن دعاء المسألة عبادة، ودعاء الطاعة عبادة، وهذا دليل علىٰ أن الدعاء هو مخ العبادة، وهو أجلها، وصرفه لغير الله شرك، فإذا دعا ميتاً، أو دعا غائباً بشيء لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك وصار مشركاً.

■ قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧]]:

ذكرنا أن العبادة في الأصل هي: التذلل، والخضوع، والخشوع، وسمي العبد عبداً لكونه ذليلاً، وخاشعاً ومتذللاً، فأصل التعبد التذلل، و منه قولهم: طريق معبد؛ يعني: مذلل، يوطأ بالأقدام، فأصبح معبداً مهيئاً للسير عليه.

ولذلك فإن دعاء غير الله شرك، فمن دعا مخلوقاً فقد عبده، ولو قال: لم أعبده، يقال: بل عبدته، وذلك لأنك عندما دعوته ـ أي: دعوت هذا الميت مثلاً، في شيء لا يقدر عليه إلا الله ـ فقد دعوته وأنت متخشع، وأنت متذلل، وأنت متواضع عنده، وأنت واقف مقام الهيبة؛ وذلك هو حقيقة العبادة، ولذلك فإنك قد عبدته، ولو لم تسم فعلك هذا عبادة.

فالذين مثلاً يدعون الأموات، ولو كانوا صحابة، أو رسلاً، أو ملائكة، أو غير ذلك، يدعونهم حال وجل في قلوبهم، وحال رغبة، وحال خضوع، وتواضع، يدعونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم، خاشعين حال وقوفهم عند قبورهم، فيدخلون في هذه الآية: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]؛ أي: جميع من دون الله، لا ينفعون، ولا يضرون.

ففي هذه الآية النهي عن عبادة غير الله من الأموات، والغائبين، والأشجار، والأحجار، والقباب، والبقاع، ويعم ذلك دعاء الأولياء، والسادة، والرسل، والملائكة، والنبيين، والصالحين من العباد، ونحوهم، فإن هذا الوصف يعمهم، فهم لا يقدرون على النفع ولا الضر، ولا يجلبون الخير لمن دعاهم، ولا يدفعون عنه السوء ولا يضرون من أعرض عنهم، أو نهى عن دعائهم من دون الله.

فالمعنى: لاتدع غير الله ممن لا ينفعك إن دعوته، ولا يضرك إن تركته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾؛ أي: دعوت غير الله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: من المشركين، ومن الكافرين، فإن الشرك ظلم وكفر، لأنه وضع للعبادة في غير موضعها، وصرف للدعاء عن مستحقه، فيكون ظلماً وخسراناً مبيناً.

فالظلم هنا: الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأيضاً الظلم هو: الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ثم أخبر بأن الله تعالى هو الذي يملك ذلك: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ أي: إذا أمرضك أو قدر عليك ضرراً في البدن، أو المال، ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾، أي: لا يكشفه غيره، فعليك أن تدعو الله، وتتضرع إليه، فهو الذي يزيل الضر والمرض وحده.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقدره عليك من رزق وصحة، ونصر وتمكين، ونحو ذلك من الخيرات ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾؛ أي: لا أحد يقدر على رده ومنعه عنك، فإن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك(١).

والله يصيب بفضله من يشاء من عباده، ويمنعه من يشاء، فلا راد لفضله، ولا معقب لحكمه، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾، لمن تاب إليه ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن سأله المغفرة والرحمة.

ومن جملة الأدلة الصريحة في أن المدعو لا يفيد الداعي، قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، فهؤلاء الذين تدعونهم، ولو كانوا أنبياء، ولو كانوا رسلاً، ولو كانوا ملائكة أو سادة أو أولياء صالحين ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾.

هل هذه البقعة خلقوها؟ هل هذا الجبل خلقوه؟ هل هذا الوادي خلقوه؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾؛ فيستحقون أن يجعل لهم شيء من حق الله؟

---

(١) هذا الكلام يدل عليه قول النبي ﷺ؛ من حديث ابن عباس قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال: «ياغلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١ / ٢٩٣)، والترمذي برقم (٢٥١٦)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٢٦٦٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٣٤).

والجواب: لم يخلقوا شيئاً، ولن يخلقوا شيئاً.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، هل لهم شركة في خلق السموات؟ كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠]، كل ذلك لم يحصل.

فالحاصل أن الله استنطق الكفار فقال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: هاتوا برهانكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

■ قوله: [وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]]:

وبعد أن أخبر الله تعالىٰ أن جميع معبوداتهم من دون الله لا يملكون لهم رزقاً، ولا يقدرون علىٰ جلب خير، ولا دفع ضر، وأنَّ الذي يملك ذلك هو الله وحده، أمرهم بطلب الرزق من الله تعالىٰ ودعائه وحده، والإقبال بالقلب عليه، فإنه الذي يملك النفع والضر، ويجلب الخير، ويملك الرزق، ويرزق من يشاء بغير حساب، فاطلبوا منه الرزق، وأخلصوا له العبادة، وتوجهوا بقلوبكم إلىٰ خالقكم وحده، ولا تعبدوا سواه، واشكروه علىٰ ما تفضل به عليكم، فهو أهل أن يعبد، وأن يحمد ويشكر علىٰ ما يسره من الخير والرزق لعباده، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وسوف يجازي كلاً بعمله، ويثيب من شكره وعبده، والله أعلم.

■ قوله: [وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]]:

في هذه الآيات بيان حالة الأوثان، وجميع المعبودات من دون الله تعالىٰ، وحال المشركين الذين يدعون الأموات والغائبين، ويهتفون بأسمائهم، ويكررون

ندائهم، ويعتقدون فيهم النفع والفائدة، مع أن هذه المعبودات لا تسمع دعاءهم، ولاتستجيب لهم، ولو دعوها طوال زمن الدنيا؛ بل هي غافلة عنهم وعن دعائهم لها.

وفي الحشر بعد البعث يوم القيامة تظهر لهم تلك المعبودات العداوة، وتكفر بعبادتهم، وتنكر ما صنعوه معها، فهؤلاء المشركون هم الضلال، فلا أحد أضل وأجهل وأخسر ممن ينادي جماداً كشجر، أو حجر، أو ينادي ميتاً أو غائب بعيداً عنه، لا يسمع دعاءه، ولا يدري بحالته، ولو كان ذلك المدعو ملكاً، أو رسولاً، أو شهيداً، فإنه قد فارق الدنيا، و انتهت حياته بخروج روحه من جسده، وواراه التراب، مع أنه في حياته لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يستطيع نصر غيره، ولا ينصر نفسه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقد أخبر الله أنهم هم الضالون، ولا أضل منهم، حيث يدعون غير الله من أموات وجماد، لا يستجيبون لهم، ولو دعوهم إلىٰ يوم القيامة، بل هؤلاء الأموات مشغولون بأنفسهم، غافلون عن دعاء هؤلاء لهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يوم القيامة ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾؛ أي: أظهروا العداوة لمن دعاهم، وكفروا بعبادتهم لهم.

ومثل هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، أي: ميزنا هؤلاء عن هؤلاء: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أنكروا عليهم ما كانوا يعملونه من عبادتهم لهم ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فالله هو الشهيد فكفىٰ به شهيداً ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]. إن كنتم عبدتمونا فنحن في شغل في أنفسنا ما التفتنا لكم، ولا سمعنا عبادتكم، وهكذا يقول كل مدعو من دون الله أيّاً كان.

وكفى بذلك جهلاً وسفهاً، وتوبيخاً لكل من دعا غير الله من الأولياء، أو السادة، أو الشهداء، أو الصالحين، فإن الجميع أموات قد انقطع عملهم، أو أحياء، عاجزون عن نفع أنفسهم، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

وكل من دعا معه أحداً

أشرك بالله ولو محمداً

وذلك لأن محمداً عليه الصلاة والسلام بشر، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، فكيف بغيره؟!

وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

■ قوله: [قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]]:

في هذه الآية دليل أن العبد إذا دعا الله تعالى مع يقينه أنه هو وحده الذي يجيب المضطر ويكشف السوء، فإن الله يجيبه.

وقد ذكروا أن إنساناً كان مسافراً في قديم الزمان وحده، ومعه تجارة، وفي أثناء الطريق اعترض له رجل مدجج بالسلاح، وقال له: تخل عن تجارتك، وأعطني ما تملكه، وإلا قتلتك، وشهر عليه السلاح، فقال له: أمهلني حتى أصلي ركعتين، فعند ذلك صلى ركعتين، ، ودعا الله، وقرأ هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾؛ فما أن انتهى من الركعتين، إلا وقد جاء رجل على فرس أدهم، وطعن ذلك القاطع المعتدي من خلفه، فأرداه

صريعاً، فقال له ذلك التاجر: بالله من أنت الذي أغاثني الله بك، فأخبره بأنه أحد الملائكة، وقد سمع الله دعاءه، فأمره أن يغيثه، وأن يزيل كربه، فهذا دعاء المكروب، ذكره بمعناه ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر[١].

ونقل عن وهب ابن منبه ما معناه أنه قرأ في بعض الكتب أن الله تعالىٰ يقول: وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بي أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له من بينهن فرجاً ومخرجاً، ولا يعتصم عبد من عبيدي بغيري أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ولا أبالي بأي واد هلك. أو كما قال[٢].

فهذه الآية فيها الحث علىٰ دعاء الله تعالىٰ عند الاضطرار، والوقوع في الشدائد والأزمات، والحالات الحرجة، من خوف وضيق، وهم وغم وكرب.

فالمعنىٰ: أنه سبحانه هو الذي يجيب دعوة المضطرين، ويزيل ما بهم من الشدة والضرورة متىٰ دعوه، وأخلصوا له العبادة، وعلقوا رجاءهم به وحده، ولم يلتفتوا إلىٰ غيره من المخلوقات، فإنه يجيب دعوتهم، ويعطيهم ما طلبوا، ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾؛ أي: البأساء والضر الذي نزل بهم، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾؛ أي: هو الذي يخلف الأولاد آباءهم، ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، أي: هل هناك إله مع الله، فالذين يدعون معه آلهة أخرىٰ قليل تذكرهم؛ أي: هو الإله الحق فلا إله غيره، ولا رب سواه.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧١).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٠).

وقد سبق تخريجه في الباب السابع (باب ما جاء في الرقىٰ والتمائم).

■ **قوله: [وروى الطبراني، بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»**(١)]:

عرفنا مما سبق أن الدعاء عبادة لا تصلح إلا لله وحده، والدعاء يكون من المكروب وغير المكروب، فإذا كان من المكروب يسمىٰ استغاثة، وذكرنا أن الاستغاثة بالمخلوق تجوز فيما يقدر عليه، فيجوز أن يستغيث إنسان مكروب بإنسان قادر، ودليل ذلك قصة موسىٰ، لما دخل مصر **﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾** [القصص: ١٥].

* وقوله: «**فاستغاثه**»؛ أي: طلب منه الغوث، وهو النصر؛ لأنه كان في كرب، وقد أوشك أن يقتله ويعلو عليه ذلك القبطي الذي هو من قوم فرعون، فاستغاث بموسىٰ لشيء يقدر عليه موسىٰ؛ فمن أجل ذلك أغاثه بأن قتل ذلك القبطي، الذي حاول أن يقتل الإسرائيلي.

فدل علىٰ أن الاستغاثة بقادر تصح، ولا حرج فيها، لكن إذا كانت هذه اللفظة قد أصبحت من جملة الأدعية التي هي حق لله، فلا يجوز استعمالها.

وهذا هو ما تضمنه هذا الحديث؛ فإنهم لما قالوا: «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق»، لم يطلبوا إلا أن يغيثهم؛ بمعني: أن يزيل عنهم الكرب الذي ينالهم من هذا المنافق، وهو قادر عليه؛ أي: فيما أقدره الله، ولكنه ﷺ رد

---

(١) أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (١٠ / ١٥٩)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. قال الهيثمي في «المجمع» رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه أحمد بغير هذا السياق، وهو في «الأدب» في باب القيام. أ. هـ.

ورواية أحمد في «المسند» (٥ / ٣١٧)، وأخرجها ابن سعد في «الطبقات» (١ / ٣٨٧)، ولفظها: «إنه لا يقام لي؛ بل يقام لله تبارك وتعالىٰ».

الأمر إلىٰ أهله، وإلىٰ مستحقه، فقال: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»، أي: الاستغاثة من حق الله، وليس لأحد أن يستعملها في حق غير الله، آيّاً كان من المخلوقين.

* وقوله: «لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»، كأنه قال: أنا إذا نصرتكم فسموا ذلك إعانة أو نصرة، فأما كلمة استغاثة فاجعلوها لله تعالىٰ وحده.

وهذا المنافق الذي كان يؤذي المؤمنين، سمي في بعض الروايات، أنه عبد الله بن أُبي بن سلول.

والذي قال: «قوموا بنا نستغيث»، هو أبو بكر؛ أي: كأنهم أرادوا أن يأخذ الرسول ﷺ علىٰ يده، ويمنعه من هذا الأذىٰ الذي كان يؤذيهم به.

ومعلوم أن أذىٰ المنافقين مستمر علىٰ المؤمنين، إما مثلاً بتنقصهم، وإما بعيبهم وثلبهم، وإما بالاستهزاء بعباداتهم، وبدينهم ونحو ذلك.

فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقدر علىٰ أن يكفه، أو يأخذ علىٰ يديه، ولكنه لم يفعل ذلك لما طلبوه بهذه الكلمة وهي الاستغاثة، بل ذكر أن الاستغاثة هي حق الله تعالىٰ.

فالحاصل أن الدعاء، والاستغاثة، من جملة أنواع العبادة التي لايصلح منها شيء إلا لله تعالىٰ، فمن صرف منها شيئاً لغير الله، فقد عبد ذلك الغير، ولا فرق في التسمية حينئذ، ولو سمىٰ دعاءه توكلاً، أو تشفعاً، أو تبركاً، أو غير ذلك، فإن العبرة بالحقائق، لا بالأسماء، والأسماء لا تغير حقائق المسميات.

فبهذا نعرف أهمية هذا الباب وآكديته، وصلته ببقية أبواب التوحيد.

ولذلك اهتم العلماء بالدعاء، دعاء الله سبحانه وتعالىٰ، وذكروا أن العبد لا يكون عابداً حقاً، إلا إذا صرف كل دعائه لله تعالىٰ.

وقد كانَ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُرَغِّبُ في دعاء الله، بأن يسأل الإنسان الله تعالىٰ كل حاجاته، وكل ما تمس له الحاجة من أموره العادية، والغيبية ونحو ذلك.

وفي إظهار هذا السؤال وكثرته إظهار للحاجة والفاقة، وكلما كان العبد مُظهراً للحاجة والفاقة لربه كان ذلك أقرب إلىٰ إجابته، وأقرب إلىٰ كثرة ثوابه، فنحن مأمورون بأن نكثر من دعاء الله، يقول الله تعالىٰ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ويقول: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ويقول: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ [غافر: ١٤]، بمعني: اسألوه حاجاتكم.

وذكرنا أنه ـ عليه السلام ـ كان يرغب في الدعاء، بما رُوِيَ: «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**»(١)، وبقوله: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»(٢).

فمعناه أن من لم يظهر الحاجة إلىٰ الله فكأنه أكتفىٰ بنفسه، وأظهر الاستغناء عن الله تعالىٰ، وعن الافتقار إليه، مع أن العباد موسومون بأنهم عباد، وموسومون بالفقر إلىٰ الله قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وإذا قلنا ذلك فإنا مأمورون بإكثار الدعاء لله في كل حال من الحالات، حتىٰ نظهر العبادة لله والخشوع والفقر بين يديه سبحانه، والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٢) سبق تخريجه في هذا الباب.

[١٤]

باب:

قول الله تعالى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وفي الصحيح، عن أنس، قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وفيه: عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلاناً وفلاناً»، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن

هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]» .

وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش ـ أو كلمةً نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً» .

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين، وخلفه سادات الأولياء، يؤمِّنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيهم، وحرصهم علىٰ قتله، ومنها: التمثيل بالقتلىٰ مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، فتاب عليهم فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم، وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعن المعين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

الثانية عشرة: جِدُّه ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلىٰ الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «**لا أغني عنك من الله شيئاً**»، حتىٰ قال: «**يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً**».

فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم تبين له التوحيد، وغربة الدين.

الشرح

باب:
قول الله تعالى:
﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾

هذا الباب عقده المؤلف لبيان أن كل من سوىٰ الله متصف بهذه الصفة في هذه الآيات: ﴿لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

فكل من سوىٰ الله فهو علىٰ هذه الحال، ويدخل في ذلك الأنبياء، والملائكة، والصالحون، والسادة ونحوهم، حتىٰ النبي ﷺ لا يستحق شيئاً من حق الله، الذي هو الملك، والتصرف، والخلق، والتدبير، فهذا كله إلىٰ الله.

■ قوله: [قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢]]:

يقول الله تعالىٰ: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾؛ أي: كيف يشركون، وكيف يعبدون من هو بهذه الحال؟ ﴿مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾؛ أي: أولئك المدعوون المعبودون، ولو من الملائكة لا يخلقون شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بل هم مخلوقون، ومحتاجون إلىٰ خالق يخلقهم ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾، أي: لا يستطيعون نصركم أيها العابدون ﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ فلو أنهم أصيبوا بشيء لم يقدروا أن يدفعوا عن أنفسهم، بل هم محتاجون إلىٰ النصر من عند الله؛ فإذا لم يستطيعوا نصر أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم ممن عبدوهم؟

وهذا الوصف عام لكل من سوىٰ الله، ولو سموا سادة، أو أولياء، أو سموا

أنبياء، أو صالحين، أو أشرافاً، أو غير ذلك، كلهم لا يخلقون؛ بل هم مخلوقون، ولا ينصرون؛ بل هم محتاجون إلىٰ من ينصرهم.

فإذا كانوا لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف بغيرهم؟!

■ **قوله**: [وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]]:

هذه الآية في وصف المشركين وآلهتهم، يقول تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾، أي: كل من تدعونه، ولو كان نبيّاً، أو ملكاً، أو سيداً: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، والقطمير هو: اللفافة التي علىٰ ظهر نواة التمر، فإذا أخرجت نواة التمر وجدت عليها لفافة رقيقة، متىٰ كانت يابسة طارت من خفتها.

فيقول تعالىٰ: إنهم ما يملكون في السموات، ولا في الأرض، ولا في الكون كله، ولو وزن هذا القطمير، فكيف بما هو أكبر منه؟

وإذا لم يكونوا مالكين، فكيف تدعونهم؟ و كيف تقولون لهم: نحن في جواركم؟ ونحن في عصمتكم وفي ذمتكم؟ أنقذونا، أعطونا، أو ملكونا، أو أدخلونا الجنة، أو أنقذونا من النار، أو خذوا بأيدينا.

كيف يأخذون بكم؟ أو كيف ينصروكم؟ وهم ليس لهم ملك، ولا نصر لأنفسهم، ولا لغيرهم، والملك لله فهو الذي يملك ما في السموات، وما في الأرض.

فإذا لم يكونوا مالكين حتىٰ ولو قطميراً، فكيف يدعون مع الله أو من دون الله؟

ثم قال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، وذلك لأنهم مشغولون بأنفسهم، أو أنهم جماد، أو أنهم أموات؛ فهم ليسوا مهتمين بكم، أو لا يسمعونكم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، فلو قدر أنهم يسمعون ـ كالأموات الذين ورد أنهم يسمعون من يسلم عليهم[1] ـ، ونحو ذلك، لا يستجيبون لكم؛ يعني: لا يعطونكم طلباتكم، ولا ينفعوكم فيما طلبتم منهم وأردتم، وذلك لأنهم لا يملكونه، فالملك لله، ولو سمعوكم وأنتم تدعونهم ما استجابوا لكم، أي: لما كلموكم، ولما أعطوكم مطلوبكم.

فإذا طلبتم منهم المغفرة، أو طلبتم منهم الرحمة، أو طلبتم منهم النصر، أو طلبتم منهم الرزق، فليس في أيديهم، ولو كانوا أنبياء، أو ملائكة، أو سادة، أو نحو ذلك.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي: يوم القيامة يتبرءون منكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ أي: تقطعت بينهم الوسائل والقرابات ونحو ذلك، فلا

---

(١) وردت عدة أحاديث في مسألة سماع الأموات من يسلم عليهم، عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وغيرهم، ذكر بعضها ابن رجب في كتاب أهوال القبور، فصل: معرفة الموتى بمن يزورهم ويسلم عليهم.
قال عبدالحق الأشبيلي عن حديث ابن عباس: إسناده صحيح، ذكره العراقي في المغني (٤/ ٤٩١)، وابن رجب في أهوال القبور، إلا أن ابن رجب قال بعد أن نقل عن الأشبيلي، قال: يشير إلى أن رواته كلهم ثقات وهو كذلك إلا أنه غريب منكر.
وأما حديث عائشة فقد قال ابن رجب في كتاب أهوال القبور: رواه عبدالله عن ابن سمعان وهو متروك.
قال الشيخ ابن جبرين: أما الأرواح فلا شك أنها تعرف من يزورها، وأنها تسمع، وأنها أيضاً تتلاقى وتتخاطب. فهي في هذا الوجود لم تعدم حتى يأذن الله بردها إلى أجسادها عند النفخ في الصّور. (انظر كتاب: المقرب لأحكام الجنائز، إعداد عبدالعزيز العريفي، وهي جزء من فتوى للشيخ ابن جبرين حفظه الله).

ينفعونكم، بل يكفرون بشرككم، ويقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩].

إن كنتم عبدتمونا فنحن غافلون عنكم، ومشغولون عنكم، وما شعرنا بعبادتكم، ولم نأمركم بعبادتنا.

وكما حكىٰ الله عن عيسىٰ أنه قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ فهذا دليل علىٰ أن كل من عُبد ولو كان نبيّاً، أو صالحاً فإنه يتبرأ ممن عبده مع الله، ويبغض عبادته.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، فإذا حشر هؤلاء السادة الذين أنتم تدعونهم من دون الله يكونوا من ألد الأعداء لكم، وأنتم ترجونهم أن ينقذوكم، وأنتم تذبحون لهم، أو تطوفون بقبورهم، أو تتعلقون بهم، أو تستشفعون بهم، أو تزعمون أنهم... وأنهم...، وتنسون الله، ولا تطلبون منه، فهم يوم القيامة يكفرون بشرككم، ولا يستطيعون نفعكم، أو دفع الضر عنكم، ويكونون لكم أعداءً، ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]؛ أي: منكرين جاحدين.

ثم إن حال هؤلاء الذين عبدتموهم؛ سواء كانوا أنبياء، أو صالحين، أو غيرهم، إنهم لا يملكون شيئاً، حتىٰ نبينا محمد ﷺ، مع أن الله خصه بالرسالة وفضله وأنزل عليه الوحي، وجعل رسالته عامة للناس وختم به النبيين وفضله عليهم، ولكن ليس له شيء من حق الله، فليس له شيء من العبادة.

وكل من دعا معه أحداً
أشرك بالله ولو محمداً

■ قوله: [وفي الصحيح، عن أنس، قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» ؛ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨](١)].

وفيه: عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر ـ: «اللهم العن فلاناً وفلاناً». بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٢).

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨](٣)]:

في هاتين القصتين، وفي هذين الحديثين دليل على أن الرسول ﷺ بشر لا يملك شيئاً، ولا يقدر أن يرد ما كتبه الله.

● ففي القصة الأولى: أنه لما كان في يوم أحد شجه بعض المشركين؛ أي: جرحوه في رأسه، وكسروا إحدى رباعياته، وهي السن الذي في جانب الثنية، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟!» ؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ؛ أي: الأمر كله لله.

فالله تعالى هو الذي سلطهم، فلا تنفي عنهم الفلاح، بل أطلب النصر من

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في «كتاب المغازي» باب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وأخرجه مسلم موصولاً برقم (١٧٩١)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٣، ٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٠٧٠) مرسلاً كما قال ابن حجر؛ لأنه من رواية سالم بن عبدالله بن عمر رضي الله عنهم.

وقد أخرجه موصولاً أحمد (٢/ ٩٣)، والترمذي برقم (٣٠٠٤)، وابن جرير (٤/ ٨٨)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند» (٥٦٧٤): إسناده صحيح.

الله، فلو كان له من الأمر شيء، أو من الملك لما قدروا على ذلك، ولكن الأمر بيد الله.

فالظاهر أن الله تعالى أنكر عليه لما نفى عنهم الفلاح، وعاتبه بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

● **كذلك القصة الثانية**: أنه كان ﷺ يدعو على المشركين في صلاته إذا كان في الركعة الأخيرة من الفجر، وقال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثم قال: «**ربنا ولك الحمد**»، أخذ يدعو على أناس من صناديد الكفار، الذين هم قواد الكفر، وسادات المشركين، مثل صفوان بن أمية، الذي كان أبوه أمية بن أنس من صناديد الكفار، وقد قتل في غزوة بدر، ويدعو على سهيل بن عمرو، وكان - أيضاً - من سادات أهل مكة، ولم يكن من قريش، ويدعو على الحارث بن هشام، وهو أخو أبي جهل؛ لأنه كان أيضاً ممن يحرض المشركين على قتال النبي ﷺ، وكان يعذب المسلمين، فدعا عليهم النبي ﷺ؛ لأنهم على هذه الحال في الكفر، فالحاصل أنه ﷺ كان يدعو عليهم، فيقول: «**اللهم العن فلاناً وفلاناً**»، يدعو على هؤلاء.

ولكن الله أنكر عليه ذلك، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: لا تَدْعُ عليهم، فإن الله يعلم الغيب وأنت لا تعلمه، فربما يهديهم الله، وهدى الله الثلاثة، وأسلموا، وحسن إسلامهم، وقاتلوا في سبيل الله، وحصل لهم مكانة، فدل على أن الأمر كله لله، وأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري ما هو المتسقبل، وأنه - أيضاً - ليس له من الأمر شيء؛ بل الأمر كله لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وكان ﷺ يدعو لأناس من المسلمين في صلاته، فيقول: «**اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين**»(١)؛ حيث أن المشركين حبسوهم في مكة ولم يمكنوهم من الخروج والهجرة، فيدعو ﷺ لهؤلاء بالنجاة، ويدعو على أولئك الصناديد بالهلاك واللعنة والعذاب.

ولكن لما علم الله شيئاً لم يعلمه الرسول ﷺ أنكر عليه، فقال: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾، أي: أنك لا تستطيع ولا تقدر أن تغير الحال، كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦].

وهذا دليل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وعلى أن الأمر كله لله.

والأمر في هذه الآية بمعني: الملك والتصرف، أي: الملك والتصرف لله وحده، فإذا كان الملك له فهو الذي يرجى، وهو الذي يطلب، وهو الذي يعبد، وهو الذي يُخضع له، وهو الذي ينذر له ويذبح له، ولا يصرف من ذلك شيء لغيره.

فمتى عرف المسلم ذلك رغب إلى الله تعالى وأقبل على دعائه، وصد عن كل ما سواه، ولم يدع أحداً إلا الله، لا نبيّاً، ولا وليّاً، ولا سيّداً، ولا غير ذلك بأي نوع من أنواع الدعاء؛ **سواء بالأقوال**، كأن يقول: ياسيدي أنا في جوارك، أو اعصمني، أو انصرني، أو ارزقني، أو أعطني أو نحو ذلك، أو **بالأفعال**: كأن يطوف بقبته، أو بقبره، أو يتمسح بتربته، أو يصلي عنده، أو يذبح له، أو ينذر له، أو نحو ذلك، فكل ذلك تعلق على من ليس له من الأمر شيء؛ سواء كان نبينا محمد ﷺ أو غيره من الأنبياء، أو الصالحين، أو الشهداء، أو السادة ونحو

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٢٠٠)، ومسلم برقم (٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذلك .

فإذا كان النبي ﷺ وهو في هذه المنزلة العظيمة عند الله ، ومع ما خصه ، وما ميزه من الوحي والرسالة ؛ لم يصل إلىٰ أن يستحق شيئاً من العبادة ، ومن حق الله الذي هو التعظيم والذل له ، وليس له من الأمر شيء ؛ ونحو ذلك ، فكيف بمن هو دونه؟!

وهذا هو القصد من إيراد هذا الباب ، وكأن المؤلف لمس أن أهل زمانه وقع فيهم شيء من الغلو في حق النبي ﷺ ، فخاف أن يصل بهم الغلو إلىٰ ما وصل بالنصارىٰ ؛ حيث غلوا في عيسىٰ حتىٰ جعلوه إلهاً ، أو ابناً للإله ، أو شريكاً في الإلهية .

فإذا غلت هذه الأمة في نبيها فدعته مع الله ، أو حلفت به ، أو قدسته تقديساً وتعظيماً لا يصلح إلا لله ، أصبحت مثل النصارىٰ .

والله تعالىٰ قد ذم أهل الكتاب علىٰ الغلو ، بقوله : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] ، وقال : ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] ؛ أي : إنما وظيفته أنه رسول ؛ فلم يصل أن يكون إلهاً .

كذلك يقال لهذه الأمة: لا تعظموا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، إنما هو رسول وظيفته الرسالة ، وكفىٰ بها شرفاً ، ففضله الله بالرسالة ، ولكن لم يخرج بذلك عن العبودية ، فهو عبد الله ورسوله ، وعبوديته ﷺ فضيلة وشرف ـ أيضاً ـ وذلك لأنها عبودية لله تعالىٰ ، والعبودية لله ميزة وفضيلة عظيمة ، ولهذا ذكره الله تعالىٰ باسم العبد ، في عدة آيات ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ

يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

ومعنىٰ كونه عبداً: أنه عابد لله، ومعبد لله، ومملوك لله، ولو كان مرسلاً، ولو كان ينزل عليه الوحي، ولو كان من خيرة الله من خلقه، وصفوته من بريته، فإنه لم يخرج عن كونه عبداً، فقد صرح بذلك النبي ﷺ في قوله: «**إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١)، ولما جلس مرة جلسة التواضع، قال: «**إنما أنا عبد، أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد**»(٢).

ولاشك أنا إذا تعبدنا لله، وأضفنا أنفسنا إلىٰ عبودية الله، كانت هذه العبودية لله تعالىٰ ميزة وفضيلة، وشرفاً لنا.

كان بعض المماليك يمتدح إذا قيل: إنه عبد فلان، أو مملوك السلطان الفلاني، أو نحو ذلك، فيمتدح بالعبودية لبعض السلاطين والملوك، ويعد ذلك شرفاً، يقول أحدهم:

إذا قيل هذا عبدهم ومحبهم
تهلل بشراً وجهه يتبسم

فإذا كانت العبودية لبعض الخلق يعدونها فضيلة وميزة، فكيف بالعبودية لله الخالق رب الأرض والسماء؟ كيف إذا قيل: أنت عبد الله؟ أي: مملوكه ورقيقه، الذي يملك رقك، والذي يتصرف فيك، لا شك أن هذه الصفة صفة فضل،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٤٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه مفصلاً في الباب الأول (باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب).

وصفة شرف لنبينا ﷺ، ولغيره من أنبياء الله أيضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، ونحو ذلك، فهم عباد الله مملوكون، والمالك هو الله تعالىٰ، ولا يصلح للعبد شيء من حق المالك.

وحق المالك هو الذل له، ودعاؤه، وتعظيمه، وأما العبيد فلا يصلح لهم شيء من ذلك.

وإذاً فللرسول ﷺ حق لا يصلح لغيره، وللرب تعالىٰ وتقدس حق لا يجوز صرفه لأحد من البشر.

يقول ابن القيم رحمه الله:

للرب حق ليس يقبل غيره
ولعبده حق هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقاً واحداً

* وللرسول ﷺ حقوق علينا، نذكر بعضها:

أولاً: أن نؤمن به؛ أي: نصدق بأنه رسول.

ثانياً: أن نحبه محبة نقدمها علىٰ محبة أنفسنا، وأهلينا.

ثالثاً: أن نطيعه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

رابعاً: أن نتبعه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١].

خامساً: أن نتأسى به: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

سادساً: ألا نخالفه، ولا نعصيه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ

أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

سابعاً: أن نتقبل كل ما جاء به، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ثامناً: أن نعظم سنته، وأن نحترمها في حياته، وبعد مماته، فقد كان الصحابة يحترمونه، احتراماً عظيماً، فلا يرفعون الصوت عنده: **﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾** [الحجرات: ٢]، ولا يخالفون سيرته وأفعاله.

ونحن كذلك أيضاً متى قُرئت علينا أحاديثه لم نرفع أصواتنا عند صوته؛ ـ أي: عند الأحاديث التي تكلم بها ـ، ولم نخالف، أو نتقدم بين يدي ما أمرنا به.

فإذا عرفت حقوقه ﷺ فبقية العبادات حق الله؛ فالدعاء حق الله؛ فليس للرسول شيء من ذلك، فلا يقال: يا محمد، أو: يا رسول الله، خذ بأيدينا أو أعطنا، فالدعاء حق الله، والله يقول: **﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾** [الجن: ١٨]، ولم يقل: إلا محمداً، أو نحو ذلك.

وكذلك الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والخشية، والخشوع، والإنابة، والتوبة، والاستغفار، كل هذا لله تعالى، وهي حق الله.

وهكذا أيضاً الذبح لله، والنذر له، والركوع له، والسجود له، وما أشبه ذلك.

فالعبادات التي هي فروع من طاعته تعتبر حقوق لله فلا يصرف منها شيء لغير الله، لا لنبي مرسل، ولا لملك مقرب فضلاً عن غيرهما.

وحيث إن الرسول ﷺ بشر ميزه الله تعالى بالرسالة، وفضله بها، فليس له شيء من حق الله، ومن أجل ذلك صرح في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]؛ يعني: ليس لك من العبادة، وليس لك من التدبير، إلا ما دبرّتَ به، فالتدبير، والأمر والشأن، والقدر، والخلق، كله لله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

كذلك - أيضاً - هو لا يملك لنفسه، ولا لغيره شيئاً، يقول الله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ يعني: إلا ما أعطاني الله، وملكني، وأقدرني: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]؛ يعني: لا أقدر أن أضركم، ولا أقدر أن أنفعكم، ولا أملك لكم خيراً، ولا شراً، بل ملك ذلك كله لله تعالى.

■ قوله: [**وفيه: عن أبي هريرة، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش - أو كلمةً نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً»**[1]]:

في هذا الحديث يتبرأ ﷺ من أقاربه، حتى عمه، وعمته، وابنته، ويخبر بأنه لا يملك لهم شيئاً، ولا يغني عنهم شيئاً، فيقول لابنته: «**لا أغني عنك من الله شيئاً**»، وكذا يقول لعمه، ولعمته، ولأقاربه: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**»، يعني:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٧٥٣).

انقذوا أنفسكم لا ينفعكم إلا أعمالكم، اعملوا الأعمال الصالحة التي تنجون بها من عذاب الله، فإن الله هو الذي يملك النفع والضر، وهو الذي يستحق العبادة، وهو الذي عنده الثواب والعقاب، فاطلبوا منه الثواب، والنجاة من العقاب، ولا تطلبوها مني، فإنه لا ينفعكم قربي، وكوني قريباً لكم، أو أخاً أو ابن أخ، أو نحو ذلك، إنما تنفعكم أعمالكم.

وإذا كان هو عليه الصلاة والسلام لا يملك شيئاً من ذلك، فكيف يُدعى؟.

كيف بحال أولئك الذين يقفون عند قبره، ويقولون: أتيناك يا أبا فاطمة من مسيرة شهر من مكان بعيد، ونحن في جوارك، ونحن في ضيافتك، لا تخيب رجاءنا، اشفع لنا، انفعنا، أعطنا، اقبل حجنا، اقبل سعينا، أو ما أشبه ذلك، فهؤلاء طلبوا من المخلوق، وهو عليه الصلاة والسلام قد أخبر أنه لا يملك شيئاً لأقاربه، فكيف بهؤلاء الذين قد أحبطوا أعمالهم بهذا الشرك؟!

فالإنسان عليه أن يخلص أعماله التي هي قربات، وطاعات لله، ويكون عمله مع الرسول ﷺ إنما هو: الاقتداء والاقتفاء؛ فيحبه، ويتبعه، وتحمله محبته على أن يتفانى في طاعته.

إن الكثير من الناس يقولون إذا رأوا من ينهاهم عن الحلف بالرسول عليه الصلاة والسلام كقولهم: والنبي، أو والرسول: نحن نحبه، فنقول لهم: إن كنتم تحبونه وتحبون ربه فاتبعوا الرسول، وذلك علامة محبته.

كذلك إذا نهوا عن التمسح بجدران الحجرة النبوية، أو نهوا عن دعائه، بقولهم: ياخير البرية، أو: يا رسول الله، أو ما أشبه ذلك، وقيل لهم: ادعوا الله، قالوا: نحن ندعوه ونتمسح بجدران حجرته لأننا نحبه، وأنت لا تحب

الرسول، وأنت... وأنت....

فنقـــول لهـم: محبته والإيمان به إنما ثمرتها طاعته، والسير على طريقته، واتخاذه أسوة وقدوة، لا أن يعطى شيئاً من حق الله، فإن الدعاء لله، والله يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ولم يقل: إلا محمداً.

فأنت إذا قلت: يا محمد، فهذا هو الدعاء، سواء كنت بعيداً أو قريباً.

فالحاصل أن حق الله تعالى هو العبادة، ولا يصح ولا يجوز أن يصرف منه شيء لغير الله، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن سواهما، فإذا كانت هذه حال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أقاربه، ومع أصحابه، فكيف بغيره؟ وكيف بغير أقاربه؟

■ ■ ■ ■ ■

[١٥]

باب:
قول الله تعالى:
﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾

قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

في الصحيح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، يَنْفُذُهم ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، ووصفه سفيان بكفه فحرَّفها وبدّد بين أصابعه ـ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر، أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

وعن النواس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلّم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال: رعدة ـ شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا، وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً ما تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال كذا وكذا».

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل.

السابعة: أنه يقول لأهل السموات كلهم؛ لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغَشْي يعم أهل السموات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السموات بكلام الله.

العاشرة: أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.

الثالثة عشرة: إرسال الشهاب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة، ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: أن تلك الرجفة والغَشْي خوفٌ من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

■ ■ ■ ■ ■

•• الشرح ••

باب:
قول الله تعالى:
﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾

القصد من هذا الباب: بيان خوف الملائكة من الله تعالىٰ، وتعظيمهم لأمره، وشدة وجلهم إذا كلفهم خوفاً من التقصير في أوامره.

والملائكة عباد الله المكرمون الذين خلقهم لعبادته، وأخبر بأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وأخبر بأنهم: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، لا يتكبر أحد منهم عن أن يعبد الله، ولايستحسر؛ أي: لا يتعب: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، يقول النبي ﷺ: **«أطَّتِ السماء، وحق لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم، أو راكع، أو ساجد»**(١).

يمثل بذلك كثرتهم وطواعيتهم، وأن من الملائكة من هو ساجد أو راكع من حين خلق إلىٰ أن تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة، قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، غير أنا لم نشرك بك شيئاً، هذا مع طول عبادتهم؛ وذلك لأنهم عرفوا أن ربهم أهل العبادة، والمستحق للتعظيم، فعظموه بقدر وسعهم.

وقد أخبر الله بكرامتهم عليه، في قوله تعالىٰ ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥، ١٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥١٠)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عليه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]؛ أي: لا يتقدمون في القول بين يديه، ويعملون بأمره **﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾** [الأنبياء: ٢٩]، وهذا على وجه الفرض، وإلا فمعلوم أنه لا يقول أحد منهم: إنه إله من دون الله، فهم دائماً يسبحون الله تعالى ويحمدونه، قال تعالى: **﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** [غافر: ٧].

فوظيفتهم أنهم دائماً في عبادة، ولا يتعبون، ولا يستحسرون، كما في قوله تعالى: **﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾** [فصلت: ٣٨]، وفي آية أخرى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾** [الأعراف: ٢٠٦].

كل هذا حكاية عن الملائكة أن هذه حالهم، وهذه عبادتهم، وهذا خوفهم الشديد من الله.

■ **قوله: [قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [سبأ: ٢٣]]:

هذه الآية وردت بعد نفي الشفاعة إلا لمن أذن له الله تعالى، رداً على المشركين والقبوريين الذين يعبدون الأموات والأولياء: **﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾** [يونس: ١٨]؛ فأخبر تعالى أن الشفاعة له وحده **﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾**، ثم قال تعالى **﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾** [سبأ: ٢٣]، قيل: الضمير يعود إلى الملائكة؛ أي: إذا زال الفزع عن قلوبهم، حيث ذكر في الحديث[1] أنهم يفزعون ويصعقون عند سماع كلام الله تعالى الذي ترجف منه

(١) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أورده المصنف في هذا الباب، وسيأتي تخريجه.

السموات، وترتعد خوفاً من الله عز وجل، فيصعق أهل السموات، ويخرون لله سجداً، فعند زوال ذلك الفزع والصعق عن قلوبهم يتساءلون ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: بماذا أمر، وما قدر ودبر من الأمور، فيقول من سألوه: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما ذكر في الحديث أن أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وأنه يمر على الملائكة فيسأله أهل كل سماء: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ الخ.

وهذا دليل على خوف الملائكة وفزعهم، وتعظيمهم للرب سبحانه، مع كونهم من المقربين، وإذا كانوا كذلك لم يصلح أن يصرف لهم شيء من العبادة التي هي حق الله، ولا لغيرهم ممن هو دونهم في القرب والفضل.

ومما يدل على أن المراد بهذه الآية الملائكة، قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وهذه الآيات رد على الذين جعلوا لله ولداً، وجعلوا الملائكة إناثاً.

فأخبر بأنهم عباد الله مكرمون عند ربهم، وأنهم لا يتقدمونه بالقول، ويعملون بما أمرهم به، وأنهم لايشفعون إلا لمن رضي عنه من خلقه، فهكذا في هذه الآية، أخبر بأن الشفاعة لا تنفع إلا بإذنه، وأن الذين ترجى شفاعتهم وهم الملائكة يخافون من الله تعالى، ويفزعون عند سماع كلامه، فإذا زال عنهم الفزع تساءلوا عن ماذا قاله الرب تعالى.

وهناك قول آخر في الآية: أن الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعود إلىٰ المشركين، وأن زوال الفزع في الآخرة، وقد رجح ابن حجر وابن كثير القول الأول.

وقوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾؛ أي: لا يقول إلا حقاً وصدقاً مما يأمر به، أو يدبره من أمر أو نهي، أو خلق، أو رزق، أو موت أو حياة، مما يكون في السماء أو في الأرض، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾؛ فله جميع صفات العلو، بذاته، وصفاته، وعلو القدر، وعلو القهر: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]، والله أعلم.

■ **قوله: [في الصحيح ،عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، يَنْفُذُهم ذلك، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان بكفه فحرَّفها وبدّد بين أصابعه ـ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر، أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»(١)].**

في هذا الحديث يمثل النبي ﷺ طواعية الملائكة لأمر الله، وذلك أن الله تعالىٰ إذا قضىٰ أمراً، أو حكم بحكم، أو قدّر قدراً في السماء ظهر لذلك أثر في السموات، فإذا رأىٰ ذلك الملائكة ضربوا بأجنحتهم خاضعين مستكينين، بمنزلة الطائر الذي يكون خاضعاً للإنسان، أو خائفاً من عدو، فإنه يمد جناحيه علىٰ

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠١).

وجه الخضوع، وعلى وجه التذلل، فتضرب الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله عندما يسمعون كلام الله، أو عندما يسمعون ما دبره الله، وما قدره من الأمور، كل ذلك خوفاً من الله وتعظيماً له سبحانه.

وقد شبه النبي ﷺ في هذا الحديث كلام الله تعالى الذي قدره مثل جر السلسلة على الصفا، فإن السلسلة متى سحبت على صفاة ملساء ظهر لها صوت مزعج شديد، يسمعه القريب والبعيد، ويسبب فزعاً يصل إلى القلوب، فهذا الصوت ينفذهم ويصل إلى قلوبهم فيفزعون، ويغشاهم الوجل مما يجعلهم يخضعون، ويخشعون، ويسجدون، ويضربون بأجنحتهم خضعاناً لقوله.

فإذا زال الفزع والخوف عن قلوبهم تساءلوا فيما بينهم، وقالوا: ماذا قضى الله؟ وبماذا قدر؟ وما هو الأمر الذي أمر به؟ والحكم الذي حكم به؟ فيخبر بعضهم بعضاً: إنه حكم وقضى وأمر بـ: ﴿الْحَقَّ﴾ فيعظمون الله الذي لا يقول إلا الحق ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، يعني: إنه حكم بكذا، وقدر كذا، وأمر بكذا، من إماته، أو إحياء، أو قحط أو جذب، أو مرض، أو غيث ينزل في مكان كذا في وقت كذا، أو ما أشبه ذلك مما يحدث في الأرض.

والحاصل أن الملائكة تتحدث بذلك الأمر الذي يحدث في السماء، فتتحدث بما سوف يقدره الله وما سوف يجريه.

وإذا كانت هذه حال الملائكة، وهذا خوفهم من الله، وأنهم يعبدون الله تعالى بالتعظيم، فكيف يصلح أن يصرف للملائكة شيء من حق الله؟ وكيف يجوز أن يعظموا؟ فحق الله لله، وحق الله هو: العبادة، وحق الله هو: الدعاء، وحق الله هو: الخوف منه، والرجاء فيما عنده، وجميع أنواع التعظيم له وحده،

لا شريك له، ولا يصلح أن يصرف حق الله لغيره، ولو كان الملائكة.

وإذا لم يصلح لهم شيء من التعظيم، والعبادة، فغيرهم بطريق الأولىٰ، فإن من سواهم من الخلق دونهم، فمن يسمون أولياء، ومن يسمون سادة، وصالحين، وعباداً، وأقطاباً، وأوتاداً، وأبدالاً، ونحو ذلك، كل هؤلاء دون الملائكة في الفضل، ودون الملائكة في الخوف من الله، فكيف مع ذلك يصرف لهم شيء من حق الله.

والملائكة لما كانوا عارفين بالله، وعارفين بعظمته كان تعظيمهم لله أشد، وكان خوفهم من الله أعظم؛ ولذلك يقول بعض العلماء: من كان بالله أعرف كان منه أخوف، فلما كان الملائكة أعرف بالله كانوا أشد خوفاً، وإذا كان هذا خوفهم من الله تعالىٰ لم يصلح أن يصرف لهم شيء من حق الله تعالىٰ.

فإذا تحدثت الملائكة فيما بينهم بهذا الأمر الذي قضاه الله تعالىٰ؛ سمعته الشياطين أو الجن الذين يسترقون السمع قرب السموات، كما أخبر الله تعالىٰ ـ حكاية عن الجن ـ أنهم يسرقونه في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، أي: لنا مقاعد قريبة من السماء نستمع فيها كلام الملائكة وننقله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨،٩].

فهؤلاء الشياطين يسرقون السمع، أي: الكلام الذي يسمعونه من الملائكة، ويتناقلونه بينهم.

فمسترق السمع هم: الشياطين، أو هم شياطين الجن، وقد وصفوا في الحديث بأنهم يكون بعضهم فوق بعض، ووصفه سفيان بكفه فحرّفها، وبدد بين

أصابعه.

والحاصل أن هؤلاء الشياطين الذين يسرقون السمع يرجمون بالشهب، فتارة يصيب أحدهم الشهاب قبل أن يلقي تلك الكلمة لوليّه من الإنس، وتارة يلقيها إلىٰ وليه من الإنس بسرعة هائلة قبل أن يدركه الشهاب.

وقد أخبر الله تعالىٰ أن هذه الشهب حرس وحفظ للسماء من الشياطين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⑧ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٨-١٠]؛ أي: إلا من اختطف كلمة يسمعها من الملائكة فيتبعه شهاب يُرمىٰ به ليحرقه، أو يطرده عن السماء.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ فيخبر تعالىٰ بأن هذه الشهب رجوم ترجم بها الشياطين عن استراق السمع.

فالشياطين يسرقون السمع من الملائكة، ويُرجمون بهذه الشهب، ولكن قد يلقي الكلمة التي سرقها بسرعة هائلة إلىٰ الإنسي قبل أن يصيبه الشهاب، فإذا استرقوا الكلام كان بعضهم فوق بعض، فالأعلىٰ منهم يسمع كلمة من الملائكة، ويلقيها بسرعة إلىٰ من تحته، ويلقيها الثاني إلىٰ من تحته، ويلقيها الثالث إلىٰ من تحته، وهكذا إلىٰ أن يقرقرها آخرهم في أذن الساحر، أو الكاهن من الإنس الذي يستخدم الشياطين، فيأتي ذلك الساحر أو الكاهن ويخبر الناس، ويقول: إنه سيحدث كذا، وإنه سيحدث كذا.

فإذا أدرك الشهاب الشيطان قبل أن يأتي بالكلمة إلىٰ وليه احترق، ولم يقل

شيئاً، وإذا ألقاها إلىٰ وليه الإنسي قبل أن يدركه فإن ذلك الولي الذي هو الساحر أو الكاهن يحدث بها الناس، ثم لا يقتصر علىٰ تلك الكلمة؛ بل يضيف عليها، ويكذب معها مائة كذبة، ويقول قولاً لا حقيقه له، وذكر المائة مبالغة في العدد، وإلا فقد يكذب أكثر أو أقل.

وقد أخبر الله تعالىٰ بأن الكهنة يحدثون الناس بما توحيه إليهم الشياطين، ولكنهم يكذبون ويزيدون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾؛ أي: يتلقون السمع من الشياطين التي تسترقه من الملائكة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٣]، فقد يكون الكذب من الشياطين بأن تخبر الكهنة بأشياء لم تقع، ولكن الغالب أن الكذب يكون من السحرة والكهنة ونحوهم، وذلك أنهم إذا سمعوا كلمة كذبوا معها عدة كلمات، وتَقَوَّلُوا من قبل أنفسهم، ولكن الناس ينخدعون ولا يعتبرون، فإذا أصاب مرة بسبب ما أوحته إليهم الشياطين انخدعوا، ولم يعتبروا بكذبهم مرات كثيرة الذي هو من عادتهم.

والحاصل أنهم يغترون بصدقه ويعتقدون أن عندهم شيء من علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله وحده.

ثم متىٰ حدثهم الكاهن بشيء ولم يقع قالوا: لا يضره فإنه قد صدق في يوم كذا وكذا، وقد أخبرنا بشيء فوقع كما قال. ثم متىٰ حدثهم بشيء آخر ولم يقع أيضاً أصروا وقالوا: لا يضره، فلا يعتبرون بمائة كذبة اعتماداً علىٰ مرة واحدة صدق فيها ووافق وطابق الواقع.

فالحاصل أن الكهان والسحرة يستخدمون الشياطين ويعبدونها ويتقربون

إليها، ويدعون لها، ويعظمونها، فإذا أطاع الشيطان وعبده فإن الشيطان يخدمه، ويخبره ويطلعه على أشياء لا يطلع عليها الناس؛ لأن الشيطان يرى أشياء لا يراها الناس، إما في العالم العلوي، وإما في العالم السفلي؛ كالأشياء البعيدة ونحوها.

فيجب على المرء ألا يصدق هؤلاء الكهنة، ولا ينخدع بأكاذيبهم، ولا بأقوالهم، وأن يعتبر إصابتهم مرة واحدة إما على وجه المصادفة، وإما على وجه السرقة التي استرقتها الشياطين من الملائكة، وإلا فهم بشر كسائر البشر.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن الكهان ضلال، وبأن من صدقهم فهو كافر، فقال ﷺ: **«من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»** (١).

فائدة:

عرفنا أن الملائكة عباد خلقوا لطاعة الله، والله أعلم بكيفيتهم، فهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

وأيضاً هم يسمعون كلام الله وينفذونه كما أمرهم دون زيادة أو نقصان، وقد جعل الله لهم قوة خاصة يستطيعون بها الانتقال من السماوات إلى الأرض والعكس.

وهم أيضاً عباد لا يأكلون ولا يشربون ولا يتغوطون، وقد خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أوامره ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، والكلام حولهم يطول، ونكتفي بهذا.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٩٠٤)، والترمذي برقم (١٣٥)، وابن ماجه برقم (٦٣٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٠٦).

أما الشياطين فهم مطرودون ومبعدون من رحمة الله، ولا نعرف خلقتهم، إلا أنهم أرواح يتمكنون من النفوذ في جسد ابن آدم، ويدخلون إلى الصدر ويوسوسون للناس، كما في قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٤، ٥].

ويجب علينا أن نصدق بوجودهم، وإن كنا لا نعلم كيفيتهم، وذلك من علم الغيب، وأنهم يوسوسون لأوليائهم من الإنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]؛ أي: يوحون إلى أوليائهم من الكفرة، والكهنة ونحوهم.

● **ما يستفاد من هذا الحديث:**

أولاً: هيبة الملائكة، وتعظيمهم لله، وشدة خوفهم منه، وإخبارهم بأنه تعالى لا يقول إلا الحق، ولا يقول باطلاً، وأنهم متى سمعوا كلامه، خشعوا، وخضعوا، وتواضعوا لله تعالى.

ثانياً: أن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع تسمعه الملائكة، ويظهر له تأثير.

ثالثاً: فيه شدة وقع كلام الله؛ حيث شبه قوته على وجه التقريب ولله المثل الأعلى: بجر السلسلة على الصفوان.

رابعاً: فيه أن الملائكة يسجدون، ويبادرون بالسجود، عندما يسمعون كلام الله الذي دبره وقدره، ثم لا يزالون سجوداً إلى أن يزول الفزع عن قلوبهم، ثم بعد ذلك يتحدثون بما كان، وبما دبره الله، وبما قدره، أو سيقدره في الكون، ويتحدثون به، وبكيفية وقوعه.

خامساً: أن الشياطين يسترقون السمع من الملائكة، وأنهم يرتفعون إلى أن

يصلوا إلى السماء، وذلك لخفة أجسامهم؛ فإنه ليس لهم ما للإنسان من الأجرام التي لايستطيعون معها الارتفاع، فالشياطين والجن أجسامهم خفيفة، أو أنهم أرواح ليس لها أجسام، فمن أجل ذلك يستطيعون أن يرتفعوا، كما أنهم يستطيعون أن يتخاطبوا فيما بينهم، ويسمع بعضهم بعضاً، ولو من بعيد.

سادساً: أن الذين يسترقون السمع يحدثون به أولياءهم من الإنس، والأولياء هم الكهنة أو السحرة، ولا شك أن الكاهن الذي تنزل عليه الشياطين لا تنزل عليه إلا بعدما يكون من أوليائها؛ ولهذا في بعض الروايات ذكر أنه: يقرقرها في أذن وليه من الإنس؛ أي: أن تلك الكلمة التي سمعها من السماء يحتفظ بها حتى يقرقرها في أذن وليه؛ يعني: حتى يخبر بها وليه.

وفي هذا دليل على أن الساحر أو الكاهن قد والى الشياطين، وموالاة الشياطين معناها: أنه أطاعهم في معصية الله، وتقرب إليهم بما يحبون من سخط الله، ومن الخروج عن شريعته حتى صار من أوليائهم، فإنهم لا يخدمون إلا من عصى الله، وذلك لمحبتهم للعاصي وتقربهم إليه، وإغرائهم الناس ليكونوا من أوليائهم ومن جنودهم.

هكذا عادة الشياطين أنهم يحرصون على إغواء الناس، وإخراجهم من الدين، كما أخبر عن ذلك إبليس، بقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وبقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إلى آخر الآيات، [الأعراف: ١٧].

وبعد أن عرفنا ذلك فلا ينبغي للمسلم أن يغتر بالكهنة، أو يغتر بكلامهم، فالكهنة يحدثون الناس بأشياء لم تقع، فتقع كما حدثوا، أو يخبرون بأشياء من الغيب، فلا يغتر بهم، بل يعرف أنهم بشر من جنسنا، قد كانوا معدومين فوجدوا، فهم مركبون مما ركبنا منه: من لحم ودم وعظم، وعصب وعروق وبشر

وشعر، ليس بينهم وبين الناس فرق، فكيف وصلوا إلىٰ معرفة أشياء لا نعرفها؟! وكيف وصلوا إلىٰ أنهم يحدثون عما في الضمير؟ أو يخبرون بمكان الضالة من بعيد؟ أو يخبرون بأن أشياء لم تقع فتقع كما قالوا؟

وما دام هذا ليس بوحي وليسوا بأنبياء فلابد أن هناك شيئاً تميزوا به ألا وهو استخدامهم للشياطين، فلا نغتر بهم ما دمنا قد عرفنا السبب، ولا نعد ذلك عجباً، ولانقدسهم، ولا نعظمهم، بل نحذر منهم فإنهم أولياء الشيطان، ولايكون المؤمن ولياً للشيطان.

بل هنك فرق بين المؤمنين وبينهم: فالمؤمنون أولياء الله، الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، وهؤلاء قد تخلوا عن ولاية الله، وأصبحوا من أولياء الشيطان.

وكثير من الناس إذا رأوا هذا الكاهن، أو هذه الكاهنة، ونحوهما، اعتقدوا أن عندهم معرفة، ويأتون إليهم من أماكن بعيدة، ويقدسونهم، ويعظمونهم، ويتقربون إليهم ويعطونهم ما يطلبونه.

ونحن نقول: هذا لا يجوز، بل حكم الشرع في الكاهن أنه يقتل، وكذلك في الساحر؛ وذلك لأنه كافر؛ فإنه عليه السلام قد كفَّر من صدق الساحر، أو الكاهن، فقد ثبت عنه أنه، قال: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»(١)، فإذا كان هذا حال من صدقه، فكيف بحاله هو.

كذلك أيضاً قد أمر ﷺ بقتل الساحر بقوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»(٢).

---

(١) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٢) سيأتي تخريجه مفصلاً في الباب الثالث والعشرون (باب ما جاء في السحر).

■ **قوله: [وعن النواس بن سمعان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال: رعدة ـ شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا، وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»(١)]:**

يخبر ﷺ في هذا الحديث بأن الله تعالىٰ إذا أراد الله أن يوحي وحياً إلىٰ نبي من الأنبياء، أو أحد الرسل، أو يحدث أمراً من الأمور في الأرض، أو نحو ذلك، فإنه يتكلم قبل ذلك بالوحي قبل أن يخبر به الملائكة ونحوهم، فإذا تكلم به ارتعدت وارتجفت السموات التي فيها الملائكة كما يشاء الله؛ وذلك من شدة وقع كلامه.

وقد تقدم أن كلامه يكون وقعه في سمع أولئك الذين يسمعونه كجر السلسلة علىٰ الصفوان، وذلك يدل علىٰ شدة وقع كلام الله، وعظمته، أو يدل علىٰ هيبة المخلوقات له، فإذا كانت المخلوقات حتىٰ الجمادات يظهر لها هذه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٣٧)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٦٣)، والأجري في «الشريعة» (٢٩٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٢)، والطبراني كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٣٨)، وابن خزيمة في «التوحيد»، ص(١٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٥).

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٥): رواه الطبراني عن شيخه، يحيىٰ بن عثمان بن صالح وقد وثقه، وتكلم فيه من لم يسم بغير قادح معين، وبقية رجال ثقات. أ. هـ. وضعفه الألباني في تخريجه للسنة (١/ ٢٢٧).

الرعدة الشديدة، وهذه الهيبة مع كونها جماداً، فبطريق الأولىٰ من هم مكلفون كالملائكة.

فالسموات ترتعد وترتجف من سماع كلام الله؛ والملائكة يبادرون بالسجود إذا سمعوا كلام الله، أو سمعوا ارتجاف السموات من سماع كلام الله تعالىٰ خوفاً من الله عز وجل، فيحدث لهم غشية، ثم مع الغشية سجود، أو أنهم يسجدون، ويغمىٰ عليهم، فيجمعون بين كونهم في عبادة، وبين كونهم في غاية الخوف من الله تعالىٰ؛ أي: أنهم يخافونه ويعظمونه أشد الخوف، وأشد التعظيم.

فإذا سجدوا ظلوا ساجدين إلىٰ أن يرفع رأسه أولهم؛ وهو جبريل الموكل بالوحي، الذي يكلمه الله من وحيه بما أراد أن يوحي به إلىٰ أنبيائه، أو رسله، أو إلىٰ ما دبره وقضاه، يكلمه الله لكونه الموكل لذلك.

فيسمع جبريل كلام الله، وهذا دليل علىٰ أن الله يتكلم بكلام مسموع، ويسمعه الملائكة، ويسمعه من يشاء الله تعالىٰ، وإن كان كلامه له من الشدة ما له، ولكن يُثبِّت الله الذين يريد أن يسمعهم، كما ثَبَّت موسىٰ لما سمع كلام الله عندما كلمه الله من جانب الطور، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ [مريم: ٥٢]، فأسمعه كلامه.

كذلك أيضاً جبريل عليه السلام يسمع كلام الله منه إليه، فإذا كلمه الله بالوحي الذي يريده، أو الأمر الذي يقدره، ويدبره، عند ذلك ينفذ أو يذهب جبريل لينفذ أمر الله الذي قدره عليه، فيمر بالملائكة، وكلما مر بملائكة في سماء، سألوه: ماذا قدر؟ وماذا أمر به ربنا؟ وماذا تكلم به؟ فيخبرهم بما تكلم به من ذلك الأمر، ويخبرهم بأنه تعالىٰ لا يتكلم إلا بالحق، ولا يقول إلا الحق وهو العلي الكبير.

وكلهم يرددون مثلما قال جبريل عليه السلام : ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وينتهي جبريل عليه السلام بالوحي إلىٰ حيث أمره الله عز وجل.

والشاهد أن هذا يدل علىٰ شدة خوف الملائكة من الله تعالىٰ فعلاً وقولاً.

فمن الفعل: أنهم متىٰ سمعوا كلام الله صعقوا، وخروا لله سجداً، فيجمعون بين كونهم يصعقون ويسجدون.

والصعق هو: الغشية، والسجود معروف، وذلك يدل علىٰ قوة معرفتهم بربهم، ويدل علىٰ شدة خوفهم من عذابه، وإن لم يصدر منهم ذنب، ولكن هيبة لله وتعظيماً.

ومن الفعل ـ أيضاً ـ: استمرارهم في السجود، وطول سجودهم عندما يسمعون كلام الله، أو عندما يسمعون ارتجاف السموات من شدة وقع كلام الله عليها.

أما القول: فترديدهم لهذه الكلمة: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، عندما يقولها جبريل ويسمعونها كلهم منه يقولون: ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فهذا اعتراف منهم بأن الله لا يقول إلا الحق، واعتراف بأن الله تعالىٰ هو العلي الكبير، وهو العلي الأعلىٰ بجميع أنواع العلو، وهو الكبير الذي له الكبرياء، وله العظمة، فيقولون، ويعتقدون، ويخافون الله أشد الخوف.

هذا هو تعظيم الملائكة لله تعالىٰ، وهذه هيبتهم، وهذه شدة خوفهم من الله، فإذا كانت هذه حالتهم عرف أنهم عباد مخلوقون، وأنهم يخافون الله، ويعظمونه أشد التعظيم، فإذا كانوا كذلك فإنه لا يصلح أن يُعبدوا مع الله، وإذا

كانت هذه هيبتهم لله تعالىٰ فكيف يُدعون مع الله؟

هذا هو القصد من ذكرهم هاهنا؛ وهو بيان أنهم ولو كانوا كما ذكر من أنهم ملائكة مقربون، فإنهم يخافون الله تعالىٰ؛ حيث أن الله تعالىٰ سماهم مقربين، كما في قوله: ﴿وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]؛ يعني: أنهم مقربون عند الله بأنواع القرب، ومع ذلك يعظمون الله تعالىٰ هذا التعظيم، ويخافون منه هذا الخوف.

وكذلك وصفهم بما يدل علىٰ فضلهم علىٰ غيرهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

ووصفهم بأنهم: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ووصفهم بأنهم: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [[التحريم: ٦].

ووصفهم بأنهم: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠٦].

فهذه أوصاف الملائكة، وهذه حالتهم، وهذا مع شدة خوفهم من الله، فإذا كانوا بهذه المثابة؛ يخافون الله أشد الخوف، ويعظمونه أشد التعظيم، وبهذا الوصف بطلت دعوتهم وعبادتهم مع الله، أو من دونه، فهم عباد لا يخرجون عما وصفهم الله به، من أنهم عباد مكرمون، فكيف يدعىٰ، وكيف يعبد من هذا خوفه، وهذه شدة تعظيمه؟ ألا تكون العبادة والتعظيم لذلك المعبود الذي يعظمونه هم، ويعبدونه؟ بلىٰ.

وإذا كان المرء يريد أن يعبد، أو يريد أن يعظم، فليعظم من عظموه، ولا يعظمهم، فإنهم مخلوقون يخافون الله، ويهابونه أشد الهيبة، وهم مع ذلك وفي هذه الحال من قربهم من الله وفضلهم لا يصلح أن يُدْعَو مع الله تعالىٰ.

وقد عبد بعض الناس الملائكة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾؛ أي: ما أمرناهم بعبادتنا، ولا شعرنا بعبادتهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]؛ فنحن في شغل عنهم، فإننا مشتغلون بأنفسنا، ولم نأمرهم بعبادتنا.

وإذا بطلت عبادة الملائكة مع فضلهم وقربهم، فبطريق الأولىٰ بطلان عبادة من سواهم، فكل من سوىٰ الله تعالىٰ لا يصلح له شيء من حق الله المتمثل في العبادة والتعظيم، فالعبادة حقه فلا يعبد غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

● **فيظهر من هذا الحديث:**

أولاً: أن الله تعالىٰ يتكلم، والكلام صفة من صفاته تعالىٰ، وليس كلامه مخلوقاً كما يزعم أهل الباطل، لهذا قال في هذا الحديث: «**تكلم بالوحي**».

ثانياً: أن كلام الله مسموع ومعقول يسمعه جبريل منه، ويعقله، ويبلغه.

ثالثاً: أن كلام الله قول، ولهذا يقولون: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق وهو العلي الكبير، فأطلق علىٰ كلام الله قولاً.

والقول اسم للكلام الذي هو مفهوم، وإن كنا لا نتصور كيفية كلام الله، ولا نشبه كلامه بكلام البشر كسائر صفاته العلا، بل إنه يتكلم كما يشاء.

رابعاً: أن المخلوقات ولو كانت جمادات قد يخلق الله فيها إحساساً؛

فالسموات مع كونها جماداً تهاب الله، وتخشاه، وترتعد، وترتجف لهيبته، كما في هذا الحديث: «أن السموات ترتجف إذا تكلم الله أو ترتعد».

وإذا كانت الجمادات من المخلوقات تهاب الله وتخشاه، فكيف لا يخافه ولا يخشاه من رزقه الله حياة، ومن أعطاه فهماً وعقلاً؟ إنه بطريق الأولى يجب أن يكون ارتجافه، وخوفه، وشدة وجله أعظم من هذه المخلوقات التي هي جماد.

والله تعالى قادر على أن يجعل في الجماد معرفة وإحساساً، وقد أخبر الله بأن كثيراً من الجمادات تسجد له، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨]، فأخبر بأن هذه الأشياء تسجد له.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]، فأخبر بأنها تسجد كلها لله تعالى وتعظمه، فكذلك هذه المخلوقات التي هي جماد أيضاً تهاب الله.

وكل ذلك دليل على عظمه الله التي في قلوب العارفين به؛ فالذي يخاف الله، ويعرفه حق المعرفة عليه أن يعبده، ويعظمه حق التعظيم، والله تعالى أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[١٦]

باب:
الشفـــــاعة

وقول الله عـز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

وقـوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسطٌ منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي: منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن.

وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده»، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبله»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أَذِنَ له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن: ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه].

■ ■ ■ ■ ■

● فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرىٰ، وهم المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة؛ بل يسجد، فإذا أذن له شفع.

السادسة: من أسعدُ الناس بها.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
الشفـــاعة

معرفة الشفاعة لها أهمية كبرى، وأهمية عظيمة، وكذلك معرفة ما يثبت منها وما لا يثبت.

والشفاعة مشتقة من الشفع، والشفع: هو الزوج من الأعداد.

والشفع والوتر مذكوران في قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣].

فالوتر: هو الواحد، والثلاثة، والخمسة، والسبعة، والتسعة، وهكذا.

والشفع: اثنان، أربعة، ستة، ثمانية، عشرة، وهكذا، هذا أصل الشفع.

وسمي الشفيع شفيعاً؛ لأنه ينضم إلى المشفوع له فيصير به شفعاً بعد أن كان واحداً.

والشفاعة عند العرب بمعنى: الوساطة بين اثنين، فالمتوسط بين اثنين يسمى شفيعاً، ولا يكون إلا شافعاً إلى من هو فوقه، فيكون الشافع فوق المشفوع له، ودون المشفوع عنده.

والمشفوع له: هو صاحب الحاجة، وهو الذي لا يقدر على قضاء حاجته عند ملك، أو عند أمير، أو عند وزير، فيأتي إلى واحد من الناس دون ذلك الملك، أو الوزير، ولكنه أرفع من صاحب الحاجة، ويقول له: اشفع لي عند فلان؛ عند هذا الأمير، أو الوزير، أو نحوه، فيشفع له، فكأن صاحب الحاجة أصبح اثنين بعد أن أصبح هذا الشفيع منضماً له، فبعد أن كان واحداً فرداً أصبح شفعاً، فهذا

هذا الشفيع منضماً له، فبعد أن كان واحداً فرداً أصبح شفعاً، فهذا سبب تسميتها شفاعة.

وقد جاء الأمر بالشفاعة لذوي الحاجات، فكان النبي ﷺ يقول: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**»(١)، فإذا جاءه صاحب حاجة يأمر أصحابه أن يشفعوا له حتى يحصلوا على أجر؛ بمعنى: أنهم يقومون لصاحب الحاجة ويساعدونه في قضاء حاجته حتى يحصلوا على أجر.

وإن كان النبي ﷺ لا يعوق أحداً، ولا يحجب عن بابه أحداً، بل الكبير والصغير كلهم بالنسبة إليه سواء، ولذلك لم يكونوا بحاجة، لكنه مع ذلك يحثهم على هذه الشفاعة ليعلمهم الشفاعة عنده وعند غيره حتى يحصلوا على أجر.

وعليه طبقوا الآية الكريمة في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥].

فالشفاعة الحسنة: هي نصرة المظلوم.

والشفاعة السيئة: هي نصرة الظالم.

فإذا كان هناك إنسان مظلوم؛ أو محبوس ظلماً، أو مطالب بمال وهو مظلوم، أو مطالب بأخذ ملك من أملاكه ظلماً، أو بتطليق زوجته ظلماً، أو بإعتاق عبده ظلماً، أو بأخذ شيء من استحقاقاته ظلماً، ثم أتيت فشفعت له عند ذلك الظالم، وبينت أنه بريء من التهم الموجهة إليه، وما أشبه ذلك، وأنت

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٣٢)، ومسلم برقم (٢٦٢٧)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

صادق محق عارف بأنك لم تتجاوز، ولم تقل إلا حقاً؛ فإن هذه شفاعة حسنة، فيكون لك أجر، كما قال ﷺ: «**اشفعوا تؤجروا**»(١). وعليه تطبق الآية الكريمة: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥].

أما إذا كان الشافع يعرف أن المشفوع له ظالم، وقد حبس، وأتى الشافع لتخليصه، أو عرف أنه متهم بأخذ أموال بغير حق، وأتى يشفع لنصره، فإنه بذلك يكون شريكاً له في إثمه، وإذا خُلِّص بشفاعته كان عليه إثم ونصيب من ذنبه، وأصبح شريكاً له، بقوله ﷺ: «**لعن الله من آوى محدثاً**»(٢)؛ أي: شفع له، أو نصره.

والمحدِث هو: العاصي، وهو: الظالم، فإذا ظلم إنسان إنساناً، أو أخذ مالاً بغير حق، أو ضرب إنساناً بغير وجه حق، فقبض عليه مثلاً للاقتصاص منه، ثم وقف أحد بجواره يسانده ويساعده، فإنه بذلك يكون قد شفع شفاعة سيئة، ويكون عليه كفل من هذا الذنب، وهذا الإثم، وبذلك يدخل في حديث: «**لعن الله من آوى محدثاً**»، ويدخل أيضاً في هذ الآية: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥]، والكفل: هو النصيب والجزء؛ أي: عليه جزء من ذلك الذنب.

فالحاصل أن الشفاعة عند الأمراء ونحوهم جائزة، وفيها أجر؛ وذلك لما فيها من قضاء حاجة هذا المسكين ونحوه؛ وذلك لأن هؤلاء الأمراء ونحوهم لا يعرفون كل واحد، ولا يعرفون صدق كل صادق؛ فيقع منهم نوع من التقصير

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (١٤٣٢)، ومسلم برقم (٢٦٢٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩٧٨)، وقد سبق تخريجه وشرحه في الباب التاسع: (**باب ما جاء في الذبح لغير الله**).

والخطأ حتى ينبههم غيرهم، فإذا أتى إليهم من يثقون فيه يشفع، ويعرفون نصحه لهم، وصدقه ومحبته لهم، قبلوا شفاعته لأمرين:

● **الأمر الأول**: ثقتهم بكلامه وبنصحه، ومعرفتهم صدقه، وعدم تدخله فيما ليس بصحيح.

● **والأمر الثاني**: أنهم يحبونه، ويحبون بقاءه، وإذا لم يقبلوا شفاعته أو شك أن ينفصل عنهم، ولا يشفع عندهم مرة ثانية.

والناس في الشفاعة: ثلاثة أقسام: طرفان ووسط:

فمنهم: من نفاها كلياً، وقال: ليس هناك شفاعة.

ومنهم: من أثبتها مطلقاً.

ومنهم: من توسط وأثبتها بشروط وبحدود.

القسم الأول: الذين نفوا الشافعة كلياً:

وهم الخوارج والمعتزلة الذين يخلدون أصحاب الكبائر في النار، فعندهم أن من مات على كبيرة مصراً عليها فإنه في النار، ولا يُخْرَجُ منها، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا**﴾ [المائدة: ٣٧]، وبقوله: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ [السجدة: ٢٠]، وبقوله: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ [الحج: ٢٢]، وبقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فيقولون: ليس هناك شفاعة، فما دام أنهم دخلوا النار، فلا خروج منها أبداً، هذه عقيدتهم.

والجواب على هذا: أن المراد بقوله: ﴿**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا**

شَفَاعَةٌ﴾، أي: لا شفاعة مملوكة؛ أي: لا يملك أحد الشفاعة بنفسه، ولا يستطيع أحد أن يشفع بدون إذن من الله عز وجل، فذلك يوم: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ﴾، أي: ليس فيه فداء يفدي الإنسان به نفسه من العذاب: ﴿وَلا خُلَّةٌ﴾، والخلة: هي الصداقة والمحبة؛ أي: لا ينفع أحد خليله وصديقه؛ بل يكون الأخلاء متعادين، إلا أهل البر والتقوىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فلا تنفع خلة خليل، ولا صداقة صديق، ولا قرابة قريب، بل كل يهتم بنفسه: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ...﴾ الآيات [المعارج: ١١، ١٢].

ثم قال: ﴿وَلا شَفَاعَةٌ﴾، أي: وكذلك ليس فيه شفاعة يملكها الشافع، ويقدر أن يشفع كما يريد.

ومن الآيات التي تعلقوا بها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٨، ١٩]، وهذه الآية في سورة المؤمن (غافر) مصرح فيها بأنها منفية عن الكافرين؛ أي: إن الكافرين لا تقبل فيهم شفاعة ولا تنفعهم؛ لأن الشفاعة إنما هي لأهل التوحيد، فأما الكفار والظالمون ونحوهم فلا تنفعهم؛ وذلك لأنهم حرموا منها بسبب أعمالهم السيئة.

وقد ذكر الله أن الشفاعة لا تنفع الكفار والظالمون بقوله تعالىٰ في ذكر أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٨]؛ يعني: هؤلاء الذين هذه حالهم لا تنفعهم، فلو شفع فيهم شافع لم تقبل، كما أنه لا يشفع أحد فيهم، إنما يشفع الشافع فيمن حُدَّ له، كما سيأتي.

فالحاصل أن الظالمين والكافرين ليس لهم شفيع في الآخرة، فتبين أنه لا دلالة في هذه الآية على نفي الشفاعة؛ لأن الشفاعة للمؤمنين لا للكافرين.

* فالذين لا يصلون يقولون يوم القيامة: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾، فبالتالي لا تنفعهم الشفاعة.

* والذين لا يزكون كذلك أيضاً: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾؛ يعني: يمنعون زكاة أموالهم الواجبة، فهؤلاء أيضاً لا تنفعهم شفاعة الشافعين إذا جحدوا وجوبها.

* وكذلك الذين ضيعوا أوقاتهم، وأضاعوها في اللهو والهوى، والخوض في الباطل: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾، إنما يخوضون مع الناس فيما يخوضون فيه من غير أن يهتموا بآخرتهم، وقضوا حياتهم الدنيا في هذا الخوض.

* وكذلك الذين يكذبون بالبعث، وبالحساب، وبالجزاء في الآخرة: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

ومن الأدلة التي يستدلون بها على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٧، ٤٨].

فمعنى قوله: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، أن هذا نفي مطلق، ولكنه مقيد بالشفاعة التي بدون إذن الله، وبدون رضاه، فلا دلالة في هذه الآية أيضاً على أنه ليس هناك شفاعة بإذن

الله، إنما فيها نفي الشفاعة التي تنفع مطلقاً؛ أي: الشفاعة المطلقة؛ لأن الشفاعة المثبتة شفاعة مقيدة بشروط.

فالحاصل أن المعتزلة والخوارج أنكروا أن يكون هناك شفاعة، واستدلوا بهذه الآيات التي فيها نفي الشفاعة، وأعرضوا عن الآيات الصريحة التي فيها إثبات الشفاعة بإذن الله، وأعرضوا أيضاً عن الأحاديث الصحيحة التي فيها شفاعة الرسول ﷺ بإذن الله، وكذلك شفاعة غيره من الأنبياء.

القسم الثاني: الذين أثبتوا الشفاعة مطلقاً:

وهم المشركون؛ فالمشركون الأولون والمشركون الآخرون يزعمون أن أولياءهم تشفع لهم بدون إذن الله، ويزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم، وكذلك المشركون المتأخرون يثبتون الشفاعة للأولياء، وللسادة، وللصوفية، ولأكابرهم، وللأنبياء بدون إذن الله، ويحملهم هذا الاعتقاد السيء على أن يطلبوها من غير الله، فترى أحدهم يقول: يامحمد اشفع لي، أو ياعبد القادر اشفع لنا، أو يا يوسف، أو يا بدوي نسألك أن تشفع لنا، وما أشبه ذلك.

وهذه عقيدة المشركين الأولين، فالأولون الذين يعبدون عيسى وأمه، وعزيزاً، ويعبدون اللات والعزى، ويعبدون وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً؛ لا يطلبون منهم إلا الشفاعة، وقد حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي: نعبدهم ونطلب منهم الشفاعة، ليشفعوا لنا في طلب الرزق، والنصر على الأعداء، ، والتوسعة، وشفاء مرضانا، وفي رد الغائبين، وما أشبه ذلك؛ هذا زعمهم، وهذه عقيدتهم.

وجاء بعدهم المشركون القبوريون الذين تعلقوا بالقبور، واعتقدوا هذا الاعتقاد السيء، وظنوا أن هذا جائز، وأن الاعتقاد ينفع في هؤلاء الذين يسمونهم أولياء، وقد رفعوا قبورهم، وبنوا عليها قباباً، وبنايات، وصاروا يقصدونهم من أجل هذه الشفاعة، ، ويعبدونهم ثم يدعونهم في المساجد، ويدعونهم في الحرمين، ويدعونهم عند أضرحتهم، ويطلبون منهم الشفاعة.

ويضربون مثلاً بملوك الدنيا ولله المثل الأعلىٰ، فيقولون: هؤلاء مقربون عند الله، ونحن محبوبون، ونحن نطلب منهم، وهم يطلبون من الله؛ كما أنك تطلب من وزير الملك ليطلب لك الوزير من الملك نفسه؛ هكذا يقولون، وهذا اعتقاد سيء؛ وذلك أنهم جعلوا الله تعالىٰ بمنزلة البشر من ملوك الدنيا ووزرائهم.

ولا شك أن الأمراء ونحوهم بشر مخلوقون بمنزلة غيرهم لا يعلمون الغيب، ولا يعلمون الصادق من الكاذب، فإذا أتيتهم أنت وهم لايعرفونك، وقلت: إني محق، وإني مظلوم، فكيف يعرف أنك صادق أو كاذب؟! ليس هناك أمارات في وجهك، ولا في كلامك، تدل علىٰ صدقك وأمانتك؛ لذا فهم بحاجة إلىٰ أن يسألوا عنك، وأن يتثبتوا ممن يعرفونك، فإذا أتيتهم بمن يعرفونك، وبينوا لهم قبلوا منه لثقتهم بالذي أخبرهم وعرفهم بك وشرح لهم حالتك، وحاجتهم إلىٰ هذا الشافع، فهم لا يودون أن يطردوه، أو يمنعوه من الشفاعة لكونه معروفاً دائماً بنصحهم وخدمتهم، فلا يخبرهم بشيء ولا يطلب منهم شيئاً إلا وهو صادق، فتقبل شفاعته لذلك السبب.

ولهذا يقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾

[يونس: ١٨]، أي: هل الله تعالى يخفى عليه شيء من أحوالكم حتى يخبره أولئك السادة على حد زعمكم، وحتى يطلبوا منه؟ فالله أعلم بكم وبسرائركم، ويعلم السر وأخفى، ويعلم الجهر وما يخفى، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، ولا من أقوالكم، فهو أعلم بكم من هذا السيد أو هذا الولي الذي أنتم تطلبون منه، وتستشفعون به.

فلا يصح أن تطلب من هذا الولي؛ لأنه قد مات وانقطع عمله، ولأنه مخلوق مثلكم، ولأنه لا يعلم من أموركم شيئاً، ولا يعلم الغيب، ولا يطلع على ما في الضمير، ولا يعلم صلاحكم، ولا فسادكم، ولا غير ذلك.

ثم هو - أيضاً - في عالم البرزخ مشغول بنفسه عنكم، لا اهتمام له بحالكم، ولا يسمع كلامكم، كما يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، أي: لا يستجيب له إذا دعاه، ولو دعاه إلى يوم القيامة، ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤-٦]، ففي يوم القيامة يصرحون لهم بالعداوة، وينكرون عبادتهم، ويقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]؛ فأنتم تطلبون منا أن نطلب لكم، أو أن نشفع لكم، ونحن مشغولون بأنفسنا؛ وذلك لأنهم في عالم البرزخ، كل مشغول بنفسه مهتم بها.

كما أن المشركين يعتقدون أن طلبهم من غير الله تعظيم لله؛ فيقولون: من

تعظيم الله ألا تطلب من الله، إنما اطلب منه بواسطة، فاجعل بينك وبين الله واسطة، وليكن هذا الولي، أو هذا العبد الصالح من عباد الله، فيقولون مثلاً: ياحسين توسط لنا عند ربك، أو اطلب لنا أن يعفو عنا، أو يتوب علينا، وكذلك ياعلي، أو ياعيدروس، أو يا فلان اشفع لنا إلى ربك ليغفر لنا، أو ليرزقنا، ويقولون: هذا دون الله تعالى مثل البشر يحتاج إلى قبول شفاعة إنسان مثله لثقته به.

وهذا في الحقيقة ليس كما يقولون، فهم يزعمون أنه تعظيم، وهو في الحقيقة تنقص لله؛ حيث إن الله أعلم بأقوالهم، وبأفعالهم، وبسرائرهم، وبضمائرهم من غيره من الأنبياء والصالحين ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي: هل ستخبرون الله بشيء يخفى عليه؟! أليس الله أعلم بسرهم ونجواهم؟! أليس الله يعلم الجهر وما يخفى، ويعلم السر وأخفى من السر؟!

إذاً الأولياء الصالحون، ومن قبلهم الملائكة والأنبياء لا يملكون الشفاعة أبداً، وإنما الشافعة ملك لله؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، يعني: ملك الله تعالى وحقه.

شبهة:

قد يقولون: إن الله تعالى أعطى لهم الشفاعة، وشفعه وجعله هو الشفيع والمشفع، فإذا كان قد أعطاه الشفاعة فإننا نطلب منه شيئاً أعطاه الله إياه.

والجواب: أن الله أعطاه، ولكنه لم يعطه شفاعة مطلقة، وذلك:

أولاً: أنه لا يشفع إلا بعد أن يأذن له ويرضى منه أن يشفع.

ثانياً: أنه لا يشفع في كل أحد، إنما يشفع في أناس قد خصصوا، وهم الموحدون المتقون الذين لم يشركوا بالله، ولم يعبدوا معه غيره.

فأنتم إذا دعوتم الرسول، أو دعوتم الولي فقد صرتم مشركين بهذا الدعاء، ولو لم تطلبوا منهم إلا الشفاعة، فحينئذ المشرك لا تنفعه الشفاعة، لكونه ليس ممن حققوا التوحيد.

فبذلك تبين أن تعلق المشركين بالشفعاء، وقولهم: **﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾** [يونس: ١٨]، قول باطل، وأن حقيقة الشفاعة هي أن الله تعالى يأذن لبعض أنبيائه، وبعض عباده الصالحين تفضلاً منه، فيكرم الولي ويرفع مقامه بقبول شفاعته، ويكرم المذنب فيغفر له ذنبه بقبول الشفاعة فيه، ولكنه لا يشفع فيمن لا يستحق الشفاعة.

القسم الثالث: الذين توسطوا في الشفاعة:

وهم أهل السنة والجماعة، فإنهم أثبتوا الشفاعة، ولكن بشرطين وهما:

١ـ الإذن للشافع أن يشفع.

٢ـ والرضا عن المشفوع فيه.

وقد دل على الشرطين، قول الله تعالى **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾** [النجم: ٢٦]؛ أي: بعد الإذن للملائكة، أو الأنبياء أن يشفعوا، وبعد الرضا عن المذنبين أن تعمهم الشفاعة، ويرضى الله عنهم، والله لا يرضى لعباده الكفر.

وقال تعالى **﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾** [طه:

١٠٩]؛ أي: لا يشفع أحد من الأولياء أو الصالحين إلا من أذن له الرحمن في الشفاعة، ولا يشفعون إلا لمن رضي له قولاً.

والأدلة على ذكر هذين الشرطين كثيرة، وقد تضمن كلام شيخ الإسلام الذي ساقه المؤلف حقيقة الشفاعة التي يقول بها أهل السنة، وقولهم هو القول الوسط في الشفاعة، والله أعلم.

وفي هذا الباب أورد المصنف رحمه الله خمس آيات، ثم نقل كلام شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله حول الشفاعة:

■ **الآية الأولى: قوله: [وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** [الأنعام: ٥١]]:

هذه الآية من الآيات التي استدّل بها نفاة الشفاعة كالمعتزلة، ولكنها مقيدة بملكية الشفاعة؛ أي: أنذر بهذا القرآن، وخوف به المؤمنين الذين يخشون ربهم، ويؤمنون بالبعث، والحشر، والحساب، والجزاء، ويعلمون أنهم إذا حشروا يوم القيامة فليس هناك أحد يملك الشفاعة لهم بدون إذن الله؛ بل لا شفاعة إلا بعد إذن الله: **﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾**؛ أي: ليس لهم غير الله ولي يتولى أمورهم، ولا شفيع يشفع لهم باختيارهم، على حد قوله تعالى حكاية عنهم: **﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾** [الشعراء: ١٠٠،١٠١]، وقوله تعالى: **﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾** [البقرة: ١٢٣]، ونحو ذلك.

■ **أما الآية الثانية: قوله: [وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾** [الزمر: ٤٤]]:

في هذه الآية حصل نفي الشفاعة، ولكن المراد الشفاعة الشركية؛ أي: الشفاعة التي يزعمها المشركون، فأول الآية قوله تعالى في سورة الزمر: **﴿أَمِ**

اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر: ٤٣]، أم اتخذ المشركون آلهة يزعمون أنهم يشفعون لهم من دون الله، كما قال عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهكذا قال هنا: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾؛ أي: يزعمون أن شفاعتهم تنفعهم ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، أتتخذونهم شفعاء وهم لا يملكون شيئاً؟! فإن ملكية الشفاعة لله، وملكية الأمر كله لله، وإنما يشفع من يُمَلِّكُهَا إياه، ولا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله له.

■ أما الآية الثالثة: قوله: [وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]]:

في هذه الآية نفي الشفاعة لمن لم يأذن له الله، وإثباتها لمن أذن له، وإذن الله للشافع شرط من شروط الشفاعة المثبتة؛ أي: لا أحد يشفع عنده، إلا بإذنه.

■ أما الآية الرابعة: قوله: [وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]:

قوله: ﴿كَم﴾ هنا للتكثير؛ أي: وكثير من الملائكة في السموات مقربون عند الله، وعابدون، ومطيعون له، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئاً إذا شفعوا لأحد، لا تغني مع أنهم لا يشفعون، ولا يتجرءون أن يشفعوا إلا بعد إذن الله، وبعد رضاه: ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

وهذه الآية جمعت الشرطين؛ أي: أن الشفاعة المثبتة لابد فيها من شرطين:

الشرط الأول: الرضا عن المشفوع له.

والشرط الثاني: الإذن للشافع.

فالشرط الأولى: وهو الرضا عن المشفوع: فالله تعالى لا يرضى إلا عن الموحدين، ولا يرضى إلا عن المخلصين لله تعالى حقيقة الإخلاص، أما أهل الشرك والكفر فلا يرضى عنهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

فإذا كان الله لا يرضى الكفر فإنه لا يرضى عن الكافرين، ولا يرضى أن يشفع فيهم أحداً، ولا يأذن في الشفاعة لهم، فمن أراد أن تحصل له الشفاعة فليأت بهذا الشرط؛ ألا وهو تحقيق التوحيد.

أما الشرط الثاني: وهو الإذن للشافع: فالأنبياء، والملائكة، والرسل، والصالحون، ونحوهم، لا أحد يشفع منهم عند الله إلا بعد أن يأذن له، فيقول له: اشفع، أو: أذنت لك أن تشفع في كذا وكذا.

فالشفاعة المثبتة تحصل للشافع تكرمه له، ورفعاً لمقامه، وإعطاءً له المقام المحمود، وتحصل رحمة للمشفوع له، ونعمة عليه، حيث شفّع فيه أنبياءه، أو رسله، أو عباده الصالحين، وقبل فيه الشفاعة. فهي رفعة لمقام النبي، ورحمة، ومغفرة، وجود، وكرم على ذلك العبد المذنب.

■ **أما الآية الخامسة: قوله: [وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾** [سبأ: ٢٢، ٢٣]]:

يقول شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما في هذه الآية: (أنها قطعت عروق الشرك، وقطعت جذوره من أصلها).

وذلك أن المشرك بين عدة أمور:

الأمر الأول: أن يزعم أن معبوده الذي يعبده له ملك مستقل بشيء في

السموات، أو في الأرض، فيقول: إن معبودي يملك هذا الشيء ملكاً استقلالياً، فنفى الله ذلك بقوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

فإذا لم يملكوا مثقال ذرة ملك استقلال، فكيف بغيره؟!؛ أي: فلا يملكون غيره بطريق الأولى.

الأمر الثاني: أن يدّعوا أنهم شركاء في ذلك الملك، إذا لم يقولوا: هذا مملوك لهم ملك استقلال، فقد يقول قائل منهم: ليس مملوكاً لهم، ولكنهم شركاء، فنفي الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ يعني: شركة؛ أي: ليسوا شركاء لله حتى في مثقال ذرة، فكيف بغيره؟!

الأمر الثالث: قد يقولون: نسلم أنهم لا يملكون ملكاً استقلالياً، ولا أنهم شركاء في ملك شيء، لكن قد يقولون: إنهم مساعدون لله، ومعينون له، فنفى ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: من معين ومساعد ومقوٍ؛ أي: ليسوا مساعدين لله في خلق السموات، ولا في تصريف الملك وتدبيره.

الأمر الرابع: أنه لما نفى الملك، ونفى الشركة، ونفى الإعانة، بقي شيء رابع قد يتعلقون به، وهو الشفاعة، فنفى ذلك بقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، أي: لا تنفع شفاعة أحد عند الله إلا لمن أذن الله له، مع أنهم في ذلك اليوم لا يتجرءون أن يشفعوا، ولا يتجرأ أحد منهم أن يشفع بدون إذن الله، بل كل منهم يخاف على نفسه، حتى إن الأنبياء في حديث الشفاعة وأولو العزم يقول كل منهم: نفسي نفسي.

وأخبر النبي ﷺ في حديث طويل أنهم في يوم القيامة كل منهم يقول: «**اللهم سلم سلم**»، حيث قال في ذلك الحديث: «**ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى**

الرسل يومئذ اللهم سلم سلم»[1]؛ فإذا كانت هذه حالهم فكيف يتجرأ أحد منهم أن يشفع عند الله تعالىٰ بدون إذنه فضلاً عن غيرهم؟!

ولكن الله تعالىٰ من كرمه ورحمته بعباده يأذن لعباده بالشفاعة، فيأذن للنبي ﷺ أو لغيره من الأنبياء، ويقول لهم: «**اشفعوا في كذا، أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**»؛ أي: من أهل لا إله إلا الله، الموحدين، وأخرجوا من النار من كانت هذه صفته، ويخبر النبي ﷺ أنهم يعرفونهم، وهم في النار، وقد احترقوا إلا آثار السجود، يقول: «**وحرم الله على النار أن تأكل من بني آدم أثر السجود**»[2]

وهذا يدل علىٰ أنهم موحدون، وأنهم يصلون، حيث ظهرت آثار السجود في أعضائهم؛ أي: مواضع السجود التي لا تأكلها النار، فتبين بذلك أن الشفاعة إنما تنفع أهل التوحيد، وحينئذ فالذي يريد الشفاعة فليطلبها من مالكها الحقيقي: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٤٤]، وذلك بأن يأتي بسببها الأكيد الأصيل، وهو تحقيق التوحيد والإيمان والعمل الصالح، وأن يطلبها من الله مباشرة، وليقل: اللهم شفع في نبيك، أو اللهم ارزقني شفاعته، اللهم اجعلني مما تناله شفاعة الشافعين، أو ما أشبه ذلك، فبذلك يكون العبد مستحقاً لهذه الشفاعة.

وأما إذا طلبها من غير الله، ولو من الرسول، أو الملائكة المقربين، كأن يقول: يامحمد اشفع لي، أو كن لي شفيعاً، أو أسألك يامحمد أو: يا نبي الله، أو: يا فلان أن تشفع لي، أو تأخذ بيدي، أو ما أشبه ذلك فإن هذا شرك؛ لكونه دعاء لغير الله.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٨٠٦)، ومسلم برقم (١٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) جزء من الحديث السابق.

والله تعالى قد نهى أن يُدعى أحد غير الله، لا بطلب الشفاعة، ولا بغيرها، وسمى ذلك المدعو إلهاً، في قوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]؛ فالذي: يريد الشفاعة يطلبها من مالكها.

■ **قوله: [قال أبو العباس(١): نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسطٌ منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبيَّن أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].**

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن.

وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع»(٢).

وقال له أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبله»(٣)، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أَذِنَ له أن يشفع ليكرمه، وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه]:

كلام أبي العباس ـ وهو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ؛ متعلق بآية في سورة

---

(١) هو: أبو العباس: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله. وانظر كلامه هذا في الكلام على «حقيقة الإسلام» ص١١٩ـ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (١٩٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم برقم (١٩٣)، عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩)، ومسلم برقم (١٨٣)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٩٩).

سبأ، وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

● **يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾** [الأنبياء: ٢٨]):

أي: أن الله نفى الأسباب التي يتعلق بها المشركون في عبادتهم لغير الله، حيث نفى أنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات، ولا في الأرض، وإذا لم يكونوا مالكين فكيف يعبدون أو كيف يعظمون؟! ولو كانوا أنبياء، أو ملائكة، أو أولياء، أو صالحين، أو سادة، أو غيرهم، فإنهم لا يملكون مثقال ذرة ملكاً استقلالياً، بحيث لا يتصرف الرب فيه، ولا قدرة له عليه، بل هم المتصرفون؛ فإن هذا مستحيل.

كذلك ليسوا شركاء لله شركة مساوية لملكية الله؛ فهم قد يقولون: إنهم لا يملكون، ولكنهم مشاركون، فنفى أن يكونوا شركاء.

كذلك قد يقولون: إنهم ليسوا مالكين، ولا شركاء، ولكنهم أعوان وأنصار، فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: معين ومساعد.

فلما نفى ذلك كله، فقد يتعلقون بالشفاعة، ويقولون: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾؛ فبين أن شفعاتهم لا تفيد، وأنه لا يشفع أحد منهم إلا إذا أذن الله تعالى، وأن الله إذا أراد العبد بضرٍ لم ينفعوه، وإذا أراده بخير لم يقدروا على إمساك ذلك عنه، كما حكى الله عن مؤمن يس أنه قال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]؛ أي: لاتنفعني شفعاتهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

● **ثم قال شيخ الإسلام: (وأخبر النبي ﷺ: أنه يأتي فيسجد لربه، ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع»)**:

يعني: أن الله تعالىٰ يأذن لبعض أنبيائه، كنبينا محمد ﷺ أن يشفع ليكرمه فينال المقام المحمود؛ فإن المقام المحمود فسر أنه الشفاعة في قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، قيل: إنه الشفاعة.

والنبي ﷺ إذا أراد أن يشفع لا يبدأ بالشفاعة حتىٰ يأذن له الله تعالىٰ، فقد أخبر النبي ﷺ في حديث طويل أن أهل الموقف يأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلىٰ ربك، فيعتذر، ثم يأتون نوحاً ويقولون: اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ ما نحن فيه؟ ألا ترىٰ ما قد بلغنا؟ فيعتذر نوح، فيأتون إبراهيم فيقولون: اشفع لنا إلىٰ ربك، فيعتذر أيضاً، ثم يأتون موسىٰ، فيعتذر، ثم يأتون عيسىٰ، فيعتذر، ثم يأتون محمداً ﷺ، فإذا أتوه استأذن وسجد لربه، وأطال السجود، وعلم الله أنه يريد أن يشفع، فإذا أطال السجود قال له ربه: «**يامحمد ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع**»(١)؛ فلا يبدأ بالشفاعة حتىٰ يقال له: «**اشفع تشفع**»، وهذا هو الإذن: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فلا تكون هناك شفاعة نبي، ولا ملك، ولا ولي، ولا غيرهم؛ إلا بعدما يأذن الله له، فيقول له: اشفع، فيقول: أشفع عندك يا ربي في أمتي، أو في أقاربي، أو في فلان وفلان، ولا يتجرأ أحد علىٰ ذلك إلا بعد إذنه.

---

(١) هو جزء من حديث الشفاعة الطويل الذي أخرجه البخاري ومسلم، وقد سبق تخريجه قريباً في هذا الباب.

• ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وقال له أبو هريرة: «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبله». فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذِنَ له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص):

أخبر النبي ﷺ بأهل الشفاعة الذين ينتفعون بها، وأنهم أهل التوحيد، لما قال له أبو هريرة رضي الله عنه يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك؟ فقال: «من قال: **لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**»؛ أي: أهل التوحيد الموحدين حقّاً، الصادقين في توحيدهم، وفي عملهم، الذين جعلوا الله تعالى هو إلههم وحده دون سواه، فهؤلاء هم الذين يسعدون بشفاعته، وتنفعهم شفاعته ﷺ.

فأما من أشرك بالله، وعبد معه غيره، فهذا لا تنفعه شفاعة الشافعين، ولو شفعوا، مع أنهم لا يتجرءون أن يشفعوا؛ وذلك لأنه لم يكن من أهلها، وأهلها هم أناس مذنبون من أهل التوحيد والإسلام والعقيدة السليمة، دخلوا بسبب ذنوبهم في النار، فلما دخلوا فيها، وعذبوا بقدر ذنوبهم، أذن الله أن يشفع فيهم، فأذن لنبيه أن يشفع في أهل التوحيد الذين لم يشوبوه بشائبة الشرك، ولو كانوا مقصرين في بعض الواجبات، أو مرتكبين لبعض المحرمات، فقبل الله شفاعته فيهم، فيخرجهم من النار بشفعاته ﷺ، وبشفاعة غيره من الملائكة، والأنبياء، والرسل، والصالحين، والأطفال، ونحوهم.

كذلك أيضاً الشفاعة فضل من الله؛ لأنها ملك لله، قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾؛ أي: هي ملك لله، فلا أحد يقدر على أن

يشفع من نفسه.

فتبين بذلك أن الشافع لا يبدأ بالشفاعة حتى يأذن الله له فيشفع، وأنه لا يشفع في كل أحد، وإنما يشفع في حد مبيّن.

وقد أخبر ﷺ في بعض الأحاديث بأن الله يحدُّ له حداً، فيصف له قسماً من الناس، فيخرجهم من النار، ويدخلهم الجنة، فيقول: **«اشفع فيمن كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان»**؛ أي: من أهل التوحيد، فيخرجهم من النار، ثم يقول له: **«أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان»**[1]، وفي رواية: **«أدنى ذرة من إيمان»**[2]؛ أي: من عقيدة، فإذا كان معه عقيدة، وتوحيد، ولو كان ضعيفاً، وحمله ضُعف عقيدته على اقتراف بعض الخطايا، ونحوها، فإنها تنفعه.

وعلى كل حال فالذي يريد أن تنفعه الشفاعة فعليه أن يأتي بأسبابها وهي:

أولاً: تحقيق التوحيد.

ثانياً: تحقيق العقيدة التي تنفعه وتردعه عن المحرمات، وتحمله على فعل الواجبات، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤٣٩)، ومسلم برقم (١٨٣)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) أخرجها مسلم برقم (١٩٣)ـ(٣٢٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

[١٧]

باب:
قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

في الصحيح، عن ابن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]].

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة: تفسير قوله: «قل: لا إله إلا الله»، بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: قل: لا إله إلا الله، فقبَّح الله مَنْ أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جده ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، بل نُهي عن ذلك.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: استدلال الجاهلية بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها، ووضوحها عندهم؛ اقتصروا عليها.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
قول الله تعالى:
﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

عقد هذا الباب للرد على الغلاة المتجاوزين الحد في حق النبي ﷺ؛ بحيث جعلوا له بعض حق الله تعالى، فهو في اعتقادهم يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويملك النفع والضر، والعطاء والمنع، والتصرف في الكون، فلذلك يدعونه من دون الله، وبالأخص عند الشدائد والمضايقات، والوقوع في الأزمات، فينسون ربهم، ويهتفون باسم محمد ورسول الله، ويعلقون عليه الآمال، ويعتقدون أنه يجيبهم ويعطيهم طلبتهم، ويحقق رغبتهم.

فبين المؤلف رحمه الله في هذا الباب أن النبي ﷺ بشر، خصه الله تعالى بإنزال الوحي عليه، وكلفه بالبيان والبلاغ، وأمره أن يكون للناس بشيراً ونذيراً، وقد أخبر بأنه لا يستحق شيئاً من حق الله تعالى، فقد أمره أن يقول: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢]، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يملك لقومه ضراً ولا رشداً، فكيف يقال: إنه يتصرف في الكون، وأنه يهدي من يشاء هداية التوفيق، وقد قال الله في حقه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فلذلك بوب الشيخ رحمه الله تعالى بهذه الآية، وذكر سبب نزولها، فإنه ﷺ حاول أن يهدي عمه أبا طالب فلم يقدر على ذلك، مع حبه له، ومع أنه الذي

كان يحميه، ويمنع وصول الأذىٰ له من الكفار، ومع ذلك لم يقدر علىٰ هدايته، وإدخاله في الإسلام، مما يدل علىٰ أن الذي يملك ذلك هو الله وحده، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

وإذا كان النبي محمد ﷺ ليس له قدرة علىٰ الهداية والتوفيق، فكيف يكون ذلك لغيره من البشر، كما تدعي ذلك الرافضة في حق علي رضي الله عنه، وكذا الصوفية والقبوريون في حق من يدعون فيهم الولاية، نعوذ بالله من الشرك والشك والنفاق وسوء الأخلاق.

■ **قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** [القصص: ٥٦].

■ **في الصحيح ،عن ابن المسيب، عن أبيه، قال: لماحضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، فقال له: «يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»[(١)]، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** [التوبة: ١١٣]]:

هذه الآية وهي قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، كان سبب نزولها موت أبي طالب علىٰ ملّة عبد المطلب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٧٢)، ومسلم برقم (٢٤).

ثم ذكر المصنف قصة وقعت للنبي ﷺ مع عمه أبي طالب.

وكما هو معلوم أنّ أبا طالب كان من أكابر قريش، وكان مشهوراً فيهم، مطاعاً فيما بينهم، لشرفه، ولكبر سنه، ولاحترامه فيما بينهم، وكان يحمي النبي ﷺ، ويحول بين المشركين وبينه لكي لا يؤذوه.

وظل رسول الله ﷺ في حمى عمه أبي طالب احتراماً له، وذلك لأمور منها:

أولاً: لمنزلته، وشرفه.

ثانياً: لشهرته، ولكبر سنه.

ثالثاً: لكونه على دينهم، وعلى ملتهم.

فمن أجل ذلك كان النبي ﷺ في حمايته، وفي جواره، لا يناله شيء من الأذى مدة حياة عمه أبي طالب، ثم مات أبو طالب، وماتت زوجة رسول الله ﷺ خديجة في سنة واحدة، وسمى الناس ذلك العام بعام الحزن، وهي تسمية من الناس، ولم يُنقل عن النبي ﷺ أنه ظهر عليه شيء من الحزن والأسى، ولم ينقل عنه أيضاً أنه سمى ذلك العام بعام الحزن.

وعندما احتضر أبو طالب، وحضره الأجل والموت، وهو ما زال على دين قومه ولم يُسْلم لله، تأسف النبي ﷺ أن يموت عمه على الكفر والشرك، وكان رسول الله ﷺ يرجو أن يموت على الإسلام، ويختم له بخاتمة حسنة، فجاء إليه النبي ﷺ وهو يحتضر في آخر حياته، وذكَّره رسول الله ودعاه إلى الله وإلى الشهادة، وأمره أن يقول: لا إله إلا الله، لأنه يعرف معناها، ويعرف أنه إذا قالها فقد تبرأ من كل إله غير الله، وقد رضي بالله إلهاً وحده، وقد اتخذه مألوهاً يألهه،

ويترك تأله ما سواه؛ لكونه يعرف ما تدل عليه هذه الكلمة، فلو قالها في تلك الحال، وتبرأ من كل الآلهة لنفعته، ولكن صادف أن كان عنده قرناء السوء، حيث كان عنده أبو جهل بن هشام الذي هو فرعون هذه الأمة، ورجل آخر من بني مخزوم يقال له: عبد الله بن أبي أمية، وربما كان معهما رجل ثالث؛ وهو المسيب بن حزن والد سعيد بن المسيب.

فلما وجدهم عنده، ذكَّروه بالحجة الشيطانية؛ وذكروه بملة الآباء والأجداد، فقالوا له: إنك إذا تبرأت من هذه الآلهة خالفت أباك وجدك وجد أبيك، وأجدادك من قريش، فإن لهم آلهة كثيرة، فإذا قلت: لا إله إلا الله فقد انتقدتهم، وقد عبت دينهم، وقد سفهت أحلامهم، وقد خالفت شريعتهم، **فكيف ترغب عما كانوا عليه؟**

أليس أبوك عبد المطلب كان على حق؟ أليس على دين؟ أليس على خير؟ فإذا قلت هذه الكلمة فإنك تنتقده، وتعيب حاله.

فلما ذكروه هذه الحجة الشيطانية، لم يقبل أن يقول: لا إله إلا الله، فعند ذلك كرر عليه النبي ﷺ ليقولها رجاء أن يختم له بخاتمة حسنة، وذكر له أنه متى قالها فإنه سيحتج بها عند الله، ويقول: يا رب إنه قالها فأنجه من العذاب، ويشهد له بها، وتكون حجة قوية على أنه من أهل الخير، ولكن لم يزل به يردداها، ولم يزالا يرددان عليه تلك الحجة الشيطانية، وهي تقليد الآباء والأجداد حتى ختم له بخاتمة سيئة، وكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب؛ أي: على شريعته، وعلى دينه، وامتنع عن أن يقول: لاإله إلا الله، ومات وهو على ذلك الشرك.

ولما مات على هذه الملة الشركية أسف النبي ﷺ، وعزم على أن يستغفر الله

له، وذلك لكونه فَعَلَ جميلاً معه، ولكونه فعل به خيراً، وحماه، ونصره، وآواه، وحفظه، وأيده، فعند ذلك قال: «**سأستغفر لك ما لم أنه عن ذلك**»، ولكن نهاه الله أن يستغفر له، أو يستغفر لغيره من الأقارب الذين ماتوا على الشرك، ونهى أيضاً بقية المؤمنين أن يستغفروا لأحد من المشركين، ولو كانوا من أقاربهم.

فأنزل الله تعالى هذه الآية التي في سورة التوبة: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]، وذلك أن بعضاً من المسلمين قال: سأستغفر لأبي، كما استغفر إبراهيم الخليل لأبيه، كما حكى الله عنه أنه قال: ﴿**وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ**﴾ [الشعراء:٨٦]، وأنه قال: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ [إبراهيم:٤١]، وحكى الله عنه أنه قال: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا**﴾ [مريم:٤٧].

ولكن ما كان هذا الاستغفار إلا عن موعده وعدها إياه، فلما تبين له إصراره، وعداوته، واستمراره على الكفر، وقوله لابنه: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ [مريم:٤٦]، بعد ذلك تبرأ منه: ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾.

فالحاصل أن الله تعالى نهى نبيه عن الاستغفار لأقاربه، ونهى المؤمنين أيضاً أن يستغفروا لأقاربهم الذين ماتوا على الكفر، وأخبر بأنه لا يفيدهم هذا الاستغفار، ولا يتقبل فيهم.

وما ذاك إلا لأن أصل عقيدتهم الكفر، والكفار والمشركون قد حكم الله

عليهم بالخلود في العذاب، فلا يفيدهم استغفار أقاربهم، لذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ﴾؛ أي: لا يصح، ولا يجوز للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ﴿وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾، ولو كانوا آباءً، أو أبناءً، أو إخوة، أو عشيرة، أو من القبيلة، ونحوهم، لا يحل لهم ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

فلما نزلت هذه الآية كف النبي ﷺ عن الاستغفار للكفار وللمشركين، حتى لأبيه ولأمه.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أستأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»(١)؛ أي: لا بأس بزيارة قبور المشركين، وأما الاستغفار لهم، ولو كانوا أقارب فلا يجوز، كما في هذا الحديث.

■ **قوله: [وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾** [القصص: ٥٦]:

أنزل الله تعالى هذه الآية في أبي طالب وهي تدل على أنه ليس من أهل الاهتداء، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]؛ أي: أنك يا محمد لا تقدر على هداية من أحبب.

وهذه الآية نزلت في أبي طالب لما لم يقدر النبي ﷺ على هدايته، وذكر أن الله تعالى هو الذي يهدي، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة وفيه: «فزوروا القبور فإنها تذكر الموت».
أما قوله: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»، فأخرجه الترمذي برقم (١٠٥٤)، من حديث بريدة، وابن ماجة برقم (١٥٧١)، من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز»، ص(١٧٨، ١٧٩).

يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فهداية القلوب بيد الله تعالىٰ، والمراد هنا بالهداية هداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلىٰ قسمين:

هداية بيان: وهذه إليه ﷺ، كما قال تعالىٰ: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: ٥٢]؛ أي: تبين لهم الصراط، وتوضح لهم الحجة.

وهداية توفيق: وهذه ليست إليه، ولا إلىٰ أحد من البشر، وإنما هذه إلىٰ الله: **﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾**، هداية التوفيق إلىٰ الإسلام، ولو كان محبوباً لديك، إنما الذي يهدي هو الله تعالىٰ.

فإذا كان النبي ﷺ لا يستطيع أن يهدي أحداً حتىٰ ولو كانوا أقاربه، فإنه بطريق الأولىٰ لا يجوز لأحد أن يتعلق عليه دون الله تعالىٰ، وليس له من الأمر شيء، كما تقدم في الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾** [آل عمران: ١٢٨]، الآية.

فإذاً يجب أن يكون التعلق بالله تعالىٰ، فإذا كان النبي ﷺ قد ذكر الله أنه لا يهدي من أحب، فهو لا يقدر علىٰ أن يمنح أحداً، أو يعطي أحداً، أو يغفر لأحد، أو يشفع لأحد إلا بإذن الله، بعد أن يأذن الله له بالشفاعة كما تقدم، فإذاً المطلوب كله من الله تعالىٰ.

فعليك أن ترجع إلىٰ الله لأنه ربك، ولأنه مالك كل شيء، والمتصرف في كل شيء.

وإذا كانت هذه حال النبي ﷺ أنه لا يقدر علىٰ أن يهدي من أحب، حتىٰ ولو

كان أقرب أقاربه، فكيف بحال عبد القادر الجيلاني؟ أو بحال البدوي؟ أو بحال عيدروس، أو بحال ابن علوان، أو بغيرهم؟ كيف يهدون أحداً، أو كيف ينفعون أحداً بدون إذن الله؟ إذاً المرجع إلىٰ الله تعالىٰ.

فلا يجوز أن يُعتمد ولا يُتوكل علىٰ أحد، ولا يطلب من أحد إلا الله تعالىٰ، وهو الذي بيده أزِمَّة الأمور، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، والله تعالىٰ أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[١٨]

باب:
ماجاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

في الصحيح، عن ابن عباس ـ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] ـ، قال: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم؛ عُبدت).

وقال ابن القيم: (قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم).

وعن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»، أخرجاه.

قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

ولمسلم، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثاً».

• فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبيّن له غربة الإسلام، ورأىٰ من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض كان بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع، مع كون الشرائع والفطر تردها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين، والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف: أن البدع سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه.

الحادية عشرة: مضرة العكوف علىٰ القبور من أجل عمل صالح.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»**، فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ماجاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

هذا الباب هو جُلّ مقصود الكتاب، فالكتاب يدور من أوله إلىٰ آخره علىٰ النهي عن الشرك، ولكن هذا الموضوع؛ وهو الغلو في الصالحين؛ هو أكبر المقاصد، وهو أشهرها، وأهمها؛ وذلك لعظم البلية به، ولكثرة الذين وقعوا في الغلو في الصالحين، وكفروا بالله، وأشركوا من حيث لا يشعرون أنهم أشركوا، وتمادوا في شركهم، وأن هذا هو سبب الغلو في الصالحين في القديم، وكذلك في الحديث في أواسط قرون هذه الأمة، من القرن السادس، ثم السابع، ثم الثامن، وقع الناس في شيء من الغلو، فصاروا يأتون إلىٰ قبور الصالحين، ويقيمون حولها، ويعكفون عندها، ويرجون من ذلك الصالح الذي قد مات أن ينالهم خيره وتنالهم بركته، يعتقدون أنه بفضله ومنزلته عند الله ينفعهم، ويدفع عنهم ، فكان في أول الأمر يأتون إليه وهو مدفون، ثم يطيلون الاقامة حوله، وتمادىٰ بهم الأمر فصاروا يأتون إليه، ويدعون الله عنده.

ثم اعتقد آخرون أن الصلاة عنده لها فضيلتها وميزتها فصاروا يتحرون الصلاة عنده، ويفضلون الصلاة عند القبر علىٰ الصلاة في المسجد، ويزعمون أنه سبب في قبولها، أو في رفعها، أو ما أشبه ذلك.

ثم زاد آخرون فدعوا صاحب القبر، فقالوا: ياسيدنا فلان نحن في جوارك، أعطنا، واقبل منا، واشفع لنا، وانفعنا، ونحو ذلك، فما زالوا هكذا يتمادون في

غيهم إلىٰ أن وقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك؛ فيقال لهم: هذا هو سبب كفر بني آدم في أول الأمر: الغلو في الصالحين، وهو أيضاً سبب كفر من كفر من الآخرين فإنهم وقعوا في مثل هذا الغلو.

* **والغلو هو**: زيادة المدح، أو إعطاء الإنسان شيئاً لا يستحقه، والغلو في الدين المذكور في الآية عام للغلو في الصالحين، وغيرهم، فكل من غلا في مخلوق، وجعل له شيئاً من حق الله، إما من الربوبية، وإما من الألوهية، سواء كان ذلك الإنسان الذي غلا فيه من الصالحين، أو من غيرهم، فإنه قد اتخذه إلهاً، فالغلو في صالح حتىٰ ولو كان ما كان فإنه يصير بالغلو إلهاً يُعبد من دون الله.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾** [النساء: ١٧١]]:

هذه الآية عامة للغلو في الدين، وقد ذكر أهل الكتاب؛ لأنهم غلوا في دينهم، ثم خص النصارىٰ، لأن النصارىٰ غلو في عيسىٰ، فأخبر الله بأنه رسول، وليس بإله كما يقولون، ووصفه بهذه الصفات، فدل علىٰ أن الذين غلوا فيه، وقالوا: هو الله، أو هو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، أو جعلوه هو وأمه إلاهين من دون الله، أنهم قد كفروا بالله، ولهذا قال تعالىٰ في هذه الآية: **﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾** إلىٰ آخرها، [النساء: ١٧١].

فلما ذكر أنه رسول الله؛ أي: من جملة الرسل، وأنه كلمة الله؛ أي: خلق بكلمة الله، التي هي (كن)، وأنه روح من الأرواح التي خلقها الله **﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾**؛

أي: من جملة الأرواح التي خلقها، لم يكن هناك ما يوجب أن تجعلوه إلهاً، فهو كسائر الرسل، فلا تقولوا: ثلاثة، ولا تقولوا: نعبد الله، والمسيح، وأمه؛ بل اعبدوا الله وحده، فهذا من جملة غلوهم في الدين.

وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، عام للغلو في كل العبادات، وذلك أن دين الله تعالىٰ وسط بين الغالي والجافي، فالنصارىٰ غلو في حق عيسىٰ، فجعلوه إلهاً من دون الله، واليهود قد جفوا، فسبوه وتنقصوه، وقالوا: هو ابن بغي، قاتلهم الله.

* **وقد وقع في هذه الأمة الغلو في بعض الأشخاص؛ مثل ما وقع في حق علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد غلا فيه أناس، وجفا فيه أناس آخرون:**

فالخوارج والنواصب ونحوهم أبغضوه، وصاروا يسبونه، ويلعنونه، ويشتمونه، ويرمونه بالعظائم، فهؤلاء جفوا في حقه.

وأما الروافض فإنهم غلوا في حقه، فأعطوه ما لا يستحقه، حتىٰ قال بعضهم: إنه هو الله، تعالىٰ الله عن قولهم، كما قال ذلك غلاة الباطنية، وكما يقول قائلهم: أشهد أن لا إله إلا حَيْدَرة الأنزع البطين، وحيدرة: هو علي، فهم يقولون: لا إله إلا علي، تعالىٰ الله عن قولهم.

وقاربهم طائفة أخرىٰ من الرافضة، قالوا: إن علياً هو الرسول، وهو أحق بالرسالة من محمد، وإنما جبريل خان الأمانة، فيقولون في تشهدهم: (خان الأمين وصدها عن حيدرة)، وحيدرة سمته به أمه، كما قال علي عن نفسه: أنا الذي سمتني أمي حيدرة.

وقد كان جبريل عليه السلام عندهم مأموراً بأن ينزل على عليٍّ فنزل على محمد، فهؤلاء من جملة الغلاة.

ومن جملتهم الذين يوجدون في هذه الأزمنة ممن يعبدون عليّاً مع الله، فتراهم في الضيق والشدة ينسون الله، ويعبدون عليّاً، وكثيراً ما نسمعهم في الطواف بالبيت يدعونه من دون الله: ياعلي، ياعلي، وربما أيضاً دعوا ابنه الحسن، أو الحسين، أو علي بن الحسين، أو نحوهم، وكذلك يدعونه في المشاعر، فيدعونه في عرفة، وعند الرمي، وفي الأماكن الشريفة، ويصفونه بالأوصاف التي لا يستحقها إلا الله، بأنه الذي يعلم الغيب، وأنه الذي يملك ما في السموات، وما في الأرض، وأنه الذي يعطي ويمنع، وأنه الذي بيده الضر والنفع، وما أشبه ذلك، وهذا كله من الغلو في هذا المخلوق، فلذلك نهى عنه: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

والنهي وإن كان لأهل الكتاب لكننا مقصودون به، ولهذا كان عمر رضي الله عنه إذا قرأ آية فيها توجيه لأهل الكتاب، يقول: «مضى القوم ولم يعن به سواكم»؛ أي: أنتم مأمورون، وكأن الله لما نهاهم عن الغلو كان في ذلك تنبيه لنا بأن بني إسرائيل وأهل الكتاب قد غلوا في دينهم فلا تكونوا مثلهم.

وقال الله تعالى في آية أخرى في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وهي مثل الآية السابقة فيها النهي عن الغلو.

■ **قوله: [في الصحيح، عن ابن عباس ـ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾** [نوح: ٢٣] **ـ، قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم؛ عُبدت»**[1]:

لما كان موضوع الكتاب الغلو في الصالحين، خصّ الباب بالغلو فيهم، وأورد هذه القصة القديمة التي ذكرت في القرآن الكريم، وهي غلو قوم نوح في أولئك الصالحين.

وقد قيل: إنهم كانوا قبل نوح بقرنين، أو ثلاثة، وهؤلاء الصالحون هم: ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، فلما مات هؤلاء، تأسف تلاميذهم عليهم، فجاءهم الشيطان وأوحى لهم: أن يصوروهم بعدما ماتوا، وينصبونهم في مجالسهم التي يتعلمون فيها، ويعلمون، ويعبدون الله، ويذكرونه، ففعلوا، ثم جاءهم الشيطان وقال لأولادهم أو أولاد أولادهم: إن آباءكم أو أجدادكم كانوا يعبدونهم من دون الله، فلما نُسي العلم، وطال عليهم الأمد، عبدوهم من دون الله.

فإذا كان هذا هو سبب كفر الأولين فهو أيضاً سبب شرك المتأخرين، فإنهم لما وقعوا في الغلو في الصالحين أشركوهم مع الله، وجعلوهم معبودين، فصاروا يطوفون بقبورهم، ويعتقدون أن الطواف بهم أفضل من الطواف ببيت الله الحرام، وينذرون لهم، ويذبحون لهم، ويدعونهم من دون الله، فيقولون: ياسيدي فلان، ياسيدي عيدروس، أو: ياسيدي يوسف، أو: تاج، أو ما

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٢٠).

أشبهه، فيجعلون لهم قسطاً من حق الله تعالىٰ؛ وهو العبادة، فصاروا بذلك مشركين عبدوا مع الله غيره.

فهذا بيان أن كفر بني آدم الأولين بسبب الغلو، وكذلك كفر الآخرين.

■ قوله: [وقال ابن القيم: **قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم»**(١)]:

كلام ابن القيم هذا أفاد أن أول ما عملوا مع أولئك الصالحين هو العكوف علىٰ قبورهم، وذلك من الحزن عليهم، والأسف بفقدهم.

والمعنى: أنهم لازموا تلك القبور وأطالوا المقام حولها، وإن لم يقصدوا ما قصده المشركون بعدهم من العبادة، كما في قولهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

ثم بعد أن طال العكوف حولهم أوحىٰ إليهم الشيطان أن صوروا تماثيلهم، فصنعوا لكل منهم صورة منقوشة، أو منحوتة، ونصبوها في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها للعبادة أو للتعليم، وسموها بأسمائهم، وإنما قصدوا أن يتذكروا عبادتهم وأعمالهم مما يكون سبباً في محاكاتهم والعمل بمثل أعمالهم، ثم بعد أن طال الأمد وتوالت السنين وهلك الذين صوروهم ونشأ آخرون لم يعرفوا سبب تصويرهم جاءهم الشيطان وزين لهم عبادتها، فعبدوها بدعائها والتمسح بها، والذل والخضوع أمامها، والذبح لها وتعظيمها، وصرف خالص حق الله لها، وسموها آلهة، فقالوا لنبي الله نوح عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وتواصوا بينهم بالتمسك بمعبوداتهم: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

---

(١) أنظر كلام ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» (١ / ٢٠٣).

[نــوح: ٢٣]، وهو دليل على أن لهم آلهة أخرى، وأن هذه الخمسة أشهرها، وأغلاها في نفسوهم، حيث حثوا على التمسك بها.

وهكذا جميع المشركين في كل زمان يتواصون بالغلو في معبوداتهم، ولزوم عبادتها، فقد حدث في القرون المتأخرة أن رفعوا قبور بعض الصالحين ومن يخيل إليهم أنهم من الأولياء والأصفياء، وتمادوا في التعبد عندها، وتحري الصلاة والذكر والقراءة في أفنائها، والذبح والنذر لها، وصرف الكثير من العبادات لها، وفي ذلك يقول الإمام الصنعاني: رحمه الله في داليته:

ويعمر أركان الشريعة هادماً
مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله
يغوث وود بئس ذلك من ود
وكم هتفوا عند الشدائد باسمها
كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من عقيرة
أهلّت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل
ومستلم الأركان منهن بالأيدي

فالصنعاني رحمه الله تعالى يحكي ما يصنع في زمانه في اليمن وفي نجد، وفي أغلب البلاد الإسلامية من الغلو في الأموات، ودعائهم مع الله، وتعظيم الأضرحة وبناء القباب عليها، وصرف خالص حق الله لأربابها حتى أشبهت الأوثان التي كانت في زمن نوح وما بعده إلى عهد النبي ﷺ، والتي أنكرها

وحاربها الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، ووفق الله آل سعود إلىٰ نصرته وقبول دعوته، مما كان سبباً في القضاء علىٰ تلك المشاهد والمعبودات في تلك الأماكن، وتطهير هذه الجزيرة من أوضار(١) الشرك والكفر.

■ **قوله: [وعن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»، أخرجاه]:**

الإطراء هو: المبالغة في المدح والزيادة علىٰ القدر الصحيح، حتىٰ يرفع منزلته إلىٰ منزلة الرب المعبود، وذلك أن من صفة المخلوق العبودية لله وحده، وهي صفة شرف ورفعة، وصف الله تعالىٰ أنبياءه ورسله بها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥]، وقوله: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]؛ فإن التذلل للرب العزيز والتواضع له وتعظيمه من عباده هو غاية الشرف، والرفعة والفضل.

فلا يتوهم أن وصف نبينا ﷺ بالعبودية لربه فيه هضم لحقه، أو نقص لقدره؛ بل قد وصفه الله تعالىٰ بالعبودية في أشرف المقامات، ففي مقام التحدي، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. وفي مقام الدعوة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

فله ﷺ من العبودية أعلاها فهو عبد الله الذي هو ذليل لربه متواضع له ومعترف به له سبحانه بالعزة والكبرياء، كما أنه يتعبد له ويتقرب إليه بأنواع العبادة والطاعة ليكون من عباده المقربين، وقد تميز بوصف الرسالة وهي أن الله

---

(١) أوضار: أوساخ.

تعالىٰ اختاره لحمل رسالته، وفضله بإنزال الوحي عليه، ومدحه بما هو أهله، وذكره نعمته عليه بأنه آواه وهداه وأغناه وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وغفر له ذنبه ما تقدم وما تأخر، وأمر الأمة أن يؤمنوا برسالته، وأن يتبعوا سنته، وأن يقدموا محبته علىٰ محبة النفس والأهل والمال، كما نهاهم عن معصيته ومخالفة أمره، وتوعد علىٰ ذلك بالعذاب الأليم، وكل ذلك لإبعادهم عن الغلو فيه كما فعلت النصارىٰ، وعن الجفاء كما فعلت اليهود في عيسىٰ بن مريم، وإنما الواجب تصديقه والاعتراف بفضله علىٰ الأمة ونصحه لهم، فعلينا الإكثار من الدعاء له والصلاة عليه، وسؤال الوسيلة والفضيلة ونحو ذلك من حقه علىٰ أمته.

■ **قوله: [قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**[1]].

هذا الحديث رواه الإمام أحمد(١ / ٢١٥ ، ٣٤٨)برقم (١٨٥١ ، ٣٢٤٨)، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، في

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١ / ٢١٥، ٣٤٧)، وابن ماجة رقم (٣٠٢٩)، والنسائي (٥ / ٢٦٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٩٨)، وابن حبان (٦ / ٦٨)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٢٧٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ٤٦٦)، والبيهقي (٥ / ١٢٧)، من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٩): إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم. وقال في «مجموع الفتاوىٰ»: (٣/ ٣٨٣): وهو حديث صحيح. وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (١٨٥١): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٢٨٣).

تنبيه: قال الشيخ ابن جبرين: (وشك الراوي عند أحمد هل هو عن عبد الله بن عباس أو أخيه الفضل؟ والصحيح أنه عن الفضل؛ حيث أن عبد الله كان من الذين تعجلوا إلىٰ منىٰ آخر الليل، والراوي عنه هنا هو أبو العالية وقد أدرك الفضل.

المناسك، عن ابن عباس قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو واقف على راحلته: «**القط لي سبع حصيات**»، فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف، وأخذهن بيده، وقال: «**بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**». وصححه الحاكم والذهبي.

وشك الراوي عند أحمد هل هو عن عبد الله بن عباس؟ أو أخيه الفضل؟، والصحيح أنه عن الفضل؛ حيث أن عبد الله كان من الذين تعجلوا إلى منى آخر الليل، والراوي عنه هنا هو أبو العالية وقد أدرك الفضل.

والحديث نهى عن الغلو في الدين، ومن جملة الغلو في رمي الجمار بالحصى الكبيرة، فإنه مجاوزة للحد، ويدخل في الغلو الزيادة في المدح والإطراء، ووصف الإنسان بما لا يتسحقه إلا الله تعالى، وقد وقع هذا في الأمة فإن القبوريين إنما عبدو الأموات، وصرفوا لهم خالص حق الله لما غلوا فيهم، ووصفوهم بأنهم يعلمون المغيبات، ويتصرفون في الكون، ويأخذون من اللوح المحفوظ، ويستغنون عن الشرع، وعن الأخذ من الكتاب والسنة، فنتج عن ذلك أن دعوهم من دون الله تعالى، وشيدوا قبورهم، وذبحوا لهم، ونذروا لهم النذور، وتبركوا بتربتهم، وهتفوا بأسمائهم، وتعلقوا عليهم في الملمات، وصرفوا لهم خالص حق الله تعالى.

فمن ذلك ما وقع من الغلو في النبي ﷺ بمدحه والزيادة في إطرائه، كما في قصيدة البردة المشهورة، وقوله فيها:

فإن من جودك الدنيا وضرتها

ومن علومك علم اللوح والقلم

يا أكـــرم الخلق مـــا لي من ألوذ به
سـوَاك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسـول الله جـاهك بي
إذا الكريم تحلى باسم منتقم
إن لم تكن في معادي آخذ بيدي
فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

ولا يخفىٰ ما في هذه الأبيات من الغلو في مجاوزه الحد، والشرك الصريح، ووصف النبي ﷺ بأن الدينا والآخرة كلها من جوده، وأنه يعلم ما كتب القلم في اللوح المحفوظ، وأنه ليس له من يلوذ به ويستجير به سوىٰ النبي ﷺ، فنسي الله تعالىٰ ولاذ بمخلوق، ومثل هذا كثير في شعر الكثير من الغلاة ونثرهم وأعمالهم الشركية، نعوذ بالله من الخذلان.

▪ **قوله: [ولمسلم، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون»، قالها ثلاثاً»[(١)]]:**

التنطع: التشدد والتكلف، والتعمق في الكلام، والتشدق وتكلف الفصاحة، ويدخل فيه التكلف في البحث عن المغيبات، والدخول في العلوم التي لا حاجة إليها في الدين والدنيا، كما فعل أهل الكلام، حتىٰ وقعوا في الحيرة والحسرة، وهو معنىٰ هلاكهم؛ أي: ضلالهم، وخسرانهم، وضياع سعيهم، وجهدهم، ثم وقوعهم في المهالك، وتكلفهم ما ليس لهم به علمه، وإعراضهم عن العلم الصحيح النافع، وعن طريقة الرسل وأتباعهم من علماء الأمة وأئمتها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٠)، وأبو داود برقم (٤٦٠٨)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٦).

[١٩]

باب:
ما جاء من التغليظ فيمن
عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

في الصحيح، عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

ولهما، عنها، قالت: لما نَزَل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ كشفها، فقال وهو كذلك: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد»، يُحذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرِزَ قبرُه، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً»، أخرجاه.

ولمسلم، عن جندب بن عبد الله، قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله .

والصلاة عندها من ذلك ، وإن لم يُبْنَ مسجد .

وهو معنى قولها : خشي أن يتخذ مسجداً ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً .

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجداً ؛ كما قال ﷺ : «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» .

ولأحمد بسند جيد ، عن ابن مسعود مرفوعاً : «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد» ، رواه أبو حاتم ، وابن حبان في صحيحه .

■ ■ ■ ■ ■

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول فيمن بنىٰ مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل، وغلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمسٍ، قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره، قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارىٰ في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم علىٰ ذلك.

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنىٰ اتخاذها مسجداً.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها، وبين من تقوم عليهم الساعة، فذكر الذريعة إلىٰ الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قل موته بخمسٍ، الرد علىٰ الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقه، وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنىٰ عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بُلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلىٰ من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلىٰ خلافته.

•• الشرح ••

باب:
ما جاء من التغليظ
فيمن عبد الله عند قبر رجل، فكيف إذا عبده؟

هذا الباب الثاني من الأبواب التي تتعلق بالقبور، وبالعبادة عند القبور، والباب الذي قبله: (باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين».

وهذا الباب في التغليظ في عبادة الله عند قبور الصالحين، فكيف بعبادة الصالح نفسه؟ فكيف بعبادة من ليس من الصلاح في شيء؟! بل لا يعرف بصلاح أو يعرف بفساد؟!

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه كشف الشبهات، قال: فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين:

أحدهما: أن المشركين الأولين يخلصون في الشدة، ويشركون في الرخاء، كما ذكر الله عنهم، في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وأما مشركوا زماننا فإنهم يشتد شركهم عند الأزمات، وعند الشدائد، فتجدهم عند الشدائد يهرعون إلى معبوداتهم، فيدعون الصالح، والولي، والنبي، أو نحوهم، ويهتفون بأسمائهم، وينسون عبادة الله.

الأمر الثاني: أن المشركين الأولين، إما أنهم يعبدون أناساً صالحين، كعيسى، وأمه، وعزيز، والملائكة، ونحوهم، وإما يعبدون أشجاراً وأحجاراً لم تذنب؛

بل هي مسخرة مذللة لله.

أما مشركوا زماننا، فإنهم كما ذكر الشيخ في كشف الشبهات: يعبدون أناساً فسقة، والذين يعبدونهم هم الذين يحكون فسقهم.

وقد يسمونهم مجاذيب؛ بمعنىٰ: أن أحدهم مجذوب، قلبه عند ربه، ولذلك لا تكليف عليه، ولو فعل ما فعل.

وأشار إليهم أيضاً الإمام الصنعاني في قصيدته البائية، حيث يقول:

كقوم عراة في ذرى مصر ما تُرى

على عورة منهم هناك ثياب

يعدُّونهم في مصرهم من خيارهم

دعاؤهم فيما يرون مجاب

هذا في زمن الصنعاني، فهم يمشون عراة ليس علىٰ عوراتهم ثياب، وأن أهل بلادهم يعدونهم من خيارهم، ويزعمون أن دعاءهم مستجاب فيما بينهم.

فالحاصل أن عبادة الله عند قبور الصالحين شرك، وورد فيها هذا الوعيد، فكيف بعبادة من ليس بصالح؟

ومن العبادة الصلاة عندهم، أي: تحري الصلاة عند القبر، وكذلك تحري الدعاء عند القبور، بأن يذهبوا إلىٰ القبر ليدعوا عنده، ويزعمون أن دعاء الله عند القبر يستجاب، إما بواسطة ذلك الصالح، أو ذلك الولي الذي في صلاحه يشفع في قبول الدعاء وينفعه، أو ببركته وببركة تربته يقبل الله دعاءنا إذا دعونا عند ذلك الصالح والتقي والسيد ونحوهم، فيقصدون القبر للدعاء عنده، دعاء الله لا دعاءه نفسه، والصلاة لله لا الصلاة له نفسه، فيعتبر هذا شركاً، ورد فيه هذا الوعيد.

وفي هذا الباب ذكر المصنف رحمه الله عدة أحاديث:

■ **الحديث الأول: قوله: [في الصحيح، عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»[١]، فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل]:**

وفي رواية في الصحيح: أن أم سلمة وأم حبيبة[٢] ذكرتا للنبي ﷺ كنيسة بأرض الحبشة يقال لها: مارية[٣]، وذكرتا ما فيها من الصور، فأخبر النبي ﷺ بأنهم شرار الخلق عند الله بهذا الفعل.

وكانت أم سلمة من المهاجرات إلى الحبشة، وكذا أم حبيبة، إحدى زوجات النبي ﷺ.

والكنيسة معبد النصارى الذي يقصدونه للتعبد فيه، ذكرتا له هذه الكنيسة، وذكرتا ما فيها من الصور، فكأنهما دخلتاها فهالتهما تلك الصور، فأخبر النبي ﷺ أنها صور أولئك الصالحين المقبورين المدفونين في تلك الكنيسة، وأنهم يتحرون عبادة الله في تلك الكنيسة؛ من أجل أولئك الصالحين الذين فيها، أو يتحرون دفن من مات من صالحيهم في هذه الكنائس من أجل البركة؛ ومن أجل أن تقبل عباداتهم التي يتعبدونها عند قبور أولئك الصالحين، ومع ذلك لم يقتصروا على القبور، بل زادوا بالتصاوير.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٢٧). ومسلم برقم (٥٢٨).

(٣) جاء ذكر اسم الكنيسة في رواية البخاري برقم (٤٣٤). ومسلم برقم (٥٢٨)(١٨).

* ولذلك يقول المؤلف: (هؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل).

فأما فتنة القبور: فإنهم يدفنون الصالحين في المساجد، ثم يصورون صورهم، وينصبونها أمام المصلي، أو أمام الداعي، أو أمام العاكف، ونحوه، حتىٰ إذا صلىٰ رأىٰ صورة فلان العبد الصالح، أو الرجل الصالح؛ الذي صورت صورته، فيتذكره، ويتبرك به، ونحو ذلك، فصاروا شرار الخلق عند الله بهذا السبب.

فهذا الحديث بيان من النبي ﷺ أن دفن الصالحين في المساجد أو في المعابد من فعل شرار الخلق، وأن تصويرهم لصورهم ونصبها من فعل شرار الخلق عند الله.

هذا هو وجه الدلالة في قوله: «**أولئك**» يخاطب أم سلمة: «**أولئك شرار الخلق عند الله**».

وذنبهم أنهم دفنوا صالحيهم في معابدهم، وأنهم نصبوا صورهم، ولا شك أن هذا يستلزم أن الكثير من الجهلة يتبركون بهم، ويتمسحون بتربتهم، وأنهم فيما بعد يدعونهم مع الله، أو يدعونهم من دون الله، فيقع الشرك.

وهذا هو ما قصده الشيطان عندما أوحىٰ إلىٰ قوم نوح، الذين صوروا ودّاً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، أنه قصد من تصويرهم أن أولادهم، وأولاد أولادهم سيعبدونهم إذا رأوا صورهم منصوبة، فكذلك هؤلاء الذين في هذه الكنائس، قد لا يعبدها من صورها ونحتها لأول مرة أو دفنها، ولكن تقع العبادة فيمن يجيء بعدهم.

■ **الحديث الثاني: قوله: [ولهما، عنها، قالت: لما نَزَل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغْتَمَّ كشفها، فقال وهو كذلك: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد»، يُحذِّر ما صنعوا[١]، ولولا ذلك أُبرِزَ قبرُه، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً»[٢]، أخرجاه]:**

هذا الحديث دلالته صريحة، فإنه ﷺ لما احْتُضِر في آخر حياته، في مرض موته، ونزل به الموت، جعل يطرح ثوباً له على وجهه، يغطي به وجهه، فإذا اغتم وضاقت به نفسه كشفه، وفي تلك الحال، وهو في سياق الموت، لعن اليهود والنصارى، لماذا؟ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر مما صنعوا، يحذر من أن تتخذ أمته قبره أو قبور الصالحين من صحابته مساجد يقصدونها من أجل الصلاة عندها.

* تقول عائشة: «**ولولا ذلك لأبرز قبره**»؛ أي: دفن في الصحراء، ولكنهم خشوا أن يتسلل إليه الناس، ليقصدوا الصلاة عنده، فدفنوه في حجرته؛ حتى تكون الحجرة محل المراقبة، هكذا فعلوا.

لكن بعد أن كان في آخر القرن الأول وانقضى من فيها من الصحابة، أدخلت الحجرة في المسجد من باب التوسعة، ولكن الذين أدخلوها أحاطوها بحيطان، حتى لا تكون محلاً للقصد، ولم يبرزوا القبر، حتى لا يصل إليه الناس من أجل التمسح به، أو نحو ذلك.

فيتبين من ذلك أنه ﷺ صرّح بلعن اليهود والنصارى، «**لعن الله اليهود والنصارى**»، لماذا؟ «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» وفي رواية: «**قبور أنبيائهم**

---

(١) الحديث إلى هنا، أخرجه البخاري برقم (٤٣٥)، ومسلم برقم (٥٣١)، عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم.

(٢) قول عائشة أخرجه البخاري برقم (١٣٣٠)، ومسلم برقم (٥٢٩).

وصالحيهم مساجد»[(١)].

وليس معنى مساجد أنهم بنوا عليها مساجد على هيئتها، بل إنهم جعلوها مصلىً ومقصداً، أو أنهم دفنوهم في المساجد، أو أنهم بعدما دفنوهم بنوا حولهم معابد، فهذا صريح في ذمهم، وعيبهم؛ حيث صرح بلعنهم بقوله: «**لعن الله**»، واللعن: الطرد الإبعاد عن رحمة الله.

وهذا دليل على أنهم عصوا الله معصية كبيرة، سببت وقوعهم في الشرك بعبادة الأنبياء، أو بعبادة الصالحين، فيخاف على من فعل مثل فعلهم أن يقع في مثل ما وقعوا فيه.

فهذا وجه دلالة هذين الحديثين على أن من عبد الله عند قبر رجل صالح فهو متوعد باللعن، وهو من شرار الخلق، فكيف إذا عبد ذلك الرجل؟! والله تعالى أعلم.

■ **الحديث الثالث: قوله: [ولمسلم، عن جندب بن عبد الله، قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»**[(٢)]:

هذا الحديث ـ وهو حديث جندب ـ ورد فيه ما يدل على أنه تكلم بذلك في آخر حياته ﷺ؛ فذكر أولاً أن الله تعالى اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٥٣٢)، عن جندب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٥٣٢).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]؛ أي: محبوباً مقرباً؛ فلذلك يقال لإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام الخليلان.

فقد أخبر ﷺ أنه اقتصر علىٰ خلة ربه له التي هي أعلىٰ أنواع المحبة، وتبرأ من أن يكون له خليل من الناس، حتىٰ لا يشارك ربه في تلك المحبة الخاصة أحد من المخلوقين.

ثم ذكر أن أولىٰ الناس بالخلة له هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك لطول صحبته، وصدقه في إيمانه، وملازمته للنبي ﷺ منذ أن بعث حتىٰ مات، فهو أولىٰ أن يكون خليله وحبيبه، ولكنه لا يحب أن يزاحم ربه أحد من الخلق في هذه الخلة التي هي أعلىٰ أنواع المحبة، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني

وبذا سمي الخليل خليلاً

ثم في هذا بيان أن المحبة صفة دون الخلة، فإن الله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، و﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]؛ فأما الخلة فإنها خاصة بالخليلين إبراهيم ومحمد.

وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ أحقية أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة، حيث نص النبي ﷺ فضله في هذه الخطبة التي ألقاها قبل موته بخمس ليال، فلا جرم عمل بها الصحابة وقدموه في الخلافة.

ثم إنه أخبر عن الأمم السابقة بأنهم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ أي: مواضع للعبادة والصلاة عندها، وذلك مما أنكره من فعل تلك الأمم، وضلل من

فعله، ثم نهىٰ عن مثل فعلهم، بل عن اتخاذ القبور عموماً مساجد؛ سواء كانت قبور الأنبياء أو قبور الصالحين والأولياء، أو قبور الصحابة والشهداء، فنهىٰ عن ذلك كله، وكأنه أشار بذلك إلىٰ قرب أجله، وخاف أن أمته يبنون علىٰ قبره مسجدًا، أو يقصدونه للصلاة عنده، ونحو ذلك مما يكون وسيلة إلىٰ تعظيمه والغلو فيه، ثم دعائه مع الله، وصرف العبادة له مع إنها خالص حق الله تعالىٰ.

وقد وردت السنة المتواترة بالنهي عن الصلاة عند القبور، وتحري الدعاء عندها، حتىٰ لا يتوهم أن إجابة الدعاء بسبب ذلك الميت وشفاعته، وبركة الدعاء عنده، مما يؤدي إلىٰ الاعتقاد فيه، وتوهم أنه ينفع من دعاه، أو توسط به، أو يجيب من سأله، أو طلب منه تفريج كربه، أو شفاء مريض، أو قضاء حاجة.

ومع هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد فإن القبوريين قد خالفوا ذلك وجاهروا بالمخالفة، فبنوا القباب علىٰ القبور، ورفعوها، وشيدوها، وعظموها، ثم قصدوها للتعبد والتقرب حولها، ثم آل بهم الأمر إلىٰ أن ذبحوا لها القربان، ونذروا لها النذور، وطافوا بالأضرحة، وتمسحوا بتربتها، وشدوا إليها الرحال من بعيد، واعتقدوا أن تلك البقاع تفضل علىٰ البيت الحرام، والمساجد الثلاثة، كما يفعل ذلك عند القبر المنسوب كذباً إلىٰ علي رضي الله عنه بالنجف، وإنما هو قبر المغيرة بن شعبة، وكذا في كربلاء، وكذا ما نسب إلىٰ الحسين في القاهرة ونحو ذلك، مما يسمونها مشاهد، يغلون فيها، ويعبدونها من دون الله، ولم يرعوا لمن نصحهم، ولم يقرؤا مثل هذه الأحاديث الصحيحة.

■ قوله: [فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله.

والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجد.

وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً.

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلى فيه يسمى مسجداً؛ كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[(١)]]:

ذكر الشيخ رحمه الله استنباطاً من أحاديث الباب أن النبي ﷺ نهىٰ عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته قبل موته بخمسن ليال، كما في حديث جندب بن عبد الله[(٢)]، ثم لم يكتف بهذا النهي؛ بل لعن وهو في السياق من فعله، كما في حديث عائشة، حيث ذكرت أنه قال وهو ينازعه الموت: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا[(٣)].

وأفاد الشيخ رحمه الله تعالىٰ أن قصدها للصلاة عندها داخل في اتخاذها مساجد؛ فليس من شرط اتخاذها مساجد عمارة المساجد عليها، أو إدخالها في المساجد، وذلك ما دل عليه قول عائشة رضي الله عنها: «خشي أن يتخذ مسجداً»،

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم (٣٣٥)، ومسلم برقم (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وفي الباب عن حذيفة رضي الله عنه بلفظ: «وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً، إذا لم نجد الماء»، أخرجه مسلم برقم (٥٢٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً». أخرجه مسلم برقم (٥٢٣).

(٢) سبق تخريجه في هذا الباب.

(٣) سبق تخريجه في هذا الباب.

أي: خاف أن يقصد الناس قبره إذا كان بارزاً ويتحروا الصلاة عنده، وذكر أن الصحابة رضي الله عنهم قد تأكد عندهم النهي عن البناء على القبور، وتشييدها وتجصيصها، ورفعها عن المستوى المعتاد، بل قد أرسل النبي ﷺ علياً وأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه بسائر القبور[1].

ثم ذكر أن كل موضع قصد للصلاة فيه يسمى مسجداً ومصلى، ولو كان صحراء لا بناء فيه، لكنه يخصص للصلاة فيه، ويقصده الناس لذلك، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»، أي: كل الأرض تصلح للصلاة فيها، والسجود في أي بقعة منها، فسماها مسجداً مع عدم البناء فيها كلها، وكأنه أراد الجواب لمن يقول: نحن ما عمرنا تلك القبور مساجد ذات محاريب ومنارات، وحيطان متقابلة، وإنما نعتقد أن أولئك الصالحين لهم جاه وفضل وشرف، وأن الصلاة حولهم لها ميزة وفضيلة على غيرها، لشرف تلك البقعة التي احتوت جثمان ذلك الولي الصالح من عباد الله.

فأجابهم: بأنكم قد اتخذتموها مساجد تقصدونها للصلاة عندها، وتركعون وتسجدون حولها، كالصلاة ذات الركوع والسجود في المساجد، وذلك صريح مخالفة النهي في هذه الأحاديث، فإن المساجد سميت بذلك لظهور الركوع والسجود فيها، ولا يسمى مسجداً ما لا صلاة ولا ركوع أو سجود فيه.

ولا شك أن من قصد تلك البقاع التي دفن فيها أولئك الأموات، وتحرى الصلاة، أو الدعاء، أو القراءة عندها فقد صادم هذه النصوص.

ثم إن فعل هؤلاء القبوريين قد دعاهم ودعا الجهلة إلى الغلو في الأموات، واعتقاد أنهم ينفعون ويشفعون بدون إذن الله، فلا جرم دعوهم ورجوهم،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٦٩٩).

وعلقوا عليهم الآمال، وهتفوا بأسمائهم وأشركوهم مع الله تعالىٰ في خالص حقه، وذلك مما خافه النبي ﷺ علىٰ أمته، حيث نهىٰ عن الوسائل التي توصل إلىٰ هذه المقاصد، التي هي شرك ظاهر في صورة تعظيم الأولياء ومحبتهم.

■ الحديث الرابع: قوله: [**ولأحمد بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»**[١]**، رواه أبو حاتم، وابن حبان في صحيحه**]:

المراد بشرار الناس أكفرهم وأفسقهم، وأبعدهم عن الرشد والصلاح والتمسك بالدين، فقد ورد أنه: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**»[٢]، وأخبر النبي ﷺ في حديث آخر أنه يبقىٰ شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع[٣]، يتهارجون تهارج الحمر[٤]، فعليهم تقوم الساعة.

ثم ألحق بهم في الشر القبوريين الذين يعمرون المشاهد حول القبور، أو يقصدونها لأداء الصلاة فرضاً أو نفلاً عندها، وذلك لأنهم بفعلهم وذلك يقربون من عبادتها، ويقتدي بهم الجهلة من العامة، ويعظم ذلك ويتفاقم الأمر، حتى

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١ / ٤٣٥). وابن خزيمة رقم (٧٨٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣ / ٣٤٥). والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٤١٣). قال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٣): رواه البزار بأسانيد في أحدهما عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح أ. هـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء» (٢ / ٦٦٨): إسناده جيد. وبذلك قال أيضاً ابن القيم في «إغاثة اللفهان» (١ / ٢٠٥). وعلق البخاري الجملة الأولىٰ منه رقم (٧٠٦٧). وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» رقم (٤١٤٣): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «تحذير الساجد» ص(١٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) هذه الجملة جاءت في حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم برقم (٢٩٤٠).

(٤) هذه الجملة جاءت في حديث النواس بن سمعان عند مسلم برقم (٢٩٣٧).

تعبد الأموات من دون الله.

وقد كثرت الأدلة في النهي عن الصلاة عند القبور، كقول النبي ﷺ: «**الأرض كلها مساجد إلا المقبرة والحمام**»(١)، رواه أحمد وأهل السنن، وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**»(٢)، وغير ذلك من الأدلة.

وقد ذكر بعض الفقهاء أن النهي عن الصلاة حولها؛ لأنها مظنة النجاسة بصديد الموتى ورائحتهم، وأباحوا الصلاة عند القبر أو القبرين؛ لأن النص في القبور وهي جمع، وكل ذلك خطأ، فقد رجح شيخ الإسلام كما في اقتضاء «**الصراط المستقيم**»(٣): أن النهي ليس لأجل النجاسة، وإنما هو خوف الغلو فيها، وصرف العبادة لأربابها، واستدل بأن النهي ورد عن قبور الأنبياء، ولعن من فعل ذلك، مع قوله ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(٤)، أي: أن أجسادهم لم تُبْلَ في الأرض كغيرهم، فعرف بذلك أن النهي ليس لأنها مظنة نجاسة، وإنما هو لكون ذلك ذريعة إلى تعظيم الأموات، وصرف العبادة لهم، وهي خالص حق الله تعالى، لا يصرف منها شيء لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣، ٩٦)، وأبو داود برقم (٤٩٢)، والترمذي برقم (٣١٧)، وابن ماجة برقم (٧٤٥). عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٨٧)، و«أحكام الجنائز» ص (٢٧٠).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٧٢)، عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

(٣) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص(٣٣٢، ٣٣٣)، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٤) أخرجه أبو دادو برقم (١٠٤٧). وابن ماجة برقم (١٦٣٦). والنسائي برقم (١٣٧٣)، عن أوس بن أوس رضي الله عنه.

وأخرجه ابن ماجة برقم (١٠٨٥)، عن شداد بن أوس رضي الله عنه.

وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٢٠١).

[٢٠]

باب:
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد أشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم: ١٩]، قال: كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره.

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج.

وعن ابن عباس، قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يتسعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها: صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زوارات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

وهذا الباب أيضاً مثل البابين قبله، وهو النهي عن الغلو في القبور.

والغلو في القبور هو: تعظيم القبر بشيء أو بنوع من التعظيم، وهذا التعظيم يصيرها في النهاية أوثاناً معبودة من دون الله.

وقد تقدم قبل بابين قصة قوم نوح، وأنهم كانوا رجالاً صالحين، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

فأولاً: عكفوا على القبور حزناً عليهم.

وثانياً: نحتوا لهم صوراً.

وثالثاً: جاء الشيطان للمتأخرين، وقال لهم: اسألوهم واطلبوهم، فصاروا يحلفون بهم ويدعونهم مع الله، فيقولون: ياود، يايعوق، يايغوث، يانسر، فكان ذلك دعاءً لهم من دون الله، فكان عبادة.

فالحاصل أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً وأصناماً معبودة، ولو كانوا صالحين.

فإذا أتيت مثلاً إلى قبر ورأيتهم يطوفون به، أو يتحرون الصلاة عنده، أو يسألون صاحبه، أو يحلفون به، ويقولون: يا سيدنا فلان! اشف مريضنا، أو ردَّ

غائبنا، أو اشفع لنا، أو يذبحون عنده، أو يأخذون من ترابه، أو ينذرون له، أو نحو ذلك.

فقل لهم: قد اتخذتم هذا المكان وثناً وصنماً يعبد من دون الله.

فإذا قالوا: كيف تجعل الولي وثناً؟! وكيف تجعل السيد صنماً؟! هل قبر هذا السيد الصالح المقبول عند الله يكون صنماً ويكون وثناً؟!

فقل لهم: نعم! حتى ولو كان قبر الرسول ﷺ، أو قبر أحد من الرسل أو الأنبياء.

ثم قل لهم: لو كانت عبادة قبر الأنبياء لا تصيرها أوثاناً ما دعا الرسول ﷺ بهذا الدعاء الصريح، الذي قال فيه: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(١).

وقد كان أول تعظيم للقبور في المائة الرابعة، في دولة بني بويه، وفي دولة من يسمون أنفسهم كذباً وزوراً بالفاطميين، أي: انتساباً إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وهم بنو عبيد القدّاح، وكانوا كلهم رافضة، ولكن قسم منهم سكن العراق، وقسم سكن مصر والشام، وكانوا يزينون للناس تعظيم القبور وتشييدها، ورفع أمكنتها والصلاة عندها ونحو ذلك، إلى أن وقع الشرك في المتأخرين وتمكّن.

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً في هذا الباب.

■ **قوله: [روى مالك في الموطأ: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد. أشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[1]]:

في هذا الحديث دعا النبي ﷺ أن لا يكون قبره وثناً يعبد، أي: يُطاف به كما يطاف بالبيت، ويُتمسح بترابه، أو يُذبح عنده، أو يُنذر له، أو يُحلَفُ به، أو يُركع أو يسجد له، أو نحو ذلك. يقول ابن القيم رحمه الله:

فأجاب رب العالمين دعائه

وأحاطه بثلاثة الجدران

ولما أن أبناء الصحابة رضي الله عنهم أدخلوا القبر في المسجد من أجل التوسعة، أرادوا أن لا يكون القبر مستقبلاً للمصلين، فجعلوه في زاوية مثلثة؛ حيث جعلوا حوله ثلاثة حيطان على هيئة زاوية مثلثة، جانبه الشمالي يلتقي فيه الجدران، حتى إذا كان أحدٌ يستقبل القبلة من جهة الشمال فإذا القبر لا يقابله، إنما يقابله هذان الجداران؛ لأن القبلة في جهة الجنوب.

والحاصل أنه لما دعا الله دل على أن من عكف على قبر رجل صالح، أو ولي، أو نحو ذلك، فقد اتخذ ذلك القبر وثناً، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يعني: قصدوها لأجل أن يصلوا

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ برقم (٢٦١)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٤٠)، عن عطاء بن يسار مرسلاً.

وأخرجه عبد الرزاق (١/ ١٠٦)، وابن أبي شيبة (٣/ ٣٤٥)، عن زيد بن أسلم مرسلاً. و لم يذكر عطاء.

ووصله أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٦)، والحميدي برقم (١٠٢٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٨٣، ٣١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وصححه البزار وابن عبد البر كما في تنوير الحوالك (١/ ١٨٦)، وشرح الزرقاني (١/ ٣٥١)، وقال أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (٧٣٥٢): إسناده صحيح، وصححه الألباني في تحذير الساجد ص١٨، ١٩.

عندها، ويقصدون بذلك أن الصلاة عند قبر هذا النبي أو ذلك الولي أفضل من الصلاة في المساجد، وما أشبه ذلك.

وقوله ﷺ: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، فإن كل موضع يُصلىٰ فيه يسمىٰ مسجداً، سواء كان مبنياً أو غير مبني، فأي موضع قُصد للصلاة فيه فإنه يسمىٰ مسجد، فهؤلاء الذين قصدوا الصلاة عند القبر فإنهم اتخذوا هذا القبر مسجداً.

وقوله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم»، يعني: أن الله غضب عليهم غضباً شديداً؛ لأنهم وقعوا في الشرك، فأصبحوا مشركين.

فتبين لنا مما سبق أن عندنا في هذا الموضوع وسائل ومقاصد، والوسائل هي: الصلاة لله عند القبر، فمثلاً إذا قلت: أصلي عند هذا القبر، ولكن لله، وأجلس عنده، ولكن تعظيماً لله، نقول: لا شك أن هذا الفعل جائز إذا كان لله، ولكنك فتحت الباب؛ حيث أنك جعلته وسيلة، وهذه الوسيلة قد تجرك في النهاية إلىٰ أن تعتقد أن لهذا المكان ميزة وشرفاً وفضيلة، فتكون بذلك واقعاً في الشرك، ومتلبساً به؛ حيث اعتقدت أن هذا المكان أفضل من المساجد التي هي محل الطاعات، وبالتالي يتجرأ غيرك من الجهلة فيفعلون كما فعلت.

فالحاصل أنه عليه الصلاة والسلام ما دعا الله إلا وقد خاف أشد الخوف علىٰ أمته أن تتخذ قبره معبداً، كما عُبدت قبور الصالحين ونحوه.

وقد تقدم أنه ﷺ أخبر عن النصارىٰ ونحوهم، فقال: إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو علىٰ قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، وأخبر بأنهم شرار الخلق عند الله بهذا السبب(١).

---

(١) كما في قوله ﷺ، عن عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنو على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».
أخرجه البخاري برقم (٤٣٤).

وهكذا أيضاً وقع في مشركي هذه الأمة مثل ذلك؛ فإنهم ما جرأهم على الشرك وأوقعهم فيه إلا تعظيم القبور ونحوها، فالروافض مثلاً لما أنهم عظموا قبر علي الموجود في ما يسمى بـ (النجف) مع أن هذا كذب، فليس هناك قبر لعلي، وأيضاً عظموا قبر الحسين الموجود في ما يسمى بـ (كربلاء)، وهذا أيضاً من الكذب.

والحاصل: أنه ما زال بهم التعظيم إلى أن جعلوا قصده وزيارته أفضل من حج الفريضة، وقالوا: من زاره وصلى وقام عنده فله كذا وكذا حجة، وما زال ذلك فيهم إلى أن عبدوه، وعبدوا غيره من القبور، والله المستعان.

والحاصل أن الغلو في قبور الصالحين صيرها أوثاناً وأصناماً تقصد من دون الله.

■ **قوله: [ولابن جرير بسنده، عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾** [النجم: ١٩]، **قال: كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره**(١).

وكذا قال أبو الجوزاء، عن ابن عباس: كان يَلُتُّ السويق للحاج(٢)].

هكذا يكون الشرك، حيث يبدأ بالغلو في قبور الصالحين، ثم تصير أوثاناً تعبد من دون الله، وهكذا أيضاً في المشركين من العرب قبل الإسلام، كان من أسباب شركهم تعظيم أولئك الأموات.

* **فمثلاً اللات** التي ذكرت في القرآن، وهي صنم كان في الطائف، وهو صخرة مشهورة، وقد قيل في سبب عبادتهم لهذه الصخرة: أن تحتها قبر رجل

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٧ / ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٨٥٩) في «التفسير» عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾.

صالح كان يخدم الحجاج إذا مروا عليه وافدين إلىٰ الكعبة، فيخدمهم ويطعمهم، ويلت لهم السويق الذي هو نوع من الطعام، يلته بإدام أو بدهن، أو بنحو ذلك، ويقدمه لهم.

واللّتّ هو: الخلط، يلت السويق للحاج، يعني: يخلطه، ويقدمه، ويؤدمه. وبذلك اعتقدوا فيه الصلاح.

فلما مات ودفن تحت تلك الصخرة صاروا يعكفون علىٰ قبره، ثم مع طول الزمان انمحىٰ قبره، وصاروا يعظمون نفس الصخرة، ويحلفون بها، فيقولون لمن حلّفهم: واللّات والعزىٰ.

ولما أسلم أهل الطائف اشترطوا أن تبقىٰ لهم الطاغية؛ التي هي اللات سنة يتمتعون بها، فامتنع النبي ﷺ أن يقرّها ولو يوماً، ولم يقبل منهم شرطهم، وأرسل إليها من يكسرها، وكانت صخرة عظيمة، ولما بدأ المغيرة وغيره في تكسيرها، اعتقدوا أن من يكسرها سيصيبه جنون أو ستنتقم منه، أو نحو ذلك، ولكنه لم يصبه شيء، فعند ذلك انمحىٰ أثرها.

عرفنا بذلك أن غلوهم في قبر ذلك الرجل أدىٰ بهم أن عبدوا تلك الصخرة، وصارت وثناً من الأوثان المشهورة.

أما العزى فهي شجرات بين مكة والطائف، كانوا يعظمونها ويحلفون بها ونحو ذلك، فأدىٰ بهم غلوهم في هذه الشجرات إلىٰ أن عبدوها من دون الله، فصارت وثناً وصنماً من الأصنام.

وهكذا كل من غلىٰ في بقعة، أو قبر، أو نحو ذلك، في النهاية يكون وثناً باتخاذ الناس له ملجأ وملاذاً يقصدونه، ويعكفون عليه، ويقدمون له النذور والقرابين، ويعظمونه ويعتقدون فيه النفع والضر.

■ **قوله: [وعن ابن عباس، قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»، [(١)] رواه أهل السنن]:**

فهو بهذا اللفظ عند الإمام أحمد، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، ورواه ابن ماجه ولم يذكر آخره، وحسنه الترمذي، وسكت عنه أبو داود، وصحح

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٢٣٦)، والنسائي (٤ / ٩٥، ٩٦)، والترمذي رقم (٣٢٠). وابن ماجه رقم (١٥٧٥)، وأحمد في «المسند» (١ / ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧)، وابن أبي شيبة (٣ / ٣٤٤)، وابن حبان (٧٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٢٥)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ٣٧٤)، والبيهقي (٤ / ٧٨)، وأورده البغوي في «شرح السنة» (٢ / ٤١٦، ٤١٧).
قال الترمذي: حديث ابن عباس حديث حسن. وحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوىٰ» (٢٤ / ٣٥٠)، وقال البغوي: هذا حديث حسن.
وقال أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٢٠٣٠): إسناده صحيح. وقال في «تحقيق سنن الترمذي»: فهذا الحديث علىٰ أقل حالاته، حسن، ثم الشواهد التي ذكرناها في تأييده ترفعه إلىٰ درجة الصحة لغيره، إن لم يكن صحيحاً بصحة إسناده هذا أ. هـ.
وقال ابن حجر في «التلخيص» (٢ / ١٣٧): والجمهور علىٰ أن أبا صالح هو مولىٰ أم هانئ وهو ضعيف. أ. هـ، وقال الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة»: إسناده ضعيف لضعف أبي صالح، واسمه باذام مولىٰ أم هانئ. قال في «التقريب»: ضعيف مدلس، لكن الحديث حسن كما قال الترمذي، دون قوله: «والمتخذين عليها السرج» فإنها لم ترد في غير هذا الحديث.
وللحديث شاهد عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ: «زوّارات القبور»، أخرجه الترمذي برقم (١٠٥٦)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦)، وابن ماجة رقم (١٥٧٦). والطيالسي في «المسند» رقم (٢٣٥٨)، وابن حبان (٥ / ٧٢)، والبيهقي، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه ابن تيمية في «الفتاوىٰ» (٢٤ / ٣٦٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٢ / ٤١٧) وقال أحمد شاكر في «المسند»: (٨٤٣٠): إسناده صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٨٥).
وأخرجه من حديث حسان بن ثابت ابن ماجة رقم (١٥٧٤)، وأحمد في «المسند» (٣ / ٤٤٢، ٤٤٣). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣ / ٣٤٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (٣٥٩١)، والحاكم في «المستدرك» (١ / ٣٧٤). والبيهقي (٤ / ٧٨). قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١ / ٥١٦): إسناده صحيح ورجاله ثقات.

إسناده أحمد شاكر في تحقيق المسند برقم (٢٠٣٠، ٢٦٠٣، ٢٩٨٦، ٣١١٨)، وكذا في شرحه على الترمذي، وهو من رواية أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس، وقد اختلف فيه، وقد رجح الشيخ أحمد شاكر توثيقه، وأجاب عن الطعن فيه.

وللحديث شواهد؛ حيث رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وعن حسان، فهو حديث مروي عن جماعة من الصحابة، ودلالته واضحة في نهي النساء عن زيارة القبور، وقد رجح ابن القيم في حاشية سنن أبي داود رواية المنع مطلقاً لصحة أحاديث النهي، ولورود اللعن على ذلك، وهو يقتضي الإثم والذنب الكبير.

ومما يدل على النهي والمنع لهن الحديث الذي فيه قوله ﷺ: **«أرجعن مأزورات غير مأجورات»**، وزاد في بعض الروايات: **«فإنكن تفتن الأحياء وتؤذين الأموات»**[1].

وهكذا الحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن، أن النبي ﷺ قال لفاطمة: **«لو بلغت معهم الكدى ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك»**[2]، والمراد بالكدى أدنى المقابر.

وقد أجاب ابن القيم عن أحاديث الإذن بأنها خطاب للرجال.

ومن استدل بهذا الحديث من أجاز لهن الزيارة فلا دلالة فيه لوجود

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (١٥٧٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ١٠٢)، وأبو يعلى في المسند (٤٠٥٦).

قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣١): رواه أبو يعلى، وفيه الحارث بن زياد، قال الذهبي: ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣١٢٣)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٨، ١٦٩)، والنسائي (٤/ ٢٧) رقم (١٨٧٨)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٦٧٤٦).

وقال أحمد شاكر في تحقيق المسند (٦٥٧٤): إسناده حسن.

الاحتمالات الظاهرة، فالمنع هو الأصل للوعيد الشديد لهن على الزيارة، وهو يعم مسمى الزيارة قليله أو كثيره، وعلل ذلك بعدم صبرهن، وضعفهن، فيخشى من صدور ندب ونياحة وجزع، ونحو ذلك من أمور الجاهلية.

* **وأما لعن المتخذين عليها المساجد**: فالمراد من يتحرى الصلاة عندها، وذلك مخافة الاعتقاد فيها، مما يجر إلى عبادة الأموات، ودعائهم من دون الله تعالى، وهو يعم البناء عليها، أو دفن الميت في المسجد، أو بناء المساجد على القبور لقصد التبرك بالميت، واعتقاد أن تربته تؤل إلى كثرة الخير، وزيادة الأجر، أو قبول الصلاة عنده، ومضاعفة أجرها، أو تسببه في رفع العبادة، وذلك بلا شك تعظيم للمخلوق، ووسيلة إلى صرف شيء من العبادة له، وهي خالص حق الله تعالى.

* **وأما السرج**: فالمراد بها المصابيح المضيئة بالليل، وكذا الشموع والقناديل، ويلحق بها أيضاً الإضاءة الكهربائية، والمعنى: أنه لا يجوز تخصيص قبر بجعل السراج عليه طوال الوقت، فإن الجهال متى رأوا ذلك اعتقدوا أن هذا الميت له خصوصية ومزية على سائر الأموات حوله، فدعاهم ذلك إلى تعظيمه والغلو فيه، والعكوف حول قبره، ثم دعائه مع الله، وطلب الشفاعة منه، مما هو شرك ظاهر أو وسيلة إلى الشرك.

ولا يدخل في ذلك الإضاء الكهربائية العامة في المقابر، فإن القصد مها إنارة الطريق لمن زار القبور ليلاً، أو لمن أراد دفن ميت أو تشييعه بالليل، وذلك مقصد حسن، خال عن المحذور الذي هو تخصيص أحد القبور بالإسراج عليه طوال الليل، لما ذكرنا من التعليل، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

[٢١]

باب:
ماجاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات.

وعن علي بن الحسين، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»، رواه في المختارة.

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلي في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل، وسلامه عليه يبلغه، وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

■ ■ ■ ■ ■

الشرح

باب:
ماجاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

هذا الباب عقدة المؤلف رحمه الله لبيان أن النبي ﷺ نهى أمته عما يوقعهم في الشرك، حتى أنه نهى عن اتخاذ قبره وثناً يعبد، وقد تقدمت أحاديث كثيرة فيها حمايته ﷺ لجناب التوحيد، وسده الطرق الموصلة إلى الشرك، ومن ذلك؛ تحذيره لهم أن يتخذوا القبورمساجد، حذّر من ذلك في آخر حياته، وأخبر بأن الذين يفعلون ذلك شرار الخلق، ولعن اليهود والنصارى، وهو في سياق الموت، يحذّر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره.

وكذلك من حمايته لجناب التوحيد تحذيره أن يتخذ قبره مزاراً بمنزلة العيد الذي يعتاد مجيئه ويتكرر، في قوله: «**لا تجعلوا قبري عيداً**»[(١)]، أي: لا تكرروا المجيء إليه، وتجعلوه فرضاً لازماً كالعيد الذي يعود كل عام، وذلك كله من حمايته لجناب التوحيد.

والمراد بجناب التوحيد: يعني: جرمه وماهيته، أو جوانبه وحافاته وأطرافه التي تحيط به من كل جانب، أي: أنه حافظ على التوحيد أتم المحافظة.

وحمايته؛ أي: جعل له حمى.

والحمى هو: الشيء الذي يحمى من الانتهاك، ومنه المراعي التي تحمى؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «**ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله**

---

(١) سيأتي تخرجه قريباً في هذا الباب.

محارمه»[١]، بعد قوله: «**كالراعي يرعى حول الحمى**»، فالراعي يرعى حول الحمى؛ أي: حول الأرض المحمية.

فكذلك التوحيد له حمى، حتى لا يقع الناس فيما يقدح في التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك؛ سواء طرق الشرك الحسية، أو طرق الشرك المعنوية.

ولكن المراد هنا: طرق الشرك المعنوية، التي متى فعلها الناس فإنهم يقعون في الشرك أو وسائل الشرك.

* **ومن الطرق التي توصل إلى الشرك**: شد الرحال إلى القبور، واعتياد ذلك، وكذلك جعل القبور أعياداً؛ بحيث يعتاد مجيئها ويتكرر.

* **ومن الطرق التي توصل إلى الشرك أيضاً**: اتخاذ القبور مساجد، وإسراج القبور وإضاءتها، ورفع القبور وتشييدها، وتجصيصها والبناء عليها، وما أشبه ذلك، فإن هذه كلها من طرق الشرك التي إذا توسع الناس فيها في بادئ الأمر أوقعهم ذلك في النهاية في الشرك بالله.

وقد لا يكون أول الأمر شركاً؛ يعني: لا يقعون في الشرك متى بنوا على القبور، وقد لا يشرك الذين بنوا على القبر، ولم يقصدوا تعظيمه ولا دعاءه، ولكن يصير فتنة لغيرهم، فمتى رأى غيرهم هذا القبر مشيداً ومجصصاً ونحو ذلك، اعتقدوا فيه وزاروه، وتمسحوا به، ودعوا صاحبه، أو متى رأوا هذا القبر مسرجاً طوال الليل دون غيره من القبور، اعتقدوا فيه، وإن لم يكن الذي أوقد السراج يعتقد ذلك، أو لم يشرك بالله عز وجل، ولكنه صار سبباً.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢)، ومسلم برقم (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

* كذلك الذي يزور القبر النبوي، أوغيره كل أسبوع، ويفعل ذلك قصداً للقبر نفسه، فإن هذا أيضاً من وسائل الشرك، وإن لم يقصد تعظيم القبر، لكنه قد يؤدي في النهاية إلى الاعتقاد السيء أن لصاحب القبر ميزة، وأن له فضيلة تؤدي إلى أنه يُعطى شيئاً من حق الله، فيدعى مع الله، أو يطاف به، كما يطاف ببيت الله، أو ما أشبه ذلك، فهذا ونحوه من حمايته ﷺ لجناب التوحيد.

* **ومن طرق الشرك أيضاً**: التي سدها عليه الصلاة والسلام الغلو، بقوله: **«إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»**(١).

* **ومن طرق الشرك أيضاً**: زيادة مدح الرسول ﷺ، وإطراؤه، وإعطاؤه شيئاً لا يستحقه، وقد نبه على ذلك ﷺ بقوله: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»**(٢).

* **كذلك من طرق الشرك**: التردد على القبر الشريف لمزية في نفس القبر، واتخاذه عيداً، لذلك نهى عنه في هذه الأحاديث الصريحة.

■ **قوله: [وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [التوبة: ١٢٨]]:

أمرنا الله تعالى أن نقتدي بالرسول ﷺ، ونطيعه، وجعل طاعته من طاعة الله، فقال سبحانه: **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء: ٨٠]، ومتى أطعناه فإننا صادقون في محبته، وإذا جاءنا أمره وعصيناه، فلسنا صادقين في ادعائنا محبته.

---

(١) سبق تخريجه في الباب الثامن عشر (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو).

(٢) سبق تخريجه في الباب الثامن عشر (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو).

لقد وصف الله تعالىٰ الرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة من آخر سورة التوبة، بهذه الصفات التي تقتضي شفقته علىٰ الأمة، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: منكم، ومن جملتكم، أي: بشر مثلكم، أو من قبيلتكم، أو من جنس بني آدم، ولم يكن من الملائكة، ولا من الجن، أو نحوه، بل هو بشر مثلكم تتمكنون من مخاطبته، وتعرفون حسبه ونسبه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يعني: أن من صفاته أنه يشق عليه الشيء الذي يكلفكم، وقوله: (عزيز): يعني: صعب وشاق، لا يريد الشيء الذي يعنتكم، والعنت، بمعنىٰ: الصعوبة والشدة والقسوة، يعني: لا يحب ما يصعب عليكم، ويشق عليه صعوبتكم، فلا يريد تكليفكم بشيء تعجزون عنه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ يعني: حريص علىٰ هدايتكم: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: رؤوف بهم؛ بمعنىٰ: أنه شفيق عليهم.

فالحاصل أن الله وصفه بهذه الصفات الأربع:

- **الأولى**: أنه يشق عليه الشيء الذي يكلف أمته، ويصعب عليها.
- **الثانية**: أنه حريص علىٰ هدايتهم أيما هداية.
- **الثالثة**: وصفه بالرحمة.
- **الرابعة**: وصفه بالرأفة، والرحمة والرأفة متقاربان في المعنىٰ.

وهذه الأوصاف تقتضي منا أن نطيعه، وألا نخالفه؛ فإذا نهانا أن نتخذ قبره عيداً، فذلك من شفقته علينا، وكونه دعا الله ألا يتخذ قبره وثناً يعبد؛ فذلك من خوفه علىٰ أمته، وإذا لعن الذين يتخذون القبور مساجد؛ ليحذر أمته مما وقعت

فيه اليهود والنصارىٰ، أو نهىٰ عن ذلك، أو أخبر بأنهم شرار الخلق عند الله، فذلك من شفقته علىٰ أمته أن لا يقعوا في هذا الذنب العظيم، وإذا نهىٰ عن إطرائه، أو الغلو في الدين، فذلك من نصحه لأمته، ومن محبته لنجاتهم، وكذلك إذا لعن زوارات القبور، أو لعن الذين يسرجون القبور، فذلك كله من نصحه البليغ لأمته.

ومتىٰ عرفنا نصحه لأمته لنجاتها فلنحقق هذه النجاة، ومن تحقيقها أن نعمل بهذه الإرشادات، فنبتعد عن الأشياء التي تكون سبباً للوقوع في الشرك الذي حذر عنه، والذي قامت دعوته من أول ما قامت علىٰ التحذير من الشرك، من أول ما بعث إلىٰ أن توفي وهو يدور حول تحقيق التوحيد وتكميله، والتحذير من أسباب الشرك ووسائله.

والله تعالىٰ أمرنا أن نطيعه، كما في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]؛ فجعل الرحمة مترتبة علىٰ طاعته ﷺ.

وكذلك أمرنا أن نتأسىٰ به، بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ بمعنىٰ: أنه قدوتكم، فافعلوا كأفعاله، وهو عليه الصلاة والسلام كان حرباً علىٰ هذه البدع المتعلقة بالقبور، والتي هي وسائل من وسائل الشرك.

فالحاصل أن هذا الباب معقود لبيان حرصه عليه الصلاة والسلام علىٰ النصيحة لأمته ونجاتها، وأن من جملة ذلك حرصه ألا يتخذوا قبره عيداً، أو نحو ذلك، وبطريق الأولىٰ قبورغيره ممن هو دونه.

■ قوله: [عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[١]، رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات]:

بين النبي ﷺ في هذا الحديث بعض الأمور، فمن ذلك:

* أولاً: قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»:

وقعت هذه الجملة في حديث أبي هريرة، وفي حديث علي بن الحسين، ولهما شواهد، ذكر بعضها الشارح في تيسير العزيز الحميد، واتفق الشراح على أن المراد: أن لا تهجروا بيوتكم من الصلاة، فتجعلوها بمنزلة القبور، وكأنه تقرر عندهم أنه لا تجوز الصلاة في المقابر، أي: لا يتحرى الإنسان أن يصلي عند القبور، وليس ذلك لنجاستها بصديد الموتى، كما قال ذلك بعض المشايخ، وإنما هو خوف الغلو فيها بدعاء الأموات، والإشراك بهم، كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[٢].

فكأنه يقول: إذا هجرتم بيوتكم، ولم تصلوا فيها أية صلاة، كانت بمنزلة القبور التي لا يصلى فيها، وهذا ليس بمستحب؛ بل اجعلوا فيها شيئاً من عباداتكم.

---

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٣٦٧)، وأبو داود رقم (٢٠٤٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢ / ٢٥٦)، وصححه النووي في «الأذكار» رقم (٩٧)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء» (٢ / ٦٥٤): إسناده حسن ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع الصائغ الفقيه صاحب مالك فيه لين، لا يقدح في حديثه أ. هـ.

وحسنه ابن حجر كما في «الفتوحات» (٣ / ١٣٣)، والسخاوي في «القول البديع» ص (١٥٥)، وحسنه الألباني في «تحذير الساجد» ص(٩٦).

(٢) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص(٣٣٢، ٣٣٣)، تحقيق محمد حامد الفقي.

وقد ورد ذلك في بعض الأحاديث مصرحاً به أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً**»[(١)]، أي: لا تقطعوها من الصلاة فيها فتكون بمنزلة القبور.

والمراد هنا: صلاة النوافل التي هي رواتب الصلوات: كسنة الفجر، وسنة الظهر قبلها، أو بعدها، وسنة المغرب بعدها، وسنة العشاء بعدها، وصلاة الليل، والوتر، وصلاة الضحىٰ، والتهجد، وما أشبه ذلك، فإن الأفضل أن تكون في البيت، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»[(٢)]، والمكتوبة هي: الفريضة، فإن الفريضة يلزم أن تؤدىٰ في المساجد التي بنيت لها، ولا يجوز للرجال فعل الفريضة في المنزل إلا لعذر شرعي.

فأما النوافل: فالأفضل أن تكون في البيت، وذلك فيه فوائد:

أولاً: أن يعمر البيت بذكر الله، ولا يخلو البيت من ذكر الله، وإقامة شعائر الله وعبوديته.

ثانياً: أنه متىٰ عمر بالذكر، فإنه يكون مطردة للشياطين، ومأوىٰ للملائكة والخير.

ثالثاً: أنه يكون قدوة حسنة للزوجة، والصغار، ولأهله إذا رأوه يكثر من النوافل؛ اقتدوا به في هذه النوافل فأكثروا منها.

ورابعاً: تعليم الأهل والذرية كيفية الصلاة، فقد يكون بعض الأولاد، أو

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٣٢)، ومسلم برقم (٧٧٧)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٣١)، ومسلم برقم (٧٨١)، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

بعض النساء لا يحسن الصلاة، فلا يعرف مثلاً صفة الركوع الصحيح، أو صفة السجود الصحيح، فإذا صلىٰ ولي أمرهم أمامهم في البيت اقتدوا به وتعلموا صفة الصلاة، كما جاءت عن النبي ﷺ.

وخامساً: أنه يكون أقرب إلىٰ الإخلاص، وأبعد عن الرياء، فإن الذي يصلي مثلاً في المسجد قد يدخله شيء من الإعجاب، وقد يزيد في صلاته لأجل نظر أحد إليه، أو ما أشبه ذلك.

لكن علىٰ كل حال هذا جائز، أي: أن يصلي في بيته، وأن يصلي في المسجد، لأن المسجد محل للصلوات، لكن متىٰ تيسر له أن يجعل صلاة النوافل أو بعضها في البيت، فهو أفضل؛ لأنه ورد في حديث: «**اجعلوا من صلاتكم**»[1] أي: بعضاً منها.

* **ثانياً: قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً»:**

العيد: اسم لكل ما يتكرر ويعود، إما بعود السنة، أو الشهر، أو الأسبوع من الاجتماع العام، والغالب أنه يعود بفرح وبسرور، ولكنه في الحديث أطلق، فقال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»؛ سواء كان عيداً يقترن به اجتماع عام، أو خاص، أونحو ذلك، الكل منهي عنه في هذا الحديث

والعيد هو: اسم لما يعود ويتكرر؛ فمثاله: عيد الأسبوع وهو يوم الجمعة، سميت بذلك؛ لأنها تعود كل أسبوع فتسمىٰ عيد الأسبوع.

والأعياد الإسلامية في السنة عيدان: هما عيد الفطر وعيد الأضحىٰ، يسمىٰ

---

(١) سبق تخريجه قريباً في هذا الباب.

كل منهما عيداً من العَوْدِ، وهو التكرار، وسمي عيداً؛ لأن الناس يغتبطون فيه، ويجتمعون، ويظهرون الفرح والسرور بإكمال عباداتهم.

ففي عيد الفطر يسرون ويفرحون بإكمال شهرهم، وتوفيقهم لصيامه، وقيامه، وإخراج زكاة فطرهم.

وفي عيد الأضحى يسرون ويفرحون أيضاً بإكمال عباداتهم في عشر ذي الحجة؛ من صيام، وذكر وصدقة، وأضاحي ونحو ذلك، فيظهر لهم بذلك سرور.

وقد تقدم لنا أن أهل الجاهلية كان لهم أماكن يجتمعون فيها سنوياً، ويسمون ذلك الاجتماع عيداً من أعيادهم، للحديث الذي جاء فيه الرجل الذي نذر أن ينحر إبلاً ببوانة، قال له النبي ﷺ: «**هل فيها عيد من أعيادهم**»[1]، قالوا: لا، أي: هل يجتمع الجاهليون فيها كل سنة مرة، أو كل شهر، أو كل نصف سنة، أو أكثر أو أقل، ويحتفلون به أم لا؟

فدل على أن الاجتماع والاحتفال بذلك المكان يسمى عيداً، فالنبي ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»؛ أي: لا تجعلوه مزاراً ومعتاداً تجتمعون فيه، وتحتفلون به، مخافة أنهم متى فعلوا ذلك وقعوا في الغلو الذي هو طريق من طرق الشرك، وحذرهم أيضاً أن يرفعوا قبره ومقامه لكي لا يصبح وثناً من الأوثان المعبودة، لذلك قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**»، وقد نُهي أيضاً عن التشبه بأعياد الكفار.

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان لهم عيدان يحتفلون فيهما، ويلعبون ويسرون ويفرحون، فأبدلهم الله بهذين اليومين عيدي الفطر والأضحى، وأصبحتا هما

(١) سبق تخريجه في الباب العاشر (باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله).

عيدا الإسلام.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**يوم الفطر ويوم الأضحى، وأيام التشريق، عيدنا أهل الإسلام**»(١)؛ يعني: أيام العيد.

وما دمنا عرفنا أن العيد هو الذي يحصل به اغتباط وسرور فإن المسلم قد يعد السنة كلها عيداً إذا كانت أيامه اغتباط بطاعة ربه وسروراً به.

وفي ذلك يقول بعضهم:

عيدي مقيم وعيد الناس منصرف

والقلب مني عن اللذات منحرف

ولي قرينان مالي منهما خلف

طول الحنين وعين دمعها يكف

فقوله: (عيدي مقيم)؛ بمعنى: أن السنة كلها لي عيد.

وإذا كان الأصل أن العيد يكون فيه احتفال، ويغتبطون به، ويسرون ويبتهجون، فقد يكون بعضهم بخلاف ذلك؛ فقد أثر عن بعضهم أنه كان أيام العيد يُرى عليه الحزن، والخوف؛ ورؤي بعضهم يبكي في يوم عيد، فأنشد قوله:

---

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٥٢)، وأبو داود برقم (٢٤١٩)، والترمذي برقم (٧٧٣)، والنسائي برقم (٣٠٠٤). عن عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عندنا أهل الإسلام».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال شعيب الأرناؤوط في «تحقيق شرح السنة» (٦ / ٣٥١): إسناده صحيح، وقال عبد القادر الأرناؤوط في «تحقيق جامع الأصول» رقم (٤٥٠٠): إسناده حسن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨١٩٢).

سـرور العيـد قـد عم النواحي
وحـزني في ازدياد لا يبيـد
لئن كنت اقـترفت خـلال سوءٍ
فـعـذري في الهـوى أن لا أعـود

وبهذا يعرف أن النهي عن اتخاذ القبر عيداً لا يلزم أن يكون اجتماعاً عاماً يحصل به احتفال وفرح واغتباط، بل يدخل في ذلك الزيارة الفردية التي يحصل بها هذا المقصود.

فالحاصل أنه ﷺ نهى عن أن يتخذ قبره عيداً نهياً صريحاً: **«لا تتخذوا قبري عيداً»**؛ فدل على أن من اعتاد المجيء إلى القبر الشريف، وجعل ذلك ديدنه وعادته؛ فإنه قد خالف هذا الحديث الصريح: **«لا تتخذوا قبري عيداً»**.

أما زيارته تابعاً فهذا جائز، يعني: إذا أراد شخص الذهاب للمدينة فإنه ينوي زيارة المسجد النبوي الشريف، فقد يزور المدينة زائر فيذهب إلى المسجد الشريف الذي تضاعف فيه الصلاة، ولا تكون نيته زيارة القبر، فإذا جاء المسجد وصلى فيه فيمكنه أن يزور القبر، ويسلم على الرسول ﷺ، وصاحبيه، ويُسرّ بزيارته للمسجد، وبصلاته فيه، علماً بأنه لو صلى أو سلم على النبي ﷺ في أي مكان وفي أي زمان، فإن صلاته وسلامه على النبي تصل إليه ﷺ.

*** ثالثاً: قوله: «وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»:**

وهذا إخبار منه ﷺ بأن الصلاة والسلام عليه تصله مهما كان موقع من يسلم عليه، ويصلي عليه، في أي مكان في مشارق الأرض ومغاربها، فإنه يصل إليه صلاته وتسليمه، وفي هذا دليل على فضل الصلاة والسلام على الرسول ﷺ.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن هناك من يبلغه، يقول ﷺ: **«إن في الأرض ملائكة**

سياحين يبلغونني من أمتي السلام»(١) ، أي : إذا قلت : عليك السلام يا رسول الله ، أو : السلام عليك أيها النبي ﷺ، وما أشبه ذلك ، فإن هناك من يبلغه من أمته السلام .

وهو أيضاً بدوره يرد السلام ، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال : «**ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام**»(٢) ، فنحن متى سلمنا عليه في أي مكان فإن ذلك يبلغه من قريب أو من بعيد .

■ **قوله : [وعن علي بن الحسين ، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي ، عن جدي ، عن رسول الله ﷺ ؟ قال : «لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم»(٣) ، رواه في المختارة]** :

ذكروا أن عليًّا بن الحسين لما نصح ذلك الرجل الذي رآه يجيء إلى تلك

---

(١) أخرجه النسائي (٣/ ٤٣)، وأخرجه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ »، وصححه الألباني فيه، ص٣٤، وقال ابن القيم في «جلاء الأفهام» ص٢٣ : وهذا إسناد صحيح .

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٥٢٧)، وأبو داود برقم (٢٠٤١). والبيهقي في سننه (٥/ ٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسن الألباني إسناده في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٢٦٦)، والمشكاة رقم (٩٢٥)، «والسلسلة الضعيفة» رقم (٢٠١).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» رقم (٤٢٨)، وأبو يعلى في «المسند» رقم (٤٦٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» رقم (٦٧٢٦). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢ / ٣٧٥).
قال الهيثمي في «المجمع» (٤ / ٣): رواه أبو يعلى وفيه جعفر بن إبراهيم الجعفري، وذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وبقية رجاله ثقات أ . هـ.
ويشهد له الحديث الذي قبل هذا الذي ذكره «المصنف»، وقال في «فتح المجيد» (١ / ٤٢٨): هذا الحديث والذي قبله جيدان، حسنا الإسنادين.
وأخرجه إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ»، وصححه الألباني فيه ص٣٤ .

الفرجة، ورأىٰ كأنه اعتاد أن يلجأ إلىٰ تلك الفرجة يومياً أو أسبوعياً، وهي فرجة كانت في الحجرة النبوية، فيدخل رأسه فيها ثم يتكلم بكلام أو نحوه، وتكرر هذا منه، فلما رآه علي بن الحسين، دعاه وهو في أحد بيوته، فلما دخل عليه وجده يتعشىٰ، فقال: هلم إلىٰ العشاء، فقال: لا أريده، فقال: لماذا رأيتك تدخل إلىٰ الحجرة، وتدخل رأسك في الفرجة؟ فقال: أسلم علىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء.

أي: سلم عليه أينما كنت، فإنك إن سلمت من قرب، أو من بعد، فكل ذلك سواء، ومثّل بالأندلس؛ لأنه من أبعد الأمكنة التي دخلها الإسلام في ذلك الوقت.

والأندلس: هو الذي يسمىٰ الآن أسبانيا وما يتصل به، فيقول: لو أنك في ذلك المكان وسلمت عليه، لبلغه سلامك، أو صليت عليه لبلغته صلاتك، وكذلك إذا كنت عنده أو في مسجده، الجميع يبلغه، ويكتب لك الأجر، وهذا معنىٰ قوله: «**وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»، أو: «**فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم**».

فقد تبين من هذه الأحاديث أهمية وحرص النبي ﷺ علىٰ كل ما يبعد أمته عن أسباب الشرك، ووسائله، حيث نهاهم عن أن يترددوا إلىٰ قبره حتىٰ يجعلوه كالعيد المعتاد، بل أمرهم أن يصلوا عليه في أي مكان، وأن صلاتهم تبلغه أينما كانوا، وكذلك عرّفهم بأن الصلاة عند القبور لا تجوز، وأن البيوت محل للصلوات، فلا تجعل مهجورة كالقبور التي لا يصلىٰ فيها.

ففي الحديث الأول والثاني نهيه لهم عن اتخاذ القبر عيداً مخافة الغلو فيه

والذي يوقعهم في الشرك، وهو وسيلة وسبيل من أسباب الشرك.

وفي الحديث الثاني الثالث نهاهم أن يرحل أحدهم من أجل الصلاة عليه، أو من أجل السلام عليه عند القبر، أو الاعتقاد أنه لا يسمعه أو لا يبلغه الصلاة والسلام إلا إذا وصل إليه، وكل ذلك مع كونه مشتملاً على الإكثار من الصلاة والتسليم عليه، لكنه نهاهم عما يوقعهم في الشرك، أو في نوع من أنواع ا لغلو، الذي هو من وسائل الشرك.

■ ■ ■ ■ ■

[٢٢]

باب:

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»، أخرجاه.

ولمسلم، عن ثوبان: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم

بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً».

ورواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فئام من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

■ ■ ■ ■ ■

• فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: وهي أهمها مامعنى الإيمان بالجبت والطاغوت: هل هو اعتقاد قلبي؟ أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: وهي المقصودة بالترجمة: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها: أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة وأن الرسول ﷺ حق وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية، كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلىٰ قيام الساعة .

الثانية عشرة: ما فيهن من الآيات العظيمة .

منها : إخباره بأن الله زوىٰ له المشارق والمغارب ، وأخبر بمعنىٰ ذلك ، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال .

وإخباره بأنه أعطي الكنزين .

وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين .

وإخباره بأنه منع الثالثة .

وإخباره بوقوع السيف ، وأنه لا يرفع إذا وقع .

وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً ، وسبي بعضهم بعضاً ، وخوفه علىٰ أمته من الأئمة المضلين .

وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة .

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة .

وكل هذا وقع كما أخبر مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول .

الثالثة عشرة: حصر الخوف علىٰ أمته من الأئمة المضلين .

الرابعة عشرة: التنبيه علىٰ معنىٰ عبادة الأوثان .

■ ■ ■ ■ ■

●● الشرح ●●

باب:
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

لاشك أن عبادة الأوثان شرك بالله، وأنها وقعت في الأمم السابقة الذين أرسلت إليهم الأنبياء، ليحذروهم من عبادتها، واعترفوا بأنهم يعبدون أوثاناً، كما قال الله تعالىٰ عن إبراهيم، أنه قال لقومه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠، ٧١]، اعترفوا بتسميتها أوثاناً، وأصناماً.

والوثن: قيل: هو اسم لكل ما عبد من دون الله؛ سواء له صورة، أم ليس له صورة.

والصنم هو: المعبود الذي له شكل، وهيكل، وصورة، وقد يسمىٰ كل منهما وثناً وصنماً.

وقد كان للمشركين قبل الإسلام أصنام وأوثان كثيرة يعبدونها بأنواع من العبادات، ثم محيت بالرسالة الإسلامية المحمدية، وكان ذلك من نعمة الله عليهم، ولكن مما يؤسف له أن يقع في هذه الأمة من يرجع إلىٰ عبادة الأوثان، ومن يقع منه شيء من الشرك، ولو لم يعترف بأنه شرك، ولو لم يعترف بأنه وثن، لكن العبرة بما في نفس الأمر، لا بما يقوله هو، أويعتقده هو.

وقد وقع في هذه الأمة عبادة الأوثان، ولكنهم لم يسموها أصناماً، ولم يسموها أوثاناً، إنما سموها مثلاً: مشاهد، المشهد الفلاني، والمشهد الفلاني، وعملوا عندها ما يعمله المشركون عند أصنامهم، وقد يسمونها: مزارات، أي: المزار الفلاني حتىٰ لا تشبه أسماء الأصنام، ولكن العبرة في الحقيقة بالمسمىٰ لا

بالاسم، والمرجع إلى الأعمال التي تعمل عندها، فإذا بحثنا عن أعمالهم التي يعملونها عندها، وجدناها مطابقة لأعمال الأولين عند أصنامهم، فنقول لهم: قد أشركتم، وقد عبدتم غير الله، وقد اتخذتم هذه المعبودات أصناماً شئتم أم أبيتم، فسموها بما تيردون، فإن العبرة بما في نفس الأمر.

الأولون الذين اتخذوا أوثاناً وأصناماً كانوا يذبحون لأصنامهم، وهؤلاء يذبحون لهذه المزارات ولهذه المشاهد.

والأولون يطوفون بتلك الأوثان، وهؤلاء يطوفون بهذه القبور، التي يسمونها مزارات، ومشاهد، وقبور صالحين، وأولياء وسادة، ونحو ذلك.

والأولون يعكفون عند أصنامهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾، والمتأخرون يعكفون عندها، أي: يطيلون الإقامة عندها، فأصبحت أصناماً حقيقة، ولو لم تسم بذلك، حيث أنه يعكف عندها كما يعكف عند تلك الأصنام، ويطيلون الإقامة حولها.

والأولون يدعون تلك الأصنام مع الله، أو يدعونها من دون الله، وهؤلاء يدعون أولئك السادة وأولئك الأولياء، بقولهم: يا ولي الله، يا فلان، أنجنا، أعطنا، انصرنا، هب لنا ولداً صالحاً، هب لنا رزقاً، ونحو ذلك، فأصبحت أصناماً وأوثاناً، ولو لم يسموها باسم الوثن؛ فالعبرة بما في نفس الأمر.

كذلك الأولون يحلفون بأوثانهم كقولهم: واللات والعزى، وهؤلاء يحلفون بساداتهم، كقولهم، والسيد فلان، والولي، وما أشبهه، فقد اتخذوهم أوثاناً شاءوا أم أبوا.

فتبين بذلك أنه قد وقع في هذه الأمة شرك، ولو لم يسموه شركاً؛ حيث أنه

موافق ومطابق لشرك الأولين.

وقد أخبر الله تعالىٰ عن الأولين أنهم وقع فيهم الشرك، ولابد أن يقع في هذه الأمة مثل ما وقع في الأمم قبلها.

قد يقول هؤلاء: هذا ليس بشرك.

قلنا: لماذا لا يكون شركاً؟ أليس فعل هؤلاء وفعلكم سواء؟ فما دام الفعل متساوياً؛ فالحكم واحد.

وقد يقولون: إن من فضل هذه الأمة أن لا يقع فيها شرك، وقد يستدلون بحديث مروي بلفظ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب**»(١)، وهذا الحديث بهذا اللفظ فيه ضعف، وعلىٰ فرض صحته فلا يلزم من أن الشيطان يئس أن يُعبد أن يكون يأسه محققاً أو موافقاً، فإن الشيطان قد رأىٰ في صدر الإسلام قوة المسلمين، وشوكتهم، وتمسكهم، وتصلبهم، فيئس، ولكنه لا يعلم الغيب، فعاد إليه الرجاء بعدما حصل منه اليأس، ولا يلزم أن يكون يأسه موافقاً لما في نفس الأمر، فلا يكون في هذا دليل علىٰ أنه لا يقع في هذه الأمة عبادة للأوثان.

فعلىٰ كل حال لاشك أن عبادة الأوثان قد وقعت في هذه الأمة كما وقعت في الأمم قبلها، وأن الحكم الذي حُكم به علىٰ الأولين بالشرك ينطبق علىٰ المتأخرين سواء بسواء.

فإذا كان الأولون مشركين لكونهم عبدوا تلك المعبودات التي هي أوثان بتلك الأنواع من العبادات، فحلت بذلك أموالهم ودماؤهم، بعدما تقوم عليهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٦) بهذا اللفظ ضمن حديث طويل، وأيضاً أورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٠ ـ ٥٢)، وقد ضعفه العلامة الألباني في ضعيف الترغيب.

الحجة، وجاز أو شرع قتالهم إلىٰ أن يرجعوا ويتركوا ذلك الشرك، وحكم بأنهم إذا ماتوا مشركين فإنهم من أهل النار، ولا يغفر لهم؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فهذا الحكم ليس خاصاً بالمشركين الأولين، الذين في الجاهلية، أو في عصر النبوة، بل هو أيضاً منطبق علىٰ المشركين في زماننا، والمشركين في كل زمان.

*** والمراد بقوله في عنوان الباب: (ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان):**

كلمة الأمة تطلق علىٰ أمة الإجابة، وعلىٰ أمة الدعوة.

● **أمة الدعوة:** الخلق كلهم فإنهم داخلون في وجوب الدعوة؛ أي: مدعوون إلىٰ اعتناق هذه الرسالة، وإلىٰ اتباع هذا النبي، وهم من أمة محمد ﷺ، أي: أنهم من جملة من كلفوا أن يدخلوا في دينه، سواء كانوا هوداً، أو نصارىٰ، أو مجوساً، أو وثنيين، أو منافقين عرباً وعجماً، من أي طبقات بني آدم، ومن أي لغاتهم بعيداً أو قريباً، كلهم داخلون في أمة الدعوة؛ فيلزم أن يدخلوا في الإسلام وتعمهم دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام.

● **أما أمة الإجابة:** فالمراد بهم الذين استجابوا للرسول عليه الصلاة والسلام ودخلوا في طاعته، واتبعوه، وتسموا بأنهم من أمته، سواء تسمياً مطابقاً، أو تسمياً ظاهراً.

هؤلاء أمة الإجابة الذين يتسمون بأنهم مسلمون، ولو تفرقت نحلهم، ومعتقداتهم، ولو قال هؤلاء: إننا معتزلة، وهؤلاء: إننا شيعة، وهؤلاء: إننا إسماعيلية، وهؤلاء: إننا كذا وكذا، الكل يقولون: نحن من أمة محمد المستجيبين له، فهؤلاء يسمون أمة الإجابة.

والشرك قد وقع في أمة الدعوة بلا شك، ووقع أيضاً في أمة الإجابة كثيراً، فهناك أناس يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقرأون القرآن، ويصدقون به، ويؤمنون بالبعث، ويصلون ويصومون، ولكنهم وقعوا في الشرك، فعبدوا الأوثان، ولكنهم لا يعترفون بأن هذه أوثان، ولا بأن هذا شرك، ولا بأن أفعالهم عبادة، إنما لبس عليهم الشيطان، وغيروا أسماء الحقائق وسموا الأصنام والأوثان بأسماء مرتجلة أو مستحسنة في نظرهم حتى لا ينكر عليهم، فيسمون أفعالهم تقرباً، أو يسمونها توسلاً، أو يسمونها تبركاً، أو يسمونها استشفاعاً، أوما أشبه ذلك، ولكنه في الحقيقة شرك، وعبادة غير الله شرك؛ حيث إنهم جعلوهم شركاء لله في استحقاق العبادة، وعبادة حيث إنهم عبدوهم؛ يعني: ذلوا لهم وخضعوا وتواضعوا بين أيديهم، فأصبحوا مشركين.

فتحققنا بذلك، أنه وقع في هذه الأمة من يعبد الأوثان، وتدل على ذلك أيضاً النصوص التي ذكرت في هذا الباب.

■ **قوله**: [**وقول الله تعالى**: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ [النساء: ٥١]]:

المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، ذكر الله أنهم: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾.

والجبت: السحر.

والطاغوت: الشيطان.

أو الجبت: كل شيء فيه فشل ولا خير فيه.

والطاغوت: هي الأوثان، كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن**

يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]؛ يعني: الأوثان.

وسمي الوثن طاغوتاً، لأنه تجاوز حده، فالطاغوت: ما تجاوز به العبد حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع، ولهذا ذكر الله أن الكفار يعبدون الطاغوت، وأن أولياءهم الطاغوت، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فإذاً اليهود قد عبدوا الطاغوت، أي: عبدوا الأوثان، وعبدوا الطواغيت الذين هم السحرة والكهنة ونحوهم، فتبين بذلك أن اليهود والنصارىٰ قد وقع فيهم عبادة الأوثان.

■ قوله: [وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]]:

فهؤلاء أيضاً أهل الكتاب من يهود ونصارىٰ، فإن اليهود فيهم من مسخ قردة وكذلك في النصارىٰ من مسخ خنازير، فلذلك قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، يعني: وجعل منهم من عبد الطاغوت.

والمعنى: أن الله أمر نبيه أن يخبرهم بأشياء فعلوها، وكانوا بها شراً من المسلمين، ومما عليه المسلمون، لما ذكر الله أنهم يستهزئون بالمسلمين، فقال عنهم: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]، هذا من أعمالهم السيئة، أنهم يستهزئون بالنداء والصلاة، قال الله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾، بشر من أعمالنا التي نحن عليها، وبشر منا نحن: أنتم يا أهل الكتاب، فأنتم شر منا

ولو استهزأتم بنا ونقمتم منا هذه الخصال؛ لأنكم عملتم أعمالاً تستحقون عليها اللعن، الذي هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومن ذلك استحلالهم للسبت، وقد حرم صيد السمك فيه، ومن ذلك استحلالهم لقتل الأنبياء، كما ذكر الله أنهم يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وما أشبه ذلك، فبذلك أصبحوا شراً، من كل ذي شر، فلهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾.

وقد ذكر الله أن سمة الغضب في اليهود أغلب، وسمة الضلال في النصارىٰ أغلب، فذكر أن اليهود هم أهل الغضب، قال تعالىٰ: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، والنصارىٰ أهل الضلال، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]؛ فذكر أنهم هم الضالون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، أي: مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير.

قيل: إن هذا المسخ هو في الذين اعتدوا في السبت، عندما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت ابتلاهم الله بالأسماك الكثيرة، تأتي إليهم يوم السبت، وتكثر ويسهل صيدها، فإذا كان يوم السبت الذي منعوا من الصيد فيه خرجت الأسماك علىٰ شواطئ البحر، وأخرجت خراطيمها؛ لأنها آمنة، قال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فإذا كان يوم الأحد لم تأتهم؛ بل انغمست في وسط الماء، وفي قعره، بحيث لا يستطيعون الحصول عليها، فأحزنهم ذلك وهالهم، عند ذلك تحايلوا

وحفروا حفراً في يوم الجمعة على شاطئ البحر، وملؤوها من ذلك الماء، فإذا جاء يوم السبت، وخرجت تلك الحيتان سقطت في تلك الحفر، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، وقالوا: نحن لم نأخذها في يوم السبت، ولا استحللناها إلا في يوم الأحد، يقال لهم: إن هذه بمنزلة الشراك، وبمنزلة الحبائل التي جعلتموها لها في يوم السبت، فكأنكم نصبتم الشبكة يوم السبت، فوقع فيها الصيد يوم السبت، ولم تأخذوه إلا في يوم الأحد، فمعناه: أنكم قد اعتديتم في السبت فسماهم الله تعالى معتدين، فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ أي: يعتدون فيه، إلى قوله: فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، فمسخهم قردة خاسئين.

وقيل: إن كبارهم مسخوا خنازير، وشبابهم مسخوا قردة.

وقيل: إن الذين مسخوا خنازير هم النصارى، وهم الذين كفروا بالمائدة التي أنزلت عليهم؛ لأن الله توعدهم بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وعلى أي حال فإن الله أخبر بأن منهم: ﴿الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾؛ أي: ومنهم من عبد الطاغوت، أي: طائفة منهم كثيرة عبدوا الطاغوت.

فتبين من هذا أن المشركين من قبلنا من اليهود والنصارى قد عبدوا الأوثان.

■ **قوله: [وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]]:**

وهذا دليل آخر على أن الذين قبلنا قد عبدوا الأوثان.

وقوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾؛ أي: على أهل الكهف، فعندما عثروا على أهل الكهف؛ الذين ماتوا قبل ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ثم لما بعثوا جعلوا ذلك كرامة لهم، واعتقدوا أنهم أولياء، فقالوا: هؤلاء أولياء صالحون، فمن أجل صلاحهم نبني عليهم مسجداً نتعبد فيه، ونتبرك بهم وبآثارهم، فبنوا عليهم مسجداً.

وقد لعن رسول الله ﷺ الذين يتخذون القبور مساجد؛ لا سيما قبور الأنبياء والصالحين والأولياء أمثال هؤلاء، فهذا وجه الذنب أنه ذمهم لكونهم اتخذوا عليهم مسجداً من أجل التعبد فيه الذي يؤدي إلى عبادتهم من دون الله.

■ **قوله: [وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ سَنَن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»** [1]**، أخرجاه].**

عندما عرفنا أن المشركين واليهود والنصارى قد عبدوا الطاغوت الذي هو الأوثان، وقد بنوا مساجد على قبور الأولياء والصالحين، تحققنا أن هذه الأمة ستعمل مثل عملهم، والدليل على هذا حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وقد تقدم بعض هذا الحديث في باب: من تبرك بشجرة، أو حجر، وهو قوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، وهذا القول قاله رسول الله ﷺ للصحابة الذين هم حدثاء عهد بالإسلام، عندما قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، ومسلم برقم (٢٦٦٩)، وقوله: «حذو القذة بالقذة» لم تخرج في الصحيحين، وقد أخرجها أحمد في «المسند» (٤ / ١٢٥)، والمروزي في «السنة» رقم (٤٩)، والآجري في «الشريعة» (١٩).

لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **لتتبعين سنن من كان قبلكم»**(١).

واللام في قوله: «**لتتبعن**»، موطئة القسم، كأنه قال: «**والله لتتبعن سنن من كان قبلكم**»؛ «**سننهم**»، أي: طرقهم، أي: تسيرون مسيرهم، وتفعلون أفعالهم، وفي رواية: «**شبراً شبراً، وذراعاً ذراعاً**»(٢)؛ أي: تسلكون مثلما سلكوا، وتفعلون كما فعلوا، وقد وقع مصداق ذلك في هذه الأمة مثل ما وقع في الأمم السابقة.

ففي الأمم السابقة من عبد الأوثان، وفي هذه الأمة كذلك من عبد الأوثان، ومن الأمم السابقة من عصى، ومن تحايل، ومن فعل، ومن فعل، ووقع في هذه الأمة مثل ذلك سواء بسواء، أو أعظم.

ورد في بعض الروايات أنه ﷺ قال: «**حتى لو كان فهيم من يأتي أمه علانية لكان في هذه الأمة من يفعل ذلك**»(٣)، مبالغة في تتبع طرقهم، والتشبه بهم، وفعل أفعالهم؛ ولذلك قال: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».

وجحر الضب: هو ما يحفره ليختفي فيه.

والضب: هو هذه الدابة التي تكون في البراري.

والعادة أن جحر الضب أكثر تعرجاً من غيره؛ لأنه يجعله معوجاً من هنا، ثم من هنا، ثم من هنا، أي: أنكم تسيرون خلفهم، حتى ولو كان سيرهم في طريق معوجة كثيرة الانحرافات، وكثيرة التقلبات، فإنكم تفعلون كفعلهم.

---

(١) سبق تخريجه في الباب الثامن (باب: من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣٤٥٦)، ومسلم برقم (٢٦٦٩).

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي برقم (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث غريب، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي رقم (٢١٢٩).

ومعلوم أن دخول جحر الضب صعب المنال، لا يمكن للإنسان أن يدخله، ولكن النبي ﷺ شبه بذلك الفعل مبالغة في تقليدهم وفعل أفعالهم.

ثم قال الصحابة: اليهود والنصارىٰ، أي: هل الذين نتبعهم هم اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن؟»؛ أي: نعم هم اليهود والنصارىٰ الذين تتبعوهم.

ومعلوم أن أفعال الأمم الذين من قبلنا والذين في زماننا منها ما هو عادة، ومنها ما هو عبادة، منها ما يفعلونه علىٰ وجه القربة، ومنها ما يفعلونه علىٰ وجه العادات.

فالنهي إنما هو عن أن نقلدهم فيما هو من العبادات المنحرفة، أما إذا كانت العبادات سليمة، فإنا نفعلها لكونها عبادة، فكذلك إذا كانت الأفعال التي يفعلونها مباحة، فإنا نفعلها ولو أنهم فعلوها، وذلك لأنهم لم يختصوا بها، ولأنها أفعال عادية، فلا نمتنع عن كل ما فعلوه إذا كان مباحاً، بل الأشياء التي فعلوها وهي محرمة أو معاصٍ نبتعد عنها.

وكان النبي ﷺ يحرص علىٰ موافقة اليهود فيما لم يؤمر به، فإذاً أمر بشيء فيه مخالفتهم خالفهم، لكنه في الآخر حرص علىٰ مخالفتهم، وجعل مخالفتهم أمراً مقصوداً لذاته.

وحذّر من موافقتهم في الأشياء التي يفعلونها تديناً؛ فمن ذلك أن المجوس الذين يعبدون النار، من شريعتهم أنهم يستحلون نكاح المحارم، ينكح أحدهم أمه وأخته وابنته، ونحو ذلك، فيوجد من يتسمىٰ بالإسلام من ينكح محارمه في هذه الأمة، ولو لم يفعلوا ذلك نكاحاً علنياً.

كذلك ـ أيضاً ـ قد أمر النبي عليه الصلاة والسالم بمخالفتهم، كما في نهيه عن حلق اللحىٰ وإطالة الشوارب، بقوله: «اعفوا اللحى، واحفوا الشوارب، خالفوا المجوس»[1]، فجعل مخالفتهم أمراً مقصوداً للشرع، وهكذا كل ما يتقربون به، أو

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري برقم (٥٨٩٢)، ومسلم برقم (٢٥٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، بلفظ: «خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب، وأوفوا اللحى».

يفعلونه تديناً، وجاء الشرع بمخالفتهم.

فالحاصل أنا عرفنا أن الشرع أمرنا بأن نستن ونقتدي بأفعال نبينا ﷺ الذي كمَّل الله له الدين، ونهانا عن أن نقلد أولئك فيما هو مخالف لهذه الشريعة، لا سيما إذا كان مخلاً بالعقيدة والتوحيد.

■ **قوله: [ولمسلم، عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»**(١)]:

هذا الحديث الذي ذكره المصنف علامة من علامات النبوة، فقد أخبر النبي ﷺ بهذه الأشياء؛ فكانت آية على صدقه، وأنه أخبر بما أخبره الله به، وأن الله أطلعه على الأمور التي لم تكن كيف تكون قبل أن تقع، وقد وقعت كما أخبر.

● **فالعلامة الأولى: قوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»**:

● زَوْيُ الأرض، معناه: تقريب قاصيها، زَوَيْتُ الشيء، بمعنى: عكفت أطرافه بعضها إلى بعض، وقربتها، وتقول مثلاً: انزوت الحلقة، إذا عكفت، ونحو ذلك.

● ومعنى زوى لي الأرض: أي: قربها، وأطلعني على ما هو بعيد منها، وهذا الفعل إما أن يكون تصويراً للأرض حتى كأنه يشاهدها؛ وإما كشفاً، بمعنى: أن

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٨٨٩).

الله صورها له، ولو كانت بعيدة، فأطلعه على قاصيها ودانيها، وعلى ما هو أمامه وخلفه من مواقع تلك البلاد ومواقع تلك الأمم، وبلادهم وسعتها وطولها وعرضها وسكانها، ونحو ذلك.

وقد يقال: لماذا خص المشارق والمغارب؟

قالوا: الحكمة في ذلك أن الإسلام امتد في المشرق والمغرب أكثر من امتداده في الشمال والجنوب، امتد في المشرق في عهد الصحابة ومن بعدهم، فقد فتحت بلاد الهند والسند، ووصل غزو المسلمين إلى بلاد الصين، وما اتصل بتلك البلاد دخلها الإسلام، وانتشر فيها وقوي، وخرج منها علماء وعباد.

كذلك أيضاً في المغرب فتحت بلاد أفريقيا، ووصل المسلمون إلى طنجة أقصى بلاد المغرب، وفتحوا الأندلس، وما اتصل به، وتمكن الإسلام من تلك البلاد، وبقي فيها متمكناً قروناً متطاولة، وذلك تصديقاً لما أطلع الله نبيه عليه من أن ملك أمته سيبلغ ما زوي له منها.

● **والعلامة الثانية: قوله ﷺ: «وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض»:**

الأحمر: هو الذهب.

والأبيض: الفضة.

وعبر بذلك عن كنوز الدولتين العظيمتين في وقته؛ حيث كانت الأرض في زمن النبي ﷺ مملوكة لدولتين فقط، وهما: **دولة الفرس**، ودولة الروم.

والروم نصارى يملكون الشام، ومصر، وبلاد أفريقية، وما اتصل بها، أي: يملكون نحو نصف الأرض.

أما الفرس فهم مجوس، ويملكون العراق، والبحرين، والمشرق بأكمله، يعني: ما وراء النهر من الهند والسند، وما اتصل بها.

والأغلب على كنوز الروم الذهب، والأغلب على كنوز الفرس الفضة.

فأخبر في هذا الحديث بأنه سيُفتح ملكهم، ويملك المسلمون تلك الكنوز من ذهب وفضة، وما يتصل بها من جواهر وزمرد، ، وسائر المقتنيات بأنواعها، وفعلاً حدث ما أخبر به، ومن أجل هذا أخبر في حديث آخر بقوله: **«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده»**، والمراد مَلِكَ الروم ومَلِكَ الفرس، ثم قال: **«والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**(١)، وفعلاً وقع ذلك بعد موته، فكان مصداقاً لما أخبر به في هذا الحديث وفي غيره، من أن أمته ستملك تلك الكنوز، وتنفقها في سبيل الله، وفي التوسع في نشر الإسلام، ونشر الدين في أقصى الأرض وأدناها، وقد فعل ذلك وقام به صحابته وتابعوهم رحمهم الله، هذا معنى قوله: **«أعطيت»**؛ أي: أعطيت أمتي.

ومن المعلوم أن الله تعالى قبض إليه نبيه بعد أن حصل منه البلاغ المبين، وأقام الحجة، وأوضح المحجة، وأنار السبيل، وبعد ما بلّغ ما أنزل إليه، وبعد ما أسلم أهل الجزيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، أمره الله بالاستعداد للقائه، فأمره بالتسبيح والتحميد والاستغفار إشارة إلى قرب أجله، ، ولكن بعد أن تحملت الصحابة شريعته، وعرفوا المسئولية التي عليهم، قاموا بالجهاد في سبيله، فجاهدوا الفرس والروم، وفتحوا بلادهم في أقرب وقت، وتوسعوا في الفتوحات، وانتشر الإسلام، فصدق الله رؤيا رسوله عليه الصلاة و السلام، وما أطلع عليه رسوله من أن أمته سيبلغ ملكها تلك المشارق والمغارب.

● **والعلامة الثالثة: قوله ﷺ: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وأن ربي قال: يا محمد: إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك: أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها،**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٠٢٧)، ومسلم برقم (٢٩١٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري برقم (٣١٢١). ومسلم برقم (٢٩١٩)، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه.

حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»:

- **وقع في هذه الجُمل آيات ودلالات وبينات:**

الأولى: إخباره بأن الله لا يهلك أمته بسنة بعامة، يعني: بعذاب سماوي، كما أُهلك من قَبْلَهم، أو بجدب عام، وقحط يعم البلاد، كلهم يهلكون مثلاً عطشاً وهزالاً، وقد أجار الله هذه الأمة من أن يهلكهم بهذا العذاب؛ كالسنة والقحط والجدب العام الذي يعم الأرض كلها حتى يهلكوا جهداً، أو يهلكوا بصيحة أو برجفة أو بصواعق أو بغرق وما أشبه ذلك، وقد أجار الله هذه الأمة لحرمة نبيها، واستجابة لدعوته، لما دعا لها أن لا يهلكهم بسنة تعمهم.

الثانية: إجارته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم، وهذه قيل: إنها مطلقة، وقيل: إنهامعلقة، فمعنى: كونه أجاره من أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم، معناه: أنهم ما داموا على هذه الأمية التي هي اتباع شريعته، يعني: كونهم من أمته، أي: من أتباعه فإنهم آمنون أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، فيستبيح بيضتهم.

والمراد ببيضتهم: حوزتهم، والمراد ذراريهم، ونساؤهم ونحو ذلك، أو المراد بلادهم وأرضهم، وما فيها، كأنه قال: ما داموا متمسكين بكونهم من أمتك، وعلى طريقتك وسنتك، يقلدونك ويطيعونك فيما قلت وفيما جئت به؛ فهم آمنون من أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم.

لكن متى وقع منهم أحد أمرين: إما الخروج عن الاتباع للرسول، وإما التسلط من بعضهم على بعض، فلا تأمن من أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، إما تسليطاً عاماً، أو تسليطاً خاصاً.

فالتسليط الخاص قد وقع، ولعل ذلك يصدقه الحديث القدسي: «**إذا عصاني من يعرفني، سلطت عليه من لا يعرفني**»، فقد وقع على كثير ممن يقول: إنه من أمة

محمد، ولكنهم لم يحققوا اتباعه، ولم يعملوا بسنته، بل عصوا الله معاصي ظاهرة، إما بالشرك وإما بالكبائر، وإما بإلغاء السنة ونشر البدعة، وبالحكم بغير ما أنزل الله، وما أشبه ذلك، فعند ذلك سلط الله عليهم بعض الأعداء من يهود ونصارىٰ وزنادقة وملحدين، ونحو ذلك.

ولكن إذا رجعوا إلىٰ السنة، وتحقيق الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام، ورجعوا إلي دينهم، فقاموا بالتوحيد في شئونهم كلها صغيرها وكبيرها، واجتنبوا الشرك، وحكّموا شرع الله في حياتهم، وتركوا القوانين الجاهلية، رجع لهم النصر والعزة والكرامة والتمكين في الأرض، والفوز في الآخرة.

وقيل: إن عدم التسليط مشروط بالتئامهم، وتآخيهم، وتعاضدهم، وتمسكهم بشريعتهم فيما بينهم، فإذا وقع من بعضهم علىٰ بعض التعذيب، والتقاتل، لم يأمنوا أن يسلط الله عليهم غيرهم، كأنه قال: (حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً)؛ بمعنىٰ: إذا وقع بينهم الشحناء، ووقعت بينهم الاختلافات والقتال، وصار بعضهم يغلب بعضاً، ويغير بعضهم علىٰ بعض، فإذا حصل منهم هذا الاحتلال وهذا القتال فلا يأمن أن يسلط عليهم من هو أكبر منهم فيجتاح الجميع، هذا هو تقدير الحديث.

فإذا أهلك بعضهم بعضاً فلينتظرون أن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، يكون أقوىٰ منهم يستولي عليهم جميعاً، ويأخذ بلادهم، وهذا هو ما وقع في كثير من البلاد التىٰ استولىٰ عليها النصارىٰ ونحوهم، فسبب ذلك إما عدم اتباعهم لرسول الله ﷺ، وإما تقاتلهم فيما بينهم.

فإن بلاد الأندلس أسبانيا والبرتغال وماحولها كانت في غاية القوة، ولكنهم لما طغوا وبغوا، وتكبروا وتجبروا، وزادوا عن الحد، وأظهروا المعاصي؛ سلط الله عليهم الإفرنج والنصارىٰ، فاستباحوهم وقتلوهم قتلاً شنيعاً، كما يظهر ذلك لمن

قرأ التاريخ، وهكذا سنة الله في عباده، أنه كلما خرجت الأمة عن حدها وطورها لم يأمنوا أن يسلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فهذا ونحوه وقع كما أخبر به النبي ﷺ.

■ قوله: [**رواه البرقاني في صحيحه، وزاد: «وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين. وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فئام من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»**[1]]:

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث ببعض الأمور التي تدل على نبوته وأنه نبي صادق، وقد وقع وتحقق بعض ما أخبر به ﷺ.

أولاً: قوله ﷺ: «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»:

الأئمة: جمع إمام، وهوكل من يقتدى به، ويتبع على ما يقوله ويفعله، فإن كان على حق وصواب فهو من أئمة الهدى، ، وإن خالف الحق وابتدع في الدين وردّ أمر الله تعالى وشرعه فهو من أئمة الضلال، وقد قال الله تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقد جعله الله قدوة وأسوة لمن بعده، حتى أن اليهود والنصارى يدّعون أنهم على ملته، لكن الله برأه منهم، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا**﴾ [النحل: ١٢٠]، وفسر الأمة بأنه: القدوة في الخير.

وقال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ الآية، [الممتحنة: ٤]، وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾،

---

(١) هذه الزيادة أخرجها أحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤)، وأبو داود رقم (٤٢٥٢)، و ابن ماجه برقم (٣٩٥٢)، والبيهقي في الدلائل (٦ / ٥٢٦)، والحاكم في المستدرك (٤ / ٤٤٩)، وصححه على شرط الشيخين. وقال في النهج السديد (ص١٢٩): صحيح على شرط مسلم.

أي: أتباعه من ذريته وأنبياء الله ورسله، ومن نهج منهجهم، فهم أئمة في التوحيد والإخلاص، والتمسك بالدين مع قلة المعين، وكثرة المخالفين، وأئمة في البراءة من المشركين، والكفر بهم وبما هم عليه من الشرك والتنديد.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]؛ أي: قدوة في الأعمال الصالحة، وفي توحيد الله تعالىٰ وعبادته، ودعاة إلىٰ الدين الصحيح.

وفي تخصيص المتقين دليل علىٰ أن هناك أئمة للكافرين والمشركين، وهم الأئمة المضلون، والدعاة بأقوالهم وأفعالهم إلىٰ الكفر والفسوق والمعاصي، وسواء كانوا من حملة العلم، أو من السادة والقادة، وأكابر القوم، وذوي الوجاهة فيهم، ممن يحبون اللهو واللعب، ويهوون المعاصي، ويقلدون أئمة الضلال، فيتبعهم الرعاع والسفهاء، والضعفاء في العلم والرأي، معتقدين أنهم علىٰ صواب، معرضين عن الحق وأهله، وهم الذين يقولون في الآخرة: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وهؤلاء السادة يضاعف لهم العذاب بقدر من أضلوه وصرفوه عن الصواب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، أي: مثلها دون أن ينقص شيء من أوزار الأتباع، فقد ورد في الحديث الصحيح: «**من دعا إلى هدى: كان له مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة: كان عليه من آثام من تبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً**»[١]. رواه مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٧٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم إن أئمة الضلال كل من نصب نفسه داعياً إلى بدعة، أو دين يخالف دين الإسلام، ويناقض شرع الله، فالدعاة إلى: اليهودية، والنصرانية، والبوذية، والهندوسية، ونحوهم، من دعاة الضلال، والدعاة إلى: التعطيل، أو التشبيه، أو الجبر، أو نفي القدرة، أو إلى الرفض، أو النصب، أو التصوف، أو التجهم، أو الاعتزال، أو الخروج على الولاة ونبذ الطاعة، ونحوهم، كلهم من الأئمة المضلين، وكذا الدعاة إلى الشرك الأكبر، أو الأصغر، باسم توسل أو تبرك، أو استشفاع، أو إلى البدع العملية: كإحياء ليالي الموالد، والصلوات المبتدعة، كلهم من الأئمة المضلين.

ولقد عظمت الفتنة بهم، واشتد الأمر واستفحل بأمثال هؤلاء المضلين، حيث حملوا مؤهلات عالية، ونظر إليهم العامة بعين الإكبار والاحترام، لما أعطوه من اللسن والفصاحة وقوة التعبير، ثم إنهم رأوا عامة الناس وأكثريتهم يعظمون أقوالهم، ويقتدون بأفعالهم، ورأوا جمهور الأمة قد نشؤا على الكثير من البدع والضلالات والشركيات، وتلقوا العمل بها عن الآباء والأجداد الذين عملوها عن تقليد وحسن ظن، جهل بالدين، فشق على العامة التخلي عن تلك المألوفات دفعة واحدة، لما في تركها من تضليل الآباء وانتقاد الأسلاف.

فرأى هؤلاء الأكابر التنزل على رغباتهم، وإقرارهم على عاداتهم، بل وتحسين حالهم، وإقرارهم على ما كانوا عليه، والتكلف في إقامة الحجة لهم ونصرهم، والتماس الأدلة ولو من بعيد لجواز تلك البدع والشركيات والمحدثات، ورأوا أنهم بذلك يحصلون على التوقير من الجماهير، والإعظام والإحترام، والقيام بالخدمة والإكرام، ويحصلون على مصالح دنيوية، بما يبذل لهم من المال، من أوقاف على تلك المشاهد، أو غلات على من يكون على تلك الطرق، وكذا ما يحصل لهم من المناصب الرفيعة، والوظائف العالية من قادتهم وملوكهم وسلاطينهم، فآثروا الدنيا على الدين، وخافوا إذا اختاروا الصواب،

وأعلنوا التوحيد، وأنكروا العادات المبتدعة أن ينبذهم الناس، وأن يسقطوا قدرهم، ويقطعوا عنهم المصالح، ويبعدوهم عن مناصبهم الرفيعة، فلا جرم تكلفوا في الرد على أهل الهدى، وركبوا الصعوبات والتأويلات البعيدة، ليردوا بها أدلة الكتاب والسنة، وبالغوا في التماس ما يبرر مواقفهم، مما سموه أدلة وبراهين، رغم أنها خرافات وخزعبلات، وحكايات باطلة، ومنامات خيالية، اعتمدوها واستدلوا بها على جواز ما هم عليه من الشرك، ودعاء الأموات والعمل بالبدع والمحدثات.

فهؤلاء أئمة الضلال الذين خافهم النبي ﷺ على أمته، لكثرة الانخداع بهم من العامة، الذين يظنون أنهم وصلوا إلى رتبة ومنصب يوافقهم الحق، ولا يحيدون عنه.

وعلى هذا فالواجب على كل فرد يحب الله ورسوله، ويريد النجاة من الكفر وأهله، أن يقصد طريق الهدى، وهو الصراط المستقيم، الذي نسأل ربنا الهداية إليه في كل صلاة وكل ركعة، وهو صراط: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وهو ما ترك النبي ﷺ عليه أصحابه(١)، فمن تمسك بسنتهم فهو من الفرقة الناجية(٢)، ومن حاد

---

(١) وقد جاء معنى ذلك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

أخرجه الترمذي برقم (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك (١ / ٢١٨)، والآجري في «الشريعة» (١٥، ١٦)، وغيرهم.

قال الترمذي: حديث مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه، وللحديث شواهد ترفعه لمرتبة الحسن. انظر «السلسلة الصحيحة» للألباني رقم (٢٠٣)، ورقم (١٤٩٢)، وظلال الجنة رقم (٦٣).

(٢) الفرقة الناجية هم: أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين لهم والسلف الصالح على مدى =

عنهم، وخالف سنتهم، ولاّه الله ما تولىٰ، وأصلاه جهنم، كما أخبر الله بذلك[١]، والله أعلم.

● ثانياً: قوله ﷺ: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»:

المراد بالسيف: القتال بين الأمة الإسلامية، وهو قتال الفتنة بين طائفتين من المسلمين، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

وقد كان المسلمون في أول الإسلام كالإخوة، يحب بعضهم بعضاً، ويؤثر بعضهم بعضاً، يمثلون قول النبي ﷺ: «مثل المؤمنين: في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر

= القرون، وهم أصحاب الحديث وأهل العلم والفقه، وهم أيضاً الدعاة في سبيله والمجاهدين لإعلاء كلمته، وهم الغرباء الذين يُصلحون إذا فسد الناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ؛ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ، حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»، أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، وصححه.

ثم قال: وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ. ولكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحده وهي الجماعة، وفي حديث عنه أنه قال: هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي، وصار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشَّوْب هم أهل السنة والجماعة.

وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم أعلام الهدىٰ ومصابيح الدجىٰ، أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال، وفيهم أئمة الدين الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهم الطائفة المنصورة أ. هـ.

وسيأتي في هذا الباب قريباً الكلام على الفرقة الناجية.

(١) لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والحمى»[١]، وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»[٢]، متفق عليهما.

فمتى ضعفت هذه الأخوة في القلوب، ووقعت بدلها الشحناء، والبغضاء، والعداوة، والتقاطع، والغش، والخداع، والمقاطعة التامة، نتج عن ذلك القتال، وكثرت الحروب، وحدثت بينهم الفتن واستمرت، كما حدث أولاً بقتل عثمان الخليفة الراشد رضي الله عنه، ثم ما بعده من الملاحم التي أضعفت كيان المسلمين، فصار بعضهم يقتل بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، ولم يزل القتال مستمرا من ذلك الوقت إلى زماننا هذا، وإلى يوم القيامة، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

ولاشك أن هذا من المصائب الكبيرة على المسلمين؛ حين يكون بأسهم بينهم، ينشغلون بذلك عن قتال أعدائهم، ولا ينافي ذلك ما يحدث في بعض الأحيان من الاجتماع والائتلاف، وتوقف القتال؛ حيث قد يتوقف في جانب ويكثر في جانب آخر، ومتى اجتمعت كلمتهم، وتوجهوا نحو أعدائهم، وأعدوا العدة للكفار؛ فإن الله ينصرهم ويقويهم، والله المستعان.

● **ثالثاً: قوله ﷺ: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»:**

هذا هو الشاهد، أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن أمته سيقع فيها الشرك، وأنه سيوجد فيهم من يعبد الأوثان، وسيوجد فيهم من يرتد عن الإسلام، وينضم إلى طوائف المشركين، والكافرين، وقد وُجد هذا قديماً وحديثاً، فوجدت طوائف ارتدت عن الإسلام، فبعد موته عليه الصلاة والسلام ارتدت طوائف عن الإسلام وقاتلهم الصحابة حتى رجعوا إلى الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٠١١)، ومسلم برقم (٢٥٨٦)، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٨١)، ومسلم برقم (٢٥٨٥)، عن أبي موسى رضي الله عنه.

وهذا الحديث يدل على أن هناك أعداداً كثيرة، يلحقون بالمشركين ينزحون عن بلاد المسلمين، وينضمون إلى المشركين، ويلحقون ببلادهم، وإذا كانوا معهم في بلادهم، فلابد أنهم يكونون مثلهم، فيشركون ويكفرون ويعبدون من الآلهة مع الله، أو من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وكما يفعل المشركون الذين هم معهم.

فإذا وجد أن هناك طوائف نزحوا وانتقلوا من بلاد أهلها مسلمون من أجل أمور دنيوية، ومصالح شخصية، أو مرفهات، ونعم دنيوية، أو ما أشبه ذلك، ونزلوا بين المشركين، وسكنوا بينهم؛ فإنهم قد عصوا في ذلك، ويدخلون في مثل هذا الحديث: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي**»، وفي رواية: «**أحياء**»؛ أي: قبائل: «**من أمتي بالمشركين**».

ولم يذكر أنهم يشركون، ويمكن أن يكون المراد: يلحقون بهم في الشرك، فيشركون كما أشركوا، ويمكن أن يكون المراد: يلحقون ببلادهم، فينتقلون من بلاد الإسلام، ويهاجرون من بلاد الإسلام إلى الكفار، وتلك وسيلة وذريعة إلى الكفر.

وقد ذكر لي كثير من المشايخ وغيرهم أن فئاماً وطوائف انتقلوا من بلاد كانت تحكمها الدول الإسلامية وسكنوا بين بلاد مشركة وكافرة، تمسك الآباء بالإسلام، ولكن ظهر أولادهم بين الكفار، فلم يعرفوا إسلاماً، فأصبحوا مع من هم بين أظهرهم مشركين وكفاراً وملاحدة ولا دينيين أو نصارى، أو ما أشبه ذلك، وهذه مفاسد الإقامة بين المشركين، فإنه لو تسمك الأب الذي يعيش مع الكفار بدينه، وحافظ على إسلامه، لم يتمسك ولده وولد ولده وهلم جرّاً.

● **رابعاً: قوله ﷺ: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»:**

الوثن هو: كل ما عبد من دون الله، سواء كان له صورة أو ليس له صورة،

فإذا عبد أحدهم قبة فقد عبد وثناً له صورة، سواء كانت تلك القبة على قبر أو على بقعة أو تربة ترجى فيها البركة أو نحو ذلك. فإذا بُنيت القبة على تربة أو قبر وصار يُطاف بها أو يتمسح بها أو يتحرى الصلاة والاعتكاف عندها أو الذبح عندها؛ فإن ذلك كله عبادة لتلك القبة، ولو لم تسمى وثناً، وسواء كانت الاعتقادات في نفس البناية أو في نفس المبني عليه، يعني: المقبور، ولو كان ولياً أو صالحاً أو نحو ذلك، فإن هذا يعتبر وثناً، حتى ولو لم يسموه وثناً، وسموه مزاراً أو مشهداً؛ فإن الأسماء لا تغير من الحقائق شيئاً.

وهكذا لو عبدوا شجرة؛ فطافوا بها أو اعتكفوا عندها وذبحوا لها، وكذلك لو عبدوا عيناً واعتقدوا فيها بركة وشفاءً، وحملهم هذا الاعتقاد على السفر إليها والإقامة عندها والذبح لها والاعتكاف عندها وما أشبه ذلك؛ فإن هذا يعتبر وثناً ولو لم يسموه وثناً.

وهكذا لو عبدوا ميتاً ولو لم يكن مصوراً، يعني: لم ينحتوا له صورة، ولو لم يبنوا عليه قبة أو لم يرفعوا ضريحه، فما دام أنهم يهتفون باسمه ويدعونه ويعتمدون عليه، فإنهم يصدق عليهم أنهم ممن يعبد الأوثان.

والمعنى: أنه لا تقوم الساعة حتى يعبد فئام، أي: أعداد كثيرة من الأمة الأوثان والأصنام، وهذا لا شك مشاهد وملاحظ، حيث نرى الكثير من الناس اليوم في مشارق الأرض ومغاربها يعبدون القبور والأولياء والصالحين والأموات ونحوهم، فهم يعبدون أوثاناً، والله المستعان.

● **خامساً: قوله ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي»:**

وهذا إخبار منه ﷺ عن الكذابين الذين يخرجون بعده ﷺ؛ حيث أخبر بأنه يوجد في أمته: ثلاثون كذاباً، كلهم يزعم أنه نبي، يدّعون النبوة، وهم كاذبون.

والمراد بهؤلاء الكذابين الثلاثين الذين يغتر بهم خلق كثير، ويعتقدون صدقهم، ويتبعونهم وينخدعون بهم.

أما من يدعي ذلك ثم لا يُلتفت إليه، ولا يتبع في دعواه، كأن يزعم مرة أو مرتين، ثم لا يجد رواجاً لبدعته، فهذا لا يدخل في هؤلاء الكذابين الثلاثين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ في هذا الحديث.

وهذا حق؛ لأنه قد زعم النبوة وادعاها جمع غفير يزيدون عن المائة أو المئات، ولكن يغلب على أكثرهم ذلك من اختلال، أو جنون يكون بأحدهم، أو وسوسة شيطانية، أو خيالات، أو ما أشبهها، فيوسوس له الشيطان أنه نبي، ويقول له: إني أنا الملك، وأنزل إليك، وما أشبهه، أو يخيل إليه، ويصرح بذلك، وهذا وجد كثيراً، وليس المراد هؤلاء.

إنما المراد من يكون له شوكة، ويحصل به فتنة، كما حصل للأسود العنسي في اليمن، الذي ادعى النبوة في آخر العهد النبوي، وقتل قبيل موت النبي ﷺ، واستولى على جل أو كل البلاد اليمنية من نجران إلى صنعاء في نحو ثلاثة أشهر، وكما حصل لمسيلمة الكذاب لما ادعى النبوة وافتتن به خلق كثير، وهكذا.

وقد ذكر بعضهم أنه وجد نحو سبعة وعشرين ممن يصدق عليهم أنهم ممن انخدع بهم خلق كثير، ومن آخرهم ذلك الذي ادعى النبوة في الهند، الذي يقال له: أحمد مرزا غلام القادياني، ولا شك أنه قد انتشر مذهبه وتوسعت دعوته، وفشت، وتمكنت تمكناً شديداً، فكل دعوى للنبوة كهذه يعرف كذبها؛ لأنه ﷺ خاتم النبيين ليس بعده نبي ولا رسول، وشريعته خاتمة الشرائع.

● **سادساً: قوله ﷺ: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»:**

ومما اشتمل عليه هذا الحديث البشارة النبوية، وهي إخباره ﷺ بأنه لا تزال

طائفة من أمته على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى.

وهذه الطائفة هي: الطائفة الناجية، وهم أهل السنة والجماعة، فقد أخبر النبي ﷺ وبشر بهذه الطائفة، وبأنهم سيبقون إلى أن تقوم الساعة، ولا يلزم أن يكونوا في بلد واحد، بل يجوز أن يكونوا في بلاد متفرقة، لأنه بشرهم بأنهم لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، وبأن الله ينصرهم، ويقويهم، وينجيهم، وقد يكونون في زمن من الأزمان في ناحية وقطر من الأقطار، ثم ينقرضون منه وينتقلون إلى قطر ثانٍ وناحية أخرى.

*** وقد اختلف في هذه الطائفة المنصورة من هي؟ وما صفاتها وما علامتها؟**

فقد روي عن أحمد أنه قال: (إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أعرفهم)، ففيه رجاء أن الذين يبحثون الحديث النبوي، ويعملون به، ويقرؤنه، ويهتمون بفقهه، وبتعلمه، وتعليمه، يرجى أن يكونوا هم الطائفة الناجية المنصورة.

ومن العلماء من يقول: (هم أهل السنة والجماعة)، ممن كان على عقيدة السلف الصالح، وممن كان على ما مثل ما عليه النبي ﷺ وصحابته؛ فإنهم هم الطائفة، وهم الجماعة، وهم أهل الحق.

وأخبر في هذا الحديث، بأنهم يبقون إلى أن يأتي أمر الله، وقد جاء في أحاديث أخرى معنى قوله: «أمر الله». فقد ثبت أنه ﷺ أخبر بأنه لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: «الله الله»[1]، وأن الخير يقل أو ينعدم قبيل قيام الساعة، وأن الله يرسل ريحاً طيبة قبيل الحشر، تقبض من كان مؤمناً صادق الإيمان، فيبقى رجالٌ أو أناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً، ولاينكرون

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٨)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

منكراً، يتهارجون كما تهارج الحمر الوحشية، وعليهم تقوم الساعة[1].

فالمراد بأمر الله حينئذ في هذا الحديث هو: هذه الريح، أو يأتيهم أمر الله الذي هو: قرب قيام الساعة.

ففيه أنهم يبقون منصورين ينصرهم الله على من خذلهم، ويعينهم على من قاتلهم، ويؤيدهم ويعزهم متى كانوا متمسكين، لكن إذا تخاذلوا، وتخلوا عن الحق، وعن العمل به، فلا يؤمن أن ينتزع الحق منهم، إلى غيرهم، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وقد وقع هذا كثيراً، فهناك مثلاً طوائف وبلدان كان أهلها متمسكين بالحق، ولما تخلوا عنه، سلط الله عليهم من قتلهم أو قاتلهم، وفرق كلمتهم وفرقهم شذر مذر، وانتقل الحق إلى من قاموا به، وناصروه، وتمسكوا به غاية التمسك.

وهذه هي سنة الله تعالى في عباده: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ٢٣]، أنه يخذل من خذله، وينصر من نصره.

وعلى كل حال فإن هذه بشارة عظيمة أن هناك من يبقى متمسكاً بالحق، ولعل السبب في ذلك قيام حجة الله على العباد، فإنهم متى حكموا شريعة الله، ونشروا دين الله تعالى لم يبق لأحد حجة ولا عذر في أن يعتذر بأنه ما بلغه الحق، ولا قامت عليهم الحجة، لقوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، والله أعلم.

■ ■ ■ ■ ■

(١) وردت هذه الجمل عند مسلم برقم (٢٩٣٧)، ورقم (٢٩٤٠)، وغيرها.

الفهرس

الموضـــــوع | الصفحة